نجم عبد الكريم

أدباءِ من العالم

غرائب مأساوية - سيَر وحكايات



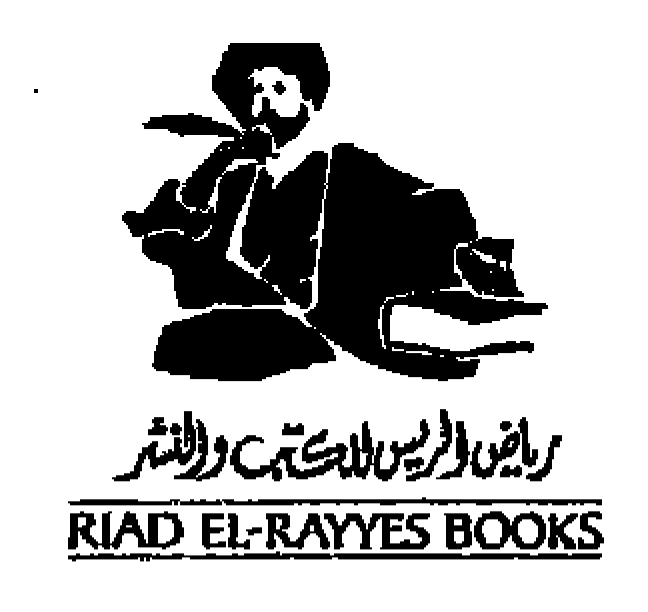
أدبــاء مـن العــالــم

غرائب ماساوية ـ سيَـر وحكايات

د. نجم عبد الكريم

أدبـاء من العالـم

غرائب مأساوية ـ سيَـر وحكايات



Authors around the World

Tragic Peculiarities - Biographies and Stories

Dr. Najim Abdulkareem

First Published in July 2013

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 978 - 9953 - 21 - 560 - 0

الطبعة الأولى: تموز (يوليو) ٢٠١٣

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

المحتويات

مقدمة الكتاب
ايضاح.. لا بد منه!!..

إن الوقوف على أحداث استثنائية من تجارب أدباء استثنائيين، لا يُعد تأريخاً لحياتهم. . هو محاولة استكشاف السرّ الذي كان يكمن وراء انطلاقتهم نحو الخلود الذي سجّلهم كمبدعين.

ولا نظن أن هذه اللمحات التي تم اختيارها عن تجاربهم المثيرة كافية للإحاطة بجوانب كثيرة من تاريخهم الحافل بالمعطيات الإبداعية، ولكنها كفيلة بأن تضع بين أيدينا المفتاح الذي نلج من خلاله إلى سبر أغوار تلك اللمعات المضيئة في الثراء الإبداعي الذي ميزهم.

وهي ليست دراسة تحليلية أو نقدية لمنجزاتهم، إنما هي الوقوف على مواقف محددة مهدت إلى

إبراز تلك الظروف التي حددت مكانة كل واحد منهم في عالم الإبداع.

وقد يُدهش القارئ عندما يقف على ما لا يصدّقه عقل في تصرفات هؤلاء العظماء وتباين سلوكياتهم الغريبة أحياناً، والمأساوية أحياناً أخرى، ومعظمها تتفاوت ما بين الشذوذ، والتمرد، والانفلات الذي يصل إلى حد العبثية والجنون، بل والمرض فضلاً ناهيك عن، الطرافة!!..

لكن تلك الدهشة سرعان ما تخف وطأتها عندما يقف على ما تضمنته معطياتهم التي غاصت في أعماق النفس البشرية، وتناولت كل خلجات طبيعة الإنسان منذ ولادته، وإلى أن يُسدل عليه ستار الحياة.

نجم عبد الكريم
لندن ـ حزيران ٢٠١٣

بدايات تشارلز ديكنز

احتفلت بريطانيا والدول الناطقة بالإنكليزية في شهر شباط/ فبراير عام ٢٠١٢ بمناسبة مرور مئتي عام على ميلاد أحد عباقرتها (تشارلز ديكنز)، وتخلل هذه الاحتفالات إقامة المنتديات والمعارض التي احتوت على كافة معطيات المحتفى به في العديد من المدن والبلدان. كذلك تقررت إقامة ندوات أدبية لمدة عام كامل، وكلها تدور حول حياة وأدب تشارلز ديكنز.

وتشارلز ديكنز دون أن يتعمد أن يرفع شعاراً أو يدخل في جدلٍ بخصوص مهمة الكاتب في مجتمعه، صاح من خلال أعماله الفريدة: (الفن للحياة)، وكان ذلك رده الحاسم على غلاة الرومانسية الذين سبقوه، والذين رفعوا شعاراً يكتنفه الضباب كثير الضوضاء، هو: (الفن للفن)، هذا الشعار الذي رفعه عدد من الكتّاب والشعراء أمثال شيللي، بايرون، لامارتين وأمثالهم!

إنه الكاتب الروائي الفنان، الذي كان خير من عبّر عن مجتمع القرن التاسع عشر في بلاده، والذي أهدى إلى قرائه ـ من كافة الأعمار ـ أخلد الأعمال الروائية مثل: (أوليفر تويست)، و(قصة مدينتين) و(ديفيد كوبرفيلد) و(دوريت الصغيرة)، وعشرات غير هذه، هي من أروع صور الإنسانية التي طالما أبكتنا وأضحكتنا في آن واحد!!

ولا يزال أطفال العالم وشيوخه يجتمعون حول جهاز التلفاز الذي ما فتئ يعرض أسبوعياً منذ سنوات مسلسلات من أعمال هذا الكاتب العظيم الذي كتب معظم أعماله من عصارة تجربته الشخصية المريرة والمأساوية في الحياة، حيث كتب أروع الأعمال الدرامية في تاريخ الأدب الإنجليزي، وتناولت أعماله السينما العالمية فقدمت أفلاماً رائعةً في تميزها.

□ □ □

الطفولة:

في بيتٍ فقير من بيوت تشاتام (Chatham) الواقعة على مدخل نهر التايمز، جلست السيدة ديكنز محمرة الوجه خجلاً أمام طفلها تشارلز ابن العاشرة، وقالت له:

ـ لا شك أنك تفهم ظروفنا يا ولدي، أليس كذلك؟! قل إنك تفهمها حتى يطمئن قلبي!!

ـ ولكنني يا أماه، لا أريد أن أبقى وحدي في تشاتام.

ـ لقد كنت دائماً تحب هذه المدينة يا ولدي!

ـ وما زلت يا أماه، ولكنني كما قلت لكِ، أريد أن أذهب معكم إلى حيث تذهبون!

ـ هذا مستحيل لسوء الحظ يا تشارلز. أتحسب أنني لم أدرس الموقف كله مع أبيك؟! لقد خرجنا بنتيجةٍ واحدة، وهي ضرورة سفرنا إلى لندن مع إخوتك الصغار، بينما تبقى أنت هنا في رعاية القس جايلز حتى نرسل إليك فتجتمع الأسرة من جديد.

ـ وهل سأعيش عالة على القس يا أماه؟!

ـ كلا كلا. بالطبع، سندفع له ما يدخل في طوقنا ثمناً لإقامتك وطعامك، لا أقول إننا سندفع ذلك على الفور، ولكن حين تتحسن ظروف أبيك. أنت تعرف يا تشارلز أن أباك مدين لكل دكان في تشاتام، وأننا سنذهب إلى لندن في عملٍ جديد لأبيك هناك على أمل تسديد ما علينا من ديون.

ـ ثم تعودون إلى تشاتام، أليس كذلك؟!

ـ بإذن الله، وإذا لم تتيسر لنا ظروف العودة أرسلنا إليك لتلحق بنا.

□ □ □

- وعلى مضض قبل تشارلز الصغير فراق أسرته. الأب السيد ديكنز كان مقامراً وشارباً للخمر بإدمان، ويستدين من الناس دون حياء أو خجل، لكنه كان يرفق بأسرته، وخفيف الظل، أيضاً يحسن معاملة أطفاله العديدين، ستة أكبرهم تشارلز ابن العاشرة.

- ووقف تشارلز ذات صباح من ديسمبر عام ١٨٢٢ يشهد العربة التي حملت أسرته فارّةً من دائنيها في تشاتام إلى مقرها الجديد في كامدن في مدينة لندن. كان والده يتعجل الرحيل خوفاً من أن يمنعه أحد الدائنين، وكانت أمه تنظر إليه من نافذة العربة، والدموع تملأ عينيها. كانت من ذلك الطراز الذي يركع أمام ضربات القدر في استسلام. ومسح أبوه بيده الكبيرة على شعره قائلاً:

ـ تشارلز يا ولدي، ستكون مع صديقنا القس جايلز في خير حال، وعليك أن تطيعه في كل ما يأمرك به، وثق من أننا سنرسل من يحملك إلينا في كامدن في أقرب فرصة.

- وكان تشارلز الصغير يحب مدينة تشاتام حباً كبيراً، ولكن الخوف من الوحدة في بيت القس جايلز، دفعه إلى الصلاة كل يوم ليوفق الله أباه إلى عمل مناسب يمكّنه من أن يسدد ما عليه من ديون ويجتمع شمل الأسرة من جديد.

لم يكن القس جايلز بالجاف أو بالغليظ القلب، لكنه لم يكن يدرك أن تشارلز يحب الغابة القريبة من المدينة بغدرانها

وطيورها وحيواناتها، كي يعوّض حبّ أمه وأبيه وإخوته الصغار، فتوجه القس إلى تشارلز يوماً قائلاً:

ـ أمرك عجيب يا تشارلز، تقضي اليوم كله في الغابة بلا أي عمل؟! إن الله لا يرضى عن الكسالى يا تشارلز، وإنك تهمل ما أعهد به إليك من أعمال!.

وكان الصبي تشارلز الصغير وحيداً وحدة كاملة، فكان إذا ما انتهى من الأعمال التي ينيطه بها القس، يسرع إلى الغرفة العليا فوق السطوح التي خصصها له القس جايلز!! كتب في ما بعد عن تلك الحقبة:

«كان القس جايلز قبل أن ينام يسمعني جملته المعتادة كل ليلة:

حتى الآن لم يرسل أبوك السيد ديكنز بنساً واحداً من نفقاتك يا تشارلز! ولست أدري إلى متى يطول هذا الحال؟! وما إن أسمع شخيره يأتيني من أسفل، حتى أعيد إشعال المصباح الغازي وأبدأ في القراءة. قرأت: (دون كيشوت)، (روبنسون كروزو)، (جيل بالاس)، و(ألف ليلة وليلة)، وذهبت محلقاً مع الخيال كل مذهب حتى اختلطت الحقائق في حياتي مع الخيالات.

وبتُّ لا أحلم إلا بالسفر والمغامرات، ومن غرفتي هذه الصغيرة طرت محلقاً إلى الأندلس مع (دون كيشوت) أعاونه في إنقاذ أميرته من اللصوص والشياطين، وأسبح مع السندباد على خشبة

في البحر بعد أن غرقت السفينة، وجبل المغناطيس يجذبنا إليه بشدة، وأقفز من شجرة إلى شجرة في الغابات الاستوائية مع قرود روبنسون كروزو وحيواناته العجيبة.

□ □ □

● وكان يحلو لتشارلز الصغير أن يصعد تلاً يشرف على المدينة وقد أُنشئ عليه بيتٌ كبير كأنه قصر الأحلام. كان يقف مذهولاً أمام جمال البيت وضخامة أحجاره.

ـ لن أنسى ما حييت المشاعر التي كانت تحتويني وتسربلني في نشوتها وأنا أتأمل بيت جادزهيل، وما تمنيت شيئاً في حياتي قدر ما تمنيت مثل ذلك البيت الجميل. أذكر أن أبي وجدني ذات يوم عند ذلك التل وسألني:

ـ أرى يا تشارلز أن بيت جادزهيل يأسر لبّك. هل به صبية في مثل سنك تأتي إلى هنا لتلعب معهم؟!

ـ كلا يا أبت، ولكني حين أكبر ويصير معي المال الكثير، سأسكن هذا البيت.

ـ إذا أنفقت كل كسبك على الخمر والقمار مثل ما أفعل، فلن تسكن إلا أحقر الأكواخ!!

□ □ □

إلى لندن

لم يبق تشارلز مع القس جايلز في تشاتام غير عام واحد، ثم أرسل أبوه من يحمله إلى الأسرة في كامدن، حيث أقاموا في بيت متواضع.

ـ كنت وإخوتي الخمسة ننام في غرفةٍ علوية باردة، تعول فيها الريح ويتسلل من نوافذها المغلقة برد الشتاء بلا رحمة إلى أجسادنا الضعيفة. من حسن حظي أنني حملت معي روبنسون كروزو وغاباته، والسندباد وسفنه وساحراته، ودون كيشوت وقلاعه وميادين مبارزاته. كنت أطمح إلى أن يرسلني أبي إلى المدرسة لأنني سمعته يقول ـ ونحن نتناول العشاء ـ أنه وفّق إلى عمل مناسب وأنه أقلع عن شرب الخمر ولم يعد مقامراً.

ـ ولكن ما أكسبه يا تشارلز يا ولدي، لا يكفي لنفقات المدرسة، ومن الضروري أن تبقى في البيت لتساعد أمك في أعمالها المنزلية. أنت أكبر إخوتك وأمك مسكينة. يرهقها العمل المتصل في خدمة إخوتك الصغار. كان بودي أن أعاونها، ولكن ماذا أفعل والعمل في المصنع اللعين يعتصر كل نشاطي نهاراً وليلاً!!

□ □ □

● كان تشارلز يعرف أن أباه يكذب!! صحيح أنه كان يعمل بكل

نشاط في النهار، ولكن ما إن تعلن صفارة المصنع انتهاء موعد العمل، حتى يسرع إلى حانة سيئة السمعة في أقصى الجنوب من كامدن. هناك ينفق كسبه كله على الخمر والمقامرة!!

كان يعود إلى البيت متأخراً والكل نيام وكان بارعاً كل البراعة في تمثيل دور الرجل الذي أرهقه العمل.

وإذا حدث وعاتبته زوجته عن تأخره، ومعاقرته الخمر، كان يجيبها بصوته المرح قائلاً:

ـ كيف بالله عليك يا عزيزتي إليزابيت يكون موقفي عندما أرفض كأساً من الشراب بمناسبة عيد ميلاد ابن أحد زملائي في العمل؟!

□ □ □

● وأمعن السيد ديكنز في هواياته، الخمر والمقامرة، واستدان، ثم تكاثرت عليه الديون، وكثرت دقات الدائنين على باب البيت، ثم اشتدت مهددة، وعرف تشارلز الطريق إلى دكان بائع الأثاث القديم بعد أن قال له والده:

ـ يا ولدي، لا مفر من أن نبيع بعض ما لدينا من أثاث كي نسدد بعض الديون، كما ترى، نحن لسنا في حاجة إلى كل هذه الكراسي، يجب أن نفسح الطريق لإخوتك الصغار حتى لا يتعثروا في سيرهم، وأنا لا أريد الذهاب إلى دكان بائع الأثاث حتى لا يقول الناس إن السيد ديكنز المحترم يبيع

أثاث بيته، هذه مهمتك أنت يا عزيزي، ولكن عليك أن تحسن مساومة البائع.

● وكثرت رحلات تشارلز الصغير إلى بائع الأثاث، ومن بعده إلى المرابي ليرهن ما بقي في معصم أمه من حلي فضية. وتفاقمت الظروف السيئة، وحوصر السيد ديكنز بالدائنين الغاضبين، وكان لا بد من السجن!!

وبينما كان السيد ديكنز في طريقه إلى سجن مارشال سي، قال لولده:

ـ لا تبك يا تشارلز، لا تبك يا ولدي، ستقوم أنت بما عجزت أنا عن القيام به، ستسدد ديوني وستخرجني من السجن. أليس كذلك يا تشارلز؟!

ـ (ببكاء) **أجل يا أبت.. سأعمل كي أسدد ما عليك من ديون، وستعود إلينا إن شاء الله يا أبت.**

ـ أنا واثق يا تشارلز من أنك ستفي بوعدك هذا، المهم أن تستمع إلى نصيحتي وتبتعد عن الخمر والمقامرة، وستفهم معنى هذه النصيحة حين تكبر!!

وبكى تشارلز الصغير حتى انشق قلبه في صدره. بات ليلة حزينةً كالحة. كان يحب أباه ويلتمس دائماً له المعاذير. صار الآن وجهاً لوجه في مواجهة الحياة، وحده مثل (أوليفر تويست) ومثل (نيكولاس نيكلباي) ومثل (بوب فاجن).

شخصياته الرائعة التي رسمها من واقع حياته المليئة بالتجارب المريرة!!

ـ لم يكن أمامي إلا أن أقبل أي عمل يدرّ على ما أنفقه على أمي وأخوتي وأدخر منه ما يكفي لإخراج أبي من السجن، وطلبت من والدتي أن تبحث لي عن عمل.

ـ لم أدع مكاناً في كامدن دون أن أسأل لك عن عمل فيه، ووجدت أخيراً عملاً قد لا ترضى عنه يا تشارلز!!

ـ وما هو يا أماه؟!

ـ ماسح أحذية!!

ـ ولم لا يا أمي؟ ألا تذكرين عندما كنت أستيقظ في السادسة صباحاً، وأقوم بتنظيف أحذية كل أفراد الأسرة؟! فأنا ماهر في مسح الأحذية!!

● ولم يقتصر عمله في دكان مسح الأحذية على التنظيف واستخدام الأدهنة المختلفة، بل عهد إليه صاحب الدكان بالعمل في المصبغة التابعة له والكائنة خلف الدكان، ويومها قال له:

ـ كان يجب أن تكون رساماً يا تشارلز، إن لك موهبة فريدة في خلط الألوان، وهذا لا يتقنه سواك من الأولاد زملائك العاملين في الورشة!!

ـ إذن يجب أن ترفع أجري يا سيد لامبرت؟!

ـ كنت قد اتفقت مع والدتك السيدة ديكنز على ستة شلنات في الأسبوع، سأجعلها سبعة. ما رأيك؟!

ـ أضف إليها وجبة الظهر!

ـ حسناً.. حسناً.. مع وجبة الظهر، إنني كريم كما ترى.. فلا تحاول أن تستغل كرمي أكثر من ذلك!!

● واستأجر تشارلز الصغير غرفة في بيتٍ فقير يعيش فيها وحده، بعد أن اضطرت أمه إلى الذهاب مع أطفالها لتعيش مع زوجها ـ حسب القانون ـ في سجن مارشال سي، وكان تشارلز يهرع فور قيامه من النوم إلى السجن ليتناول طعام الإفطار الحكومي مع أفراد أسرته، ويستمع إلى نصائح أبيه الخالدة:

ـ كن حذراً يا ولدي، إياك والخمر، وإياك والمقامرة!

□ □ □

الصداقة

● وبعد وجبة الإفطار في السجن، كان تشارلز يسرع الخطى نحو المصبغة، التي تعرَّف فيها بصديق في مثل سنه، كان له أكبر الأثر في حياته كلها، إنه صديق طفولته وصباه، بل

وصديقه الصدوق في شبابه بوب فاجن، الذي خلّده في روايته (أوليفر تويست).

«كان مثلي من الفقراء. كان يكبرني بعام واحد، لكنه كان ذكياً لمّاحاً ويستطيع أن يؤدي أي عملٍ مهما بلغت خطورته، وخصوصاً إطفاء الحرائق. ولا غرو، فقد كان أبوه جندياً في فرقة المطافئ، ثم تزوج أبوه بامرأةٍ من حثالات المجتمع بعد أن ماتت والدته. كانت زوجة أبيه قاسية عليه، ففرّ من عسفها واضطهادها له، فسكن مثلي غرفةً حقيرة على سطح أحد الدور».

● وكان تشارلز ديكنز يحس بالخجل والعار من وضعه، فلم يقدر على مصارحة صديقه الجديد بحقيقة أبيه، ولم يجرؤ على أن يذكر له أنه يتناول الإفطار كل يوم في السجن قبل حضوره إلى الورشة. وكانا إذا خرجا من عملهما يذهبان إلى تلٍّ قريب يشابه التل الذي يحبه تشارلز في تشاتام، والذي كان يحنّ إليه دائماً، ما دفع بوب إلى أن يسأله:

ـ لماذا تأتي بنا كل ليلة إلى هذا التل يا تشارلز؟!

ـ كان لنا في تشاتام تلٌّ مشابه له، فأحسُّ بالأمن يا بوب وأنا على هذه الربوة!

ـ وأين تسكن الآن؟! إنك لم تأخذني قط إلى بيتك، مع أنني أخذتك مرات إلى حيث أقيم؟!!

ـ (في تلعثم) إن أبي رجل عجوز ولا يحب الأغراب. كان أبي في يوم من الأيام من كبار أثرياء تشاتام، لكنه أنفق كل أمواله على أقاربنا الفقراء!!

ـ أما أنا فأبي كما تعلم ينفق كل ما يحصل عليه على زوجته الخائنة التعسة!!

□ □ □

● وبعد أن توطدت الصداقة بينهما، لم يملك تشارلز بعدها إلا أن يطلع صديقه بوب على حقيقة حالته، وأخذه ذات مساء إلى غرفته البسيطة فوق السطح، وليس فيها إلا منضدة صغيرة، وبعض المخدات من القش على الأرض. ليلتها أحس بالرضا لأنه لم يعد في حاجة إلى أن يخفي أمره على صديقه!!

وكان تشارلز قد بلغ الثالثة عشرة من عمره حين زفت إليه أمه النبأ السعيد وهم يتناولون طعام الإفطار في زنزانة السجن:

ـ سنخرج من هذا السجن اليوم يا تشارلز!!

ـ (بفرح) حقاً، هل سددت ديونك كلها يا أبي؟!

ـ كلها يا بني، كلها. ألم أقل لك إن أباك رجل شريف!!

ـ ولكن كيف بالله حدث ذلك؟! إنك لا تعمل وأنت في السجن، وأمي كذلك!! فمن أين سددت ديونك يا أبي؟!

ـ لقد ورث أبوك يا تشارلز ثروة صغيرة من أحد أقاربه. سددنا الديون كلها لمدير السجن، وسنخرج اليوم لنعيش معاً جميعاً!!

ـ وهل ستدخلني المدرسة يا أبي؟!

ـ ستحصل يا تشارلز على أفضل تعليم في البلاد!!

□ □ □

الدراسة

● وخرج الأب تتبعه الأسرة المسكينة، واستأجروا بيتاً مناسباً، وكانت الزوجة الراضية بقدرها، تدعو الله أن يسلك زوجها طريق الهداية والصلاح، وقد تحقق أملها هذا لعامٍ واحدٍ فقط، لأن الرجل أضاع كل ما ورث على الخمر والميسر ونساء الحانات.

وفي يومٍ من الأيام دخل على ولده تشارلز في غرفته وقال له:

ـ تشارلز، من المؤسف يا ولدي أن أقول لك ما لا يسرّك!

ـ قل أي شيء يا أبي، إلا أنني سأترك المدرسة!!

ـ هذا هو ما سيحدث يا ولدي. لسوء الحظ!! فليس معنا ما يكفي للطعام ونفقات المدرسة لك! ولا مفرّ من أن تعود للعمل في المصبغة.

● وعاد تشارلز إلى العمل، لكنه هذه المرة أخذ بنصيحة صديقه بوب فاجن عندما قال له:

ـ تشارلز، إنك خلقت للثقافة، لا تترك الدراسة.

ـ وكيف أوفق بين الدراسة وبين عملي في الورشة؟!

ـ لقد وجدت لك عملاً مناسباً في ميناء لندن. سنجرّ أنا وأنت عربات البضائع لقاء أجرٍ محترم، وفي ساعات محددة، وسينتهي عملنا عند العصر، وبذلك يمكنك أن تلتحق بالمدرسة الليلية.

ـ (فرحاً) يا إلهي، لا أصدق أنني سأعود إلى مقاعد الدراسة من جديد!! ستكون معي يا بوب، أليس كذلك؟!!

ـ كلا. لسوء الحظ يا تشارلز، إن رأسي كالحجر الأصم، لا يستوعب هذه المواد التي يدرسونها في الفصول. لقد خلقت للعمل العضلي وليس للعمل العقلي!!

● ويلتحق تشارلز بالمدرسة الليلية، ويحسن اختيار المواد التي توقع أنها تؤهله للعمل في الأماكن المرموقة، كسوق الأوراق المالية، ومجلس البلدية. وبعد أن أتم دراسته ذهب إلى محرر صحيفة كامدن طالباً عملاً:

ـ تشارلز ديكنز؟! ماذا تتقن يا فتى من ألوان الكتابة حتى تأتي وتطلب عملاً في هذه الصحيفة؟!

ـ أتقن الاختزال يا سيدي.

ـ (باهتمام بالغ) حقاً؟! إذن بمقدورك أن تكون مندوباً للصحيفة في سوق الأوراق المالية!!

ـ أفضل أن أعمل مندوباً في مجلس البلدية يا سيدي!!

ـ وما عيب سوق الأوراق المالية؟!

ـ لا عيب فيه على الإطلاق، لكنني أفضل مجلس البلدية لاهتمامي بمشاكل الناس اليومية التي لا يتيسر لي معرفتها إلا من خلال مناقشات أعضاء المجلس.

● لكن تشارلز ديكنز كان يفضل مجلس البلدية بسبب وقوع مبناه بالقرب من المسرح الذي تعرض فيه المسرحيات الكلاسيكية.

ـ ما إن شاهدت مسرحية (هاملت) تُمثَّل على خشبة ذلك المسرح، حتى قررت أن أكون ممثلاً! لكن بوب فاجن صرخ بي:

ـ هل جننت يا تشارلز؟! ممثل؟ هذه مهنة لا تدرّ ثمن الخبز!!

ـ لقد خلقت لأكون ممثلاً يا بوب. إنني قادر على أن أقوم بدور هاملت أيضاً، بل أنا أؤديه أفضل مما يؤديه الممثل الكبير هنري جرين كل ليلة. لقد حفظت الدور عن ظهر قلب. استمع إليّ يا بوب ـ في تمثيل مبالغ فيه ـ (أكون. .

أو لا أكون. . تلك هي المسألة). لماذا لا تصفق يا بوب؟!

ـ لا بأس.

ـ إذن لماذا لا تصفق إذا كان أدائي يروقك؟

ـ إن أداءك لا يروقني إلى حد التصفيق!! صدقني يا تشارلز، إنك لم تخلق للتمثيل.

□ □ □

الحب الأول

● وضرب تشارلز بنصيحة صديقه بوب فاجن عُرض الحائط. كان ينفق كل مرتبه الشهري من صحيفة كامدن على تذاكر الدخول كل ليلة إلى مسرح الكلاسيكيات. حفظ كل أعمال شكسبير عن ظهر قلب، وكان إذا عاد إلى غرفته يقوم بأداء الأدوار كلها بصوت مرتفع.

ولما كان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره، ولم يتحقق أمله في أن يغدو ممثلاً، ولما كانت نصيحة والده بالابتعاد عن الخمر والمقامرة ماثلة في ذهنه، إلا أنه لم يقدر على كبح جماح نداء الشباب بداخله وهو يلتقي في كل ليلة تقريباً بالفتاة الثرية والجميلة، ماريا بيدنل، التي فاجأته بخفةٍ ولطف:

ـ لم يكن هنري غرين في أحسن حالاته الليلة وهو يمثل دور عطيل!! ما رأيك أنت؟ ما اسمك يا عزيزي؟!!

ـ (متلعثماً) أنا؟!! آه بالطبع. اسمي، اسمي تشارلز، تشارلز ديكنز، وأنا أعمل محرراً في، في

ـ لم أسألك عن عملك يا عزيزي، إنما سألتك عن رأيك في أداء صديقنا هنري جرين الليلة؟!!

ـ إنه، إنه، أهو صديقنا حقاً؟!

ـ إنه صديق أبي دون ريب. دائماً يزورنا في البيت.

ـ ولكني لم أتشرف بعد بصداقته!!

ـ من يدري؟! قد أدعوك ذات يوم إلى بيتنا لتقابله، وتتحدث إليه.. ولكن ـ أشارت إلى ملابسه ـ عليك أولاً أن ترتدي ثياباً غير هذه!! أليس لديك بدلة غيرها؟!

● ولكنها لم تدعُهُ إلى دارها قط. إلا أن تشارلز ديكنز منذ ذلك اللقاء، حرص على أناقته، وحرص كذلك على تلميع حذائه!!

ورغم أنها ابتسمت له ـ يوماً ـ ابتسامة عريضة حين رأت ما طرأ على هندامه من تغيير، إلا أنها لم تدعه قط إلى دارها أو إلى مقصورتها المحجوزة باسمها دائماً في مسرح الكلاسيكيات، فأخذ يبث أشجانه بحبها، وتعلقه بها إلى صديقه بوب فاجن، فقال له:

ـ ابتعد عنها يا تشارلز، فهذا النمط من النساء لا يهتم بأمثالك!!

ـ إنني أحبها يا بوب!!

ـ وما الفائدة؟ هل تعرف من هو أبوها؟!

ـ لا أعرفه شخصياً، لكنني سمعت أنه صاحب مصرف، ويعد من كبار الأثرياء!

ـ ها أنت أجبت عن سؤالي بنفسك!!

ـ لا يهم. إنني أحبها، وكفى!!

ـ هل تحبها رغم أنها على علاقات كثيرة مع شبّان أثرياء؟!

ـ ستصير لي وحدي إذا تزوجنا!!

ـ هذا هو الجنون بعينه. هل تنوي يا تشارلز فعلاً أن تتقدم لأبيها خاطباً؟!

ـ أجل، ولكن ليس قبل الحصول على موافقتها هي أولاً!!

● ولم يجسر تشارلز على مفاتحتها بحبه لها، لأنها محاطة في كل الأوقات بأصدقائها من الشبان الأثرياء المرحين الذين لا حديث لهم إلا عن الموضة، وسباق الخيل وأسعار الأوراق المالية وحفلات الأسر الراقية، فلم يجد بداً من أن يشرح لها حبه من خلال رسالة كتبها بعنايةٍ فائقة، وتحيّن فرصة خروجهما من المسرح ليدس الرسالة في يدها.

ـ (تضحك ساخرةً) ما هذا يا عزيزي؟!

ـ إنني يا آنسة ماريا، لا!

ـ (ساخرة) ألاحظ أن رسالتك مكتوبة على ورق أزرق!! لعلك كتبت فيها كلاماً رومانسياً؟!

ووسط سخرية أصدقائها، أخذت منه الرسالة، ناهرةً إياهم عن سخريتهم بصديقها، ثم قرأت الرسالة، ولم تردّ عليه بمثلها، ولكنها قالت له بعد أيام حين التقته على بوابة المسرح:

ـ إنك رقيق جداً يا سيد ديكنز، لم أكن أعرف أن قلبك قادر على أن يحمل لفتاة مثلي كل هذا الحب؟! مع أن سمعتي في أوساط المجتمع يرددها الجميع من أنني فتاة عابثة، أعاشر العديد من أصدقائي الشبان!! ولكن كن على ثقة يا سيد ديكنز أن لك في نفسي احتراماً خاصاً يا عزيزي.

ـ إذن، إذن، في استطاعتي أن آمل يا آنسة ماريا!!

ـ تأمل ؟! تأمل ماذا يا عزيزي ديكنز؟!

ـ أنك، قد، أعني، قد يأتي اليوم الذي. .

ـ ماذا لو تركنا الأمور لأوقاتها يا عزيزي ديكنز، هه؟!! ثق أنني أقدّر عاطفتك هذه كل التقدير، ثم (تضحك عابثة)، ثم من يدري، القلوب كما يقول شكسبير طيور نزقة!!

● وترسخ في ذهن تشارلز أن الشابة العابثة الآنسة ماريا تُكنّ له

عاطفة كعاطفته تماماً، رغم تحذيرات بوب فاجن له بعدم اتخاذه خطوة حاسمة، قد تورثه الحزن؛ فإنه ذهب ذات مساء إلى بيت الثري الكبير السيد بيدنل والد ماريا، وقد عزم على أن يطلب يدها، فقابله الرجل قائلاً:

ـ إنك أيها السيد قد أخطأت تفسير معاملة ابنتي ماريا لك!! إنها قد تسمح لك بمحادثتها في المسرح، لكن ذلك ينتهي تماماً عند بوابة المسرح!! مع السلامة أيها السيد!!

ـ سيدي، إنني أريد أن أعرف رأيها. لقد حدثتها في ذلك منذ ليال فقالت لي: تعال وقتما تشاء! ثم إنني أريد أن أعرف رأيها إذا سمحت!!

ـ لقد حكت لي ماريا كل شيء. إنك لا تعرف ابنتي. إنها قادرة على أن تسخر من القديسين، وليس منك فقط!! أنصحك وأنت في أول شبابك أن تنسى ماريا، وأن تبحث لنفسك عن زوجة تناسب (ظروفك)!!

ـ ولكنها قالت إنها تقدّر عاطفتي، وإنها...

ـ أيها الشاب، إنني أنقل إليك رأيها!! إنها ترفض حتى أن تراك في طريقها أمام ذلك المسرح، فاخرج حتى لا أضطر إلى أن أجعل الخدم يخرجونك من هذا البيت؟!

□ □ □

القصة الأولى

● شعر تشارلز ديكنز بإهانةٍ بالغة وهو يغادر دار السيد بيدنل.. والأنكى من هذا كله أنه كان يحب ماريا بكل ما في قلبه من صدق المشاعر، والأمل بالزواج منها كان غايته ليبدأ حياة يقلب فيها صفحة جديدة ملؤها السعادة.

ولكن أيام وليالي الألم التي عاشها في المهانة والمذلة بعد أن حدث له ما حدث في بيت أبيها، كانت تباعد تدريجاً بينه وبين ماريا، وأخذ يصحو من تلك الأوهام التي يكشفها له صديقه بوب فاجن، فكف عن الذهاب إلى المسرح، وعدل عن فكرة الانخراط في سلك الممثلين، وجلس ذات ليلة إلى منضدته الصغيرة ليكتب مصوراً ومعبراً عن أحاسيسه ومشاعره، فكانت حصيلة تلك الجلسة أول قصةٍ كتبها تشارلز ديكنز (دوريت الصغيرة)، وكانت بداية الطريق إلى القمة الشماء، عندما أخذ اسم تشارلز ديكنز يلمع في سماء الأدب الإنساني ليغدو أشهر كاتبٍ إنكليزي بعد شكسبير.

□ □ □

● يقول تشارلز ديكنز عن قصته الأولى:

«كانت (دوريت الصغيرة) أول أعمالي. لم أصدق بعد أن أنهيت الفصل الأخير منها أنني كتبت رواية ذات شخصيات، ومواقف، وحبكة درامية. لم يكن هذا ما عنيت على أية حال. كان كل

همي أن أدون أحاسيسي بعد أن تخلصت من حب ماريا، وبعد أن ألحق بي أبوها مذلةً لا تزال مرارتها تهيمن على تفكيري!!. ذهبت بمخطوطة القصة إلى رئيس تحرير الجريدة التي كنت أعمل مندوباً لها في مجلس البلدية، فقال لي:

ـ رواية؟! وماذا تفهم أنت يا تشارلز في الأدب الروائي؟!

ـ لا أفهم شيئاً بالطبع، ولكني أعرف أنك قرأت الكثير يا سيدي، فلا شك أنك قادر على أن تحكم عليها بأفضل مما أفعل أنا!!

ـ حسناً يا تشارلز، حسناً، سأقرأها.. وإذا راقت لي.. أرسلتك بها إلى أحد أصدقائي الناشرين.

ـ ولم لا تنشرها في جريدتك على حلقات؟!

ـ ربما، من يدري؟ المهم أن تروقني!!

□ □ □

● ولم ترُق القصة الأولى (دوريت الصغيرة) محررَ الجريدة الذي ما إن رأى تشارلز حتى قال له:

ـ الفكرة ساذجة، والسرد غير منطقي، والحوار فقير جداً. آسف يا تشارلز، أنصحك بأن تركز جهدك في عملك الحالي، وأن تدون بطريقتك الفذة في الاختزال كل ما يدور من حوار في اجتماعات جلسات البلدية.

ولم يحزن تشارلز ديكنز لما قاله رئيس التحرير، فلم يخطر بباله يوماً أن يغدو كاتباً روائياً، لكنه صار يضيق ذرعاً بجلسات البلدية ومناقشات أعضائها التي لا تنتهي إلى أية قرارات إيجابية لتحسين حال المساكن أو المصانع الصغيرة أو وسائل الصرف الصحي في المدينة، فنصحه رئيس التحرير بأن يعرض روايته على زميله السيد جورج هوغارت رئيس تحرير (إيفنينغ كرونيكل) ولما التقاه ديكنز في مكتبه قال له:

ـ كان بودّي يا تشارلز أن أنشر قصتك على حلقات، ولكنني أعرض عليك ما هو أفضل من ذلك.

ـ ماذا؟!

ـ أن تعمل محرراً في جريدتي!!

ـ **ولكنني عديم الخبرة في الصحافة!! كل خبرتي هي في نقل جلسات البلدية.**

ـ آن الأوان لتكتب شيئاً مفيداً بهذا القلم الذي كتب روايةً كاملة في أول محاولة أدبية له. اسمع يا تشارلز، هل تعرف شامبان؟! لا بد أنك اطلعت، ولو مصادفة، على رسوماته في صحيفتنا!!

ـ **أجل، وأنا شديد الإعجاب برسومه الكاريكاتورية الساخرة.**

ـ حسناً، أنا واثق من أنكما ستعملان معاً كفريق متجانس. كل

ما عليك هو أن تعلّق على رسومات شامبان بجملةٍ لطيفة أو بتعليقٍ ساخر!!

- في أول الأمر، لم يكن تعليق تشارلز ديكنز على الرسم الكاريكاتيري يزيد على جملةٍ أو سطرٍ واحد، لكن رسائل القراء الذين راقتهم تلك التعليقات طالبت تشارلز بسطورٍ أكثر، فصار يضيف إلى التعليق حكاياتٍ قصيرة ونوادر فكاهية، ونقداً لاذعاً لأحوال المجتمع اللندني، ما شجّع رئيس التحرير على أن يفتح لتعليقاته زاويةً ثابتة، اختار لها تشارلز عنوان (BOS) بوز.

- وبعد أن انتشر هذا الاسم في إنكلترا كلها، أخذ الناس يتساءلون عن الاسم الحقيقي لهذا الكاتب اللاذع، وعندما مرض الرسام شامبان وتوقفت رسوماته، قرر رئيس التحرير أن يكتفي بتعليقات (بوز) دون الرسم الكاريكاتيري، وحدث ما يشبه المعجزة، حيث ارتفع توزيع الجريدة من (٤٠٠ نسخة) إلى (٥٠,٠٠٠ نسخة) وانهالت رسائل القراء تطالب بأن يفرد لهذه التعليقات مساحة أكبر، وهذا الذي جعل رئيس التحرير يطلب الاجتماع بـ تشارلز ديكنز، ليبحث معه توسيع رقعة المساحة التي يكتبها.

ـ أنت رائع يا تشارلز! اسمك الآن بعد أن أعلنته في الصفحة الأولى على كل لسان. ما رأيك لو كتبت إلى جانب تعليقات (بوز) شيئاً جديداً مثيراً؟!

ـ إنني أكتب في كراستي الخاصة، تعليقات أخرى على السلوكيات الـ. .

ـ (مقاطعاً) رائع، هذا ما نحن بحاجة إليه تماماً!! ماذا تنوي أن تسميها؟!

ـ الحق أنني كتبتها على لسان رجل سمّيته (بيكويك)!

ـ (بيكويك)، اسم غريب! ومع هذا فالقراء يحبون عجائبك وغرائبك. حسناً، لنسمّها (أوراق بيكويك)، ما رأيك؟!

ـ موافق يا سيد هوجارث.

ـ تشارلز، لقد أقمت الليلة في داري حفلاً صغيراً على شرفك! فأرجو أن تشرفني بالحضور.

ـ الشرف لي يا سيد هوجارث.

ـ (بمرح) ولكني أحذرك، إن لي أربع بنات، كلهن من المعجبات بك. أرجوك ألا تحاول أن تغازل واحدة منهن. . إلا إذا كنت تنوي الزواج؟!.

ـ (بمرح) فإذا كنت لا أنوي الزواج؟!

ـ عندها سأفصلك من العمل، حتى لو صدر قرار ملكي بنشر مقالاتك!!

□ □ □

● في دار السيد هوغارث، رئيس تحرير جريدة إيفنينغ كرونيكل، التقى تشارلز ديكنز بـ كاترين، وكانت الابنة الكبرى لصاحب الدعوة. كان تشارلز في الرابعة والعشرين من عمره، بينما كانت كاترين في العشرين من عمرها، جميلة، وثابة، تتفوق على أبيها في المرح، وإضفاء البهجة والسرور على كل مكان تحل فيه، ولما كانت تقف إلى جانب تشارلز ديكنز أخذت تداعبه:

ـ لا تظن يا سيد ديكنز أن شهرتك المدوية يمكن أن تؤثر عليّ وتوقعني في حبك. إنني محصنة ضد غرام الشيوخ!!

ـ (مثلها)، شيوخ!! نعم، نعم، شيوخ؛ فأنا في الخامسة والأربعين فقط يا عزيزتي كاترين!!

ـ حقاً؟! حسبتك في الستين. حسناً، أعطني الفرصة إذن لأفكر في حبك!!

□ □ □

● أحبها بكل ما كان يشعر به من حرمان. ألقى بنفسه في بحر حبها الطامي، كأنما لينتقم من فشله السابق مع المدللة الثرية ماريا بيدنل، وكتب تشارلز يقول عن تلك الحقبة من حياته:

ـ لم أكن أفكر في تلك الأيام إلا في كاترين، رغم أن أباها السيد هوغارث لم يكن ينظر إلى لهفتي على ابنته بارتياح،

فلم أتورع عن أن أفعل أي شيء لإرضاء المحبوبة، وكسب عطفها، والحصول منها على وعدٍ قاطع بقبولي زوجاً لها.

ـ تشارلز، إنك لا تعرف ابنتي كاترين، إنها قادرة بدلالها وعبثها على أن تورثك الجنون!! صدقني، إنها لا تحبك كما تظن، كل ما في الأمر أنها تكايد أخواتها الثلاث!

ـ ولكنها تحبني، كما يظهر من سلوكها معي!

ـ قلت لك إنها دخلت في مراهنة مع أخواتها!!

ـ لا أصدق! فهي تحبني، وأنا أحبها!!

ـ اسمع يا تشارلز، إذا كان لا بد أن تتزوج إحدى بناتي فسأختار لك ماري؛ فهي الأنسب لك، وهي عندي أفضل من كاترين ألف مرة!!

ـ آسف يا سيد هوغارث، فلن أتزوج سوى كاترين!

□ □ □

● وتزوج كاترين سنة ١٨٣٦، وأخذها إلى بلدته القديمة تشاتام لقضاء شهر العسل.

ـ انظري يا كاترين، كنت وأنا طفل فقير تعس حافي القدمين، أصعد إلى هذا التل وأتأمل هذا البيت الجميل الواقع فوق الربوة. إنه بيت جادزهيل. لطالما تمنيت أن أسكنه.

ـ ولماذا لا تشتريه فنقيم فيه يا تشارلز؟!

ـ بعيداً عن العاصمة الصحفية؟! هذا مستحيل يا عزيزتي كاترين.

□ □ □

الشهرة

● وصار تشارلز ديكنز من أشهر كتاب إنكلترا بعد أن طبعت رواياته عشرات المرات، وتهافت الناس على (أوليفر تويست)، لأنها حسبما كتب النقاد تعبّر تعبيراً صادقاً وصريحاً عن أحوال الطفولة البائسة التعسة في إنكلترا وغدت الجمعيات الخيرية لرعاية الطفولة تسعى إلى اجتذاب تشارلز ديكنز كي يكون رئيساً فخرياً لها، ويحاضر عن الطفولة وعن بؤسها، في معظم هذه الجمعيات.

واكتشف ديكنز أن العمل في هذه الجمعيات الخيرية، يكثر فيه الكلام على حساب العمل، فشرع بروايته (ديفيد كوبرفيلد) التي أخذ العمل فيها جُلَّ وقته وتفكيره، ما استثار حفيظة زوجته كاترين التي صرخت فيه يوماً وهي غاضبة:

ـ كل وقتك مع الورق والقلم!! لست أدري لماذا رضيت بك زوجاً؟!

وبدأ كل واحدٍ منهما يعيش في جزيرةٍ منعزلة، بينما هما في بيت واحد! لم تعد كاترين تهتم بعمله، ولا بمراجعة مسوّدات رواياته، كما كانت تفعل في العام الأول من الزواج وعندما

لامها على كثرة خروجها وسهرها في النوادي وصالونات الطبقة الراقية، كان جوابها:

ـ هذه هي حياتي!! وعليك أن تقتنع بها، وإذا كنت بحاجة إلى خادمة أو سكرتيرة، فلست أمانع إذا جاءت أختي ماري لتقيم معنا فتكلفها بما تريد أن تكلفني إيّاه من أعمال!!

● وجاءت ماري إلى البيت.

فتاة رقيقة وجميلة صارت ملاكه الحارس. تسهر عليه كالأم الحنون، تراجع مخطوطاته وتعيد نسخها، وتعدّ له ثيابه وطعامه. وأحبها كما لم يحب إنساناً في دنياه!! ولكنه لم يفكر قطّ في أن يدنس هذا الحب بلمسةٍ خبيثة أو بكلمةٍ تخدش حياء هذا الحب الطاهر.

كانت ماري مصدر سعادته الحقيقية. كل الأحاسيس النبيلة التي عاش في عطرها أكثر شخصيات رواياته التي كتبها خلال فترة إقامة ماري معه كانت من وحي نبلها، ومن رقتها.

ثم مرضت ماري فجأةً. المرض الذي أسرع بها في أيامٍ قليلةٍ إلى القبر، وقد أجاد تشارلز ديكنز وأحسن وصف قلقه عليها أثناء مرضها حين قال على لسان ديفيد كوبرفيلد:

ـ «كم مرة ترك فراشه في تلك الليلة الحزينة، وتسلل إلى غرفتها، بخطوات خرساء عبر الردهة الطويلة. يقف قرب الباب عسى أن يتناهى إلى سمعه أي صوتٍ يصدر عنها!!

وسيظل يذكر ما عاش حرارة صلواته في تلك الليالي بالمقارنة إلى ما اعتاد أن يؤديه من صلوات سريعة لا تكاد تمس صميم القلب. تلك الليلة لم يكفّ عن الدعاء والتوسل إلى خالقه أن ينقذ حياتها ويعيد إليها صحتها، وبهجة ابتسامتها ولمعة عينيها المليئة بالحنان!!».

- وحين ماتت ماري لم يجسر الكاتب تشارلز ديكنز من فرط حزنه على أن يكون ذلك هو مصير بطلة روايته (ديفيد كوبرفيلد)!! ولم يعد في قدرة تشارلز أن يعيش في البيت الذي يحمل ذكريات ماري العزيزة، فقضى عام ١٨٣٧ كله متجولاً في بلاد أوروبا، واصطحبته ـ رغم أنفه ـ زوجته كاترين من شاطئ إلى شاطئ من إنكلترا إلى فرنسا، ومن بلجيكا إلى ألمانيا يدون يومياته وهو مجللٌ بالحزن.

وعاد إلى لندن. أنهى روايتيه (نيكولاس نيكولباي) ثم (بيت الأثرياء).

- وصار تشارلز ديكنز وهو لم يتعدَّ الثلاثين من عمره أشهر شخصيةٍ عرفتها إنكلترا.. تتحرج أعتى الصحف في النقد الأدبي والتجريح الشخصي عن التعرض لظروفه الأسرية التعسة وما تسببه له زوجته كاترين من أحزان ومتاعب.

وأصبح تشارلز ديكنز بطلاً قومياً، ومن الطريف أن إحدى الصحف قد نشرت على لسان أحد القساوسة أنه حين ذهب ليتلقى اعتراف رجل على فراش الموت، قال له الرجل:

ـ (وهو يحتضر) أشكر الله لأني أستطيع الآن أن أموت في سلام؛ فقد فرغت من قراءة آخر فصول (أوليفر تويست)!!

● وجاء الوقت الذي أصبح طلاقه من كاترين ضرورةً لاطمئنان نفسه وهدوئها، وخاضت الصحف في هذا الأمر تورية لعامين كاملين، فأُجِّل قرار الطلاق الحاسم حتى تنتهي الضجة الإعلامية!!

وحين جاءت أخت زوجته الثانية الشابة الصغيرة فيرجينيا، طفح الكيل عند كاترين التي فاض كأسها وصرخت:

ـ «حسناً، يبدو أنك يا تشارلز ديكنز تريد أن تلحق العار بكل بنات هوغارث إني أوافق على فكرة الطلاق إذا أقسمت لي إنك لن تتزوج بفيرجينيا بعدي!!».

وطلقها، لكنه لم يتزوج فيرجينيا.

□ □ □

● اندفع بعدها في مغامراتٍ عاطفية عديدة، ولم تحجب انفعالاته المضطربة رؤية واقع مجتمعه عن عينيه! ظل تشارلز ديكنز المعبِّر الصادق عن أحوال المجتمع البريطاني وسلوكياته ونزوعه إلى إصلاحٍ شاملٍ في كل مناحي حياته ورغم أنه كان موضع حسد زملائه الكتّاب، إلا أنه ظل يحتل مكان الصدارة حتى قال عنه ثاكري:

«إن هذا الرجل ـ تشارلز ديكنز ـ يبدو وكأنه شاهد كل بقعةٍ في كل بلد، وعرف كل شخصٍ، وأحس بتجارب كل إنسان».

وعاش تشارلز ديكنز نور المجد الأدبي حتى عام ١٨٧٠، ففي الرابع من يونيو، أحس ديكنز بتعبٍ مفاجئ اشتد مع اقتراب المساء.

ـ (مرهق) أشعر كأنني سألحق الليلة بالعزيزة ماري. وأسلم الروح إلى بارئها في الفجر.

□ □ □

- مات تشارلز ديكنز، قبل أن تعلم إنكلترا بفداحة خسارتها، حيث لم يعلن نبأ موته.

في صباح ذلك اليوم، كان أحد رجال القصر الملكي يدق بابه حاملاً إلى ديكنز رسالة من الملكة فيكتوريا. لما فُتحت الرسالة في ما بعد، وُجد أنها تحتوي على الكلمات الآتية:

«إنه ليسعدني يا صديقي ديكنز أن تزورني في أي وقتٍ يروقك، كي نتحدث طويلاً عن أصدقائي الذين أحببتهم من خلالك، رغم أني لم ألتقِ بك، ولكني على علاقة وصداقة وطيدة بكلٍّ من: (السيد بيكويك)، (أوليفر تويست)، (ديفيد كوبرفيلد)؛ فهؤلاء جميعاً أصدقائي، فلمَ لا تأتي لزيارتي كي نتحدث عنهم!»

التوقيع: الملكة فيكتوريا

أوفيد.. العاشق المنفي!!

● كتب برناردشو:

«أوفيد؟!! ما كان إلا داعراً من مدرسة التبذل الرومانية لا يستحق هذه المنزلة الرفيعة في الشعر والرواية. مكانه على القمة الشمّاء مسروق في غفلةٍ من معاصريه البلهاء!!. شعره السهل، اللطيف، المرح، الذي لا يدفع إلى التفكير ولا يدعو إلى البحث العقلي مجرد مداعباتٍ رقيقة، لكنها تافهة، للأحاسيس البشرية. أما رواياته فهي تكرار للأساطير التي شاعت قبله بمئات الأعوام، سواء في بلاده أو في أرض جارتها اليونان، موطن الأساطير والأوهام».

يوم خرج جورج برناردشو بهذا الرأي في نقده لأعمال **أوفيد** قامت قيامة المعجبين بشعر روما واليونان، هواة القديم لأنه قديم. لكن برناردشو لم يمت قبل أن يحطم بمعوله، ومعه معاول مدرسة النقد العلمية الحديثة، التمثال الأنيق الذي أقامه

في قلوبهم وعقولهم المعجبون بـأوفيد وشعره ورواياته الساذجة. لكن العظماء في عصر أوفيد وكان لهم رأي آخر، منهم العظيم فيرجيل الذي قال:

ـ وددت لو كنت أنا الذي كتب أعظم ما أنتجه أوفيد من روايات في كتابه (التطور).

والمبدع هوراس قال هو الآخر:

ـ أوفيد؟! إنه الرمز الحي للعبقرية اللاتينية وإبداعاتها الشعرية.

□ □ □

من هو أوفيد؟!

لقد لقي كل ما كان يأمل فيه ويرجوه من الحياة: الصحة السابغة، الإعجاب بشعره ورواياته، الحياة الرخية السهلة الممتعة، والمرأة المحبة الرائعة. أُعجب به معاصروه ـ كلهم دون استثناء ـ بل إن معظم أبناء عصره سعوا إلى التعرف إليه ومصادقته وحضور سهراته المشوّقة. وصار لأكثر من ألفي عام رمزاً للفن الشعري في العصور القديمة. ولندع منزلة أوفيد الأدبية جانباً، ولندخل في جوف الزمن لنتعرف إليه.

□ □ □

● اسمه **بيبلوس أوفيديوس نازو**، ولكن العالم كله يعرفه باسم **أوفيد** بموجب الوصف الذي وصل إلينا ممن كتبوا عنه، نجد

أننا أمام رجلٍ رقيق، أنيق، لطيف، أشقر، أزرق العينين، يتسم بالوسامة اللافتة لدرجة أن النساء كنّ يتهافتن عليه. لكن أوفيد قد وقع في غرام فتاةٍ، كان يقف حائلاً بينه وبينها الإمبراطور أوغسطس، ما سبب بينهما عداوة، فأوغسطس دائماً يردد عن أوفيد أنه:

● **«يلوث كل جليلٍ ومقدس في الإمبراطورية الرومانية!!».**

بينما أوفيد كان يقول:

ـ أنا الذي أسعدت الدنيا كلها بشعري!! يصمني أغسطس بملوث الجليل والمقدس؟!! لماذا هو يفعل ذلك؟! لا لشيء إلا لأنني عشقتُ حفيدته وعشقتني!!

□ □ □

● كان أوفيد يعيش في بحبوحة ميراثه من أبيه وأمه، ما كفل له حياة مترفة، قصراً أنيقاً، وعربةً مذهبة تجرها ستة من جياد تراقيا الأصيلة، وخادمات جميلات أنيقات، فهو يفضّل النساء على الرجال في القيام على شؤون قصره.

درس أوفيد في منتديات اليونان، ثم سافر إلى مصر، ومكث في مدينة الإسكندرية ينهل العلم من أساطين مثقفيها ومن مكتبتها الشهيرة. عاد إلى روما والتقى بالجميلة أرلان، وعاشا معاً دون اقتران، فاستغلت هي كراهة الإمبراطور أوغسطس له، فذهبت إليه شاكيةً:

ـ أوفيد قد جعلني أماً دون رغبة مني!!

ـ لا حدّ لفساد هذا الفتى الأحمق. إنه بقعة سوداء في رداء الإمبراطورية النقي.

● ثم أصدر قراراً يجبر **أوفيد** بموجبه على الزواج بـ**أرلان** خلال سبعة أيام، وإذا لم يفعل، فإنه سيحرقه حياً.

وتم الزواج لفترة. ثم طلقها.

□ □ □

● الإمبراطور كان على بينة من تصرفات حفيدته **جوليا**، وقد غض النظر عن عشقها لـ**أوفيد**، فهو يدرك أنها قد انخرطت في حياة التبذل، مثلما كانت تفعل أمها!! ثم إن الإمبراطور نفسه كانت حياته حافلةً بالمغامرات النسائية، رغم أنه كان في السبعين من عمره.

□ □ □

● استدعى الإمبراطور يوماً الشاعر **أوفيد** للقائه بالقصر، وكان يهدف إلى أن يحد من نشاطه في المجون فقال له:

ـ بيبلوس أوفيدوس نازو، لقد آن الآوان كي تدخل الخدمة المدنية أو العسكرية، فعندي لك وظيفة في الجيش!!

ـ لم أُخلق للعسكرية يا أوغسطس العظيم، لو دخلت ميدان المعركة، لألحقت العار بالعسكرية الرومانية!!

ـ اللعنة على سخافاتك. قالت لي حفيدتي جوليا إنك شجاع. يبدو أنها ـ كأمها ـ لا تحسن الحكم على الناس. . . حسناً! لماذا لا تعمل في حقل القانون؟!! فقد كان أبوك من أفضل قضاة روما.

ـ لم أدرس القانون يا أغسطس العظيم!!.

ـ ادرسه إذن. أمامك ثلاث سنوات، وأنت ما زلت في الخامسة والثلاثين.

ـ عقلي لا يستوعب القانون يا سيدي.

ـ فاعمل في خدمتي إذن. كن من أعضاء مجلس القصر.

ـ لأشرف على النحاتين والبنّائين وزرّاع الياسمين والقرنفل والزنبق في حدائق القصر؟!!

ـ كثيرون يتطلعون إلى هذه الوظائف!!

ـ أنا لم أُخلق إلا لأقول الشعر.

ـ وأنا أحرّم عليك أن تنطلق في المحافل بهذا الشعر التافه الذي لا يخاطب إلا الغرائز الدنيئة!

ـ يا أغسطس العظيم، إن. . .

ـ اسمع يا بيبلوس أوفيدوس نازو، لا تسرع في كسب

سخطي. فكّر في ما عرضته عليك من وظائف، ولا بد أن تختار إحداها. إما العسكرية أو القانون أو العضوية في مجلس القصر!!

□ □ □

● وفكر **أوفيد** طويلاً. فكّر والخوف من غضب الإمبراطور يشلّ تفكيره، فأرسل من يشفع له عند أغسطس بعد أن أسهب في شرح مقابلته للإمبراطور وتهديداته له لكلٍّ من **فيرجيل وهوراس**. لكن الإمبراطور رفض الوساطة وأكد العقاب القاسي الذي ينتظر **أوفيد** إذا لم يكفّ عن مباذله ويقبل بإحدى الوظائف التي عُرضت عليه. ولم يبق أمامه إلاّ حلاً واحداً: **جوليا**، حفيدة الإمبراطور وعشيقته. لكن **جوليا** فكّرت في ما رأته مفيداً لها مع **أوفيد** أيضاً.

□ □ □

ـ يا جدي العزيز، ماذا لو عيّنت أوفيد أميناً لمكتبة الإسكندرية؟!

ـ ولماذا مكتبة الإسكندرية على وجه التحديد؟!

ـ إنه يحب الكتب، وإذا قرأ ما فيه الكفاية تحسّن أسلوبه في الشعر والرواية، وأنتج ما ترضى عنه من أعمال أدبية!!

ـ **أنا أعرف لماذا تريدين أن أرسله إلى الإسكندرية. لأنك تريدين أن تكوني معه بعيدين عن نظري. صارحيني يا جوليا، هل عبث أوفيد الخبيث بك كما عبث بآرلان؟!!**

ـ ماذا تقصد يا جدي؟!.

ـ **هل سيجعلك أماً؟!**

ـ أوترفض يا جدي أن يكون حفيدك شاعراً مثل أبيه؟!

ـ **اللعنة عليك وعليه!! إنك كأمك تماماً أقسم هذه المرة، لأحرقن أوفيد حياً!!**

ـ جدي!! إنه محبٌ شريف يا جدي!!

ـ **ابتعدي عنه، حتى لا تكوني سبباً في ضياعه!!**

ـ ولا تكون أنت يا جدي سبباً في هلاك أعظم شاعر روائي في إمبراطوريتك كلها. هل تعرف اسم كتابه الأخير يا جدي؟!

ـ **كتاب سافل مثل صاحبه. سمّاه اللعين (فن الحب).**

ـ اقرأه يا جدي، فسوف تتعلم منه أشياء تنفعك!!

□ □ □

● ولما علم الإمبراطور أن حفيدته جوليا قد تزوجت سراً بأوفيد، اتخذ قراراً جاء فيه:

ـ **أمرنا بنفي بيبلوس أفيديوس نازو إلى بلاد البرابرة في الشمال**

الشرقي من إمبراطوريتنا، كما أمرنا بنفي حفيدتنا جوليا إلى الإسكندرية.

□ □ □

● وفي منفاه كتب أوفيد أروع أعماله قاطبةً، وتقدم بإهداء البعض منها للإمبراطور، لكن أغسطس لم يصفح عن الشاعر.. أما جوليا قد نسيته بعد أن عاشت حياة المجون والابتذال في الإسكندرية، ما دفع أوفيد إلى أن يضمّن بعض أعماله الأدبية والشعرية إشارات إلى تهتك الإمبراطورية الرومانية، ولم يحل بين أوفيد في غربته وبين الشعر حائل:

الشعر يُنزِلُ القمر من عليائه..

وردياً كالدم..

الشعر ينتزع أنياب الثعابين..

ويسحب سمّها

ويعيد الأنهار تجري صعداً إلى منابعها..

لتقرأني الفتيات اللائي يحطن أحبتهن الأصفياء بودٍ حميم..

والفتيان الأغرار الذين أصابهم العشق بسهمه الأول..

كم أود لو أن فتىً ما..

جرحه كيوبيد مثلي . .

سوف يدرك الوهج الذي يجعله رائعاً .

□ □ □

وبينما كان أوفيد يستوحي إلهام ربات الشعر على الشواطئ، توقف قلبه عن النبض، فوجدوه جثة هامدة تداعبها أمواج البحر .

وحينما طلب أصدقاؤه وعشاق فنه أن يُدفن في روما، قال أغسطس :

ــ لا أريد أن أجعل من هذا المبتذل أسطورة .

□ □ □

● وكتب فيرجيل عن أوفيد :

«من حظ هذا الشاعر أنه وُلد بعد أن تخلصت روما من كل أعدائها وصارت لها إمبراطورية مستقرة الأوضاع . ولا عجب أن يعبّر أوفيد بشعره ورواياته عن مجتمع يسوده الرخاء، ويتطلع فيه كل روماني إلى مزيدٍ من المتع الحسّية والروحية . اقرأ أشعاره تجدها أفكاراً قريبة التناول، ولكنها مصوغة بموسيقى فريدة لا تجدها في أشعار سواه . واقرأ رواياته . وأنا شخصياً رغم ما يزعمه أعداء أوفيد من أنه سرق مني بعض أفكار رواياته؛ أنا أجدها ممتعة عندما أقرأها» .

● وكتب عنه أقرانه من الأدباء:

«إن شعر أوفيد سهلٌ قريب التناول. أما رواياته فهي تعتمد على الأساطير القديمة. بل إنه قد جعل من تلك الأساطير تحتوي على مضامين يحاكي فيها واقعه المعيش، فأوفيد بكل المقاييس واحدٌ من عظماء الشعراء الرومان، ومن كبار قصّاصيها».

□ □ □

آرثر ميللر.. وعبادة الشيطان!!

من عجبٍ والبشرية تجتاز مرحلة حضارية علمية متطورة خاصة منذ بدايات القرن التاسع عشر، وحتى ما هي عليه الآن، ومن عجبٍ أن تتناقل وسائل الإعلام أحداثاً لا تكاد تُصدق بسبب غرابتها!! أحداثاً مريبةً عن السحر والسحرة، وأفاعيل الشيطان، وتلامذته في بقاع كثيرة من الأرض!! بل إن هناك جمعيات تعلن عن نفسها هنا وهناك لعبادة الشيطان!!

والأعجب أن ذلك يأتي من أكثر مناطق العالم تحضّراً وعلمانية، وإيماناً بالواقع الملموس بعد أن تراجع الإيمان بالغيبيات عندهما.

والصفحات التي بين أيديكم كتبها آرثر ميللر، وزعم أنه قد خاض هذه التجربة بنفسه. لربما تصور القارئ أن آرثر ميللر قد شطح به الخيال في ما كتب باعتباره كاتباً مسرحياً وروائياً، وأراد من قارئه أن يصدق هذه الأسطورة التي لا تخلو في بعض جوانبها من اللامعقول!

وقد ضمَّن مواقف منها في مسرحيته (سالم). وللقارئ كل الحق أن يصدق أو لا يصدق، ولكن هذا ما كتبه آرثر ميللر!!..

□ □ □

ـ ١ ـ

● نقف أمام مَعلَمَين هامّين:

الأول: **ولاية (ماساتشوستس) الأميركية.**

والثاني: **الكاتب الشهير آرثر ميللر.**

● ما أكثر ذكريات الأميركيين الأوائل في ماساتشوستس ومدنها وقراها، بل وبراريها وسهولها وجبالها، وأحراشها وغاباتها.

ومنذ ١٩٢٨ والكاتب آرثر ميللر كان يتجول في هذه الأماكن بحثاً عن الأصول لكثير من الأساطير، والأحداث الغامضة التي لم يتمكن أحد من إيجاد تفسير لها حتى الآن.

وقد كتب ميللر مسرحية بعنوان: **(سحرة مدينة سالم)**، وعندما سُئل عما اذا كان هو نفسه يؤمن بالأساطير الكثيرة التي تحرّى عنها وخاض بنفسه تجاربها في كل المدن والقرى الواقعة على شواطئ المحيط الأطلسي، كتب تجربته قائلاً:

«إنني كنت أريد أن أضع يدي على التبريرات الواقعية لتلك الظواهر الغامضة وغير الطبيعية، حيث كانوا يمارسون السحر».

فهناك هيمنة لممارسات شيطانية تكاد تجتاح منطقة الغابات وقرى الساحل في داخل ولاية ماساتشوستس، وتحديداً في المنطقة المسماة (**الأنهار الثلاثة**)، حيث مررت بتجربةٍ مثيرة يوم خرجت من بيتي في هوليوود، وليس معي إلا حقيبة ثياب وحقيبة أوراق صغيرة تحوي بعض الكراسات التي اعتدت أن أدوّن فيها ملاحظاتي وأفكاري، وكنت أنوي أن أقضي إجازة في منطقة منعزلة في وسط ريف ماساتشوستس.

□ □ □

● ركبت قطاراً متجهاً إلى سبرينغفيلد، وفي ذهني فندقٌ معين اعتدت أن ألجأ إليه طلباً للخلوة والعزلة والتأمل. وبدأت الملامح الأولى للخيوط التي تشابكت في ما بعد عندي في المقصورة التي أجلس فيها في القطار، حيث كان يشاركني شاب وشابة يترامقان في حب، وقد تشابكت أيديهما، ونظراتهما أيضاً، وبجانبهما على المقعد الثالث رجلٌ أشيب ينظر إليهما في ضيق وحنق!!

ومرت عليَّ فترة زمنية أثناء سير القطار، تصورت خلالها أن قطة صغيرة ملساء الشعر، تحتكّ بي وأنا جالس على الكرسي، فنظرت حولي، فلم أجد أثراً لتلك القطة، لكنني كنت أسمع مواءً، وإذا بالعجوز الذي يجاورني يعلّق:

ـ يبدو أن البقاء في هذه المقصورة أصبح غير مُستحبّ!!

ـ لماذا ؟

ـ يجدر بي أن أترك المقصورة فوراً!!

ـ بسبب مواء القطة التي لا نراها؟!

ـ مواء قطة؟! ما معنى هذا ؟! ألا ترى هذين الشابين ماذا يفعلان، ثم تقول لي مواء قطة! يبدو أنك أكثرت من الشراب!!

ـ تعني أنك لم تسمع مواء قطة؟!

ـ يبدو أنني في مقصورة مليئة بالغرائب!!

وخرج العجوز من المقصورة وهو يردد كلماتٍ تعبر عن تبرّمه، وبقيت أعاني من شدة صوت مواء القط الذي أصبح يحاصرني، حتى إنني لم أعد أسمع شيئاً سواه.

وعندما وقف القطار في محطة قريةٍ صغيرةٍ، نظرت من النافذة فقرأت لافتة كُتب عليها اسم المدينة (بولدزفيل)، وواضح أن جمال الطبيعة فيها خلّاب، ما شجعني على تغيير اتجاهي والنزول فيها، فأنا أبحث عن الهدوء.

وما إن سرتُ لبضع دقائق، حتى وقع بصري على فندقٍ أنيق صغير، فاتجهت إليه حيث رحّبت بي صاحبة الفندق التي تقف في بهو الاستقبال.

واختارت لي غرفةً تطل على البحيرة من جهة، وعلى الغابة من الجهة الأخرى.

وأصابتني الدهشة عندما قالت لي:

«إنني أعرف ما يريد النزلاء الأغراب، خاصةً إذا كانوا من الفنانين والكتاب، فأنا اخترت لك غرفة رقم (٥) التي ستشعر فيها تماماً كأنك في بيتك وبلدتك، وبالمناسبة، النظام هنا هو النوم المبكر، لأنه كما تعلم أكثر العادات فائدةً وصحةً للجسد، فأهلاً بك في بيتك».

□ □ □

ـ ٢ ـ

● وكتبتُ:

«وفي غرفتي جلست كالذاهل، أحسست فجأةً بأنني إنسان انسلخ من ماضيه. مَن أنا؟! مِن أين جئت؟! ولماذا نزلت في هذه القرية؟! بل، بل حاولت جهدي أن أذكر اسمي، وخُيّل إلي أنني فقدت حافظة أوراقي في القطار ثم، ثم هذه السيدة، صاحبة الفندق؟! لماذا كانت تنظر إليّ هكذا؟! يا إلهي! إنها حتى لم تطلب أوراقي للتأكد من شخصيتي!! كأنها تعرفني منذ زمنٍ طويل. كأنها تعرف كل شيء عني.

وبينما كانت هذه الأفكار تحيط بي من كل جانب، خارت قواي، فنمت نوماً عميقاً وطويلاً.

في اليوم التالي خرجت إلى سوق القرية، لأشتري أقلاماً وورقاً. لاحظت أن البائع يبيعني بطريقةٍ آلية، فهذا الرجل يستوي عنده أن يبيع أو لا يبيع..

ثم خُيّل إليّ أنه ينظر إليّ نظرات مختلسة، كأنه يراقبني.

وخرجت إلى الشارع مرةً أخرى، راودني هذا الشعور العجيب بأن كل من أمرُّ بهم في القرية يراقبونني! لماذا؟! لا بدّ أن هناك سراً لهذه الظاهرة!!

وهناك ظاهرةٌ أخرى غريبة لفتت انتباهي، هي أن جميع أهل هذه القرية، يسيرون في رشاقة أشبه ما تكون برشاقة القطط! بل إنهم يشابهون القطط في أشياء كثيرة!!

كانوا مثلاً يفضّلون السير في محاذاة الحوائط وليس في وسط الشوارع.

وحينما كنت أتناول طعام الإفطار، كنت أراقب مديرة الفندق البدينة تجلس إلى مكتبها، فخُيّل إلي أنها أقرب المخلوقات إلى قطٍّ كبيرٍ جاثم قرب الحائط يتحفّز للانقضاض في أيّ لحظة على فأرٍ أصابه الرعب، فلا يستطيع الفرار مستسلماً لمصيره!

أما مواء القط الذي بدأ يحيط بي منذ أن بدأت أسمعه في مقصورة القطار، فإنه قد أصبح بالنسبة إليّ أمراً عادياً وطبيعياً.

فأجواء القرية وطرقاتها توحي بمنطقية مواء قطط يصدر من هنا أو هناك، حتى وإن لم أرَ أية قطة تسير في الطريق.

ولكنني أخذت أربط بين ما كنت أسمعه في القطار وأنا داخل المقصورة، وما أسمعه الآن من مواء في كل مكان أقصده في القرية».

□ □ □

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر، فاتجهت إلى حديقة عامة. لاحظت أن رجلاً كان يتبعني. كلما التفتّ إليه أسرع وتوارى خلف الأشجار.

ولما توغلت داخل الحديقة سمعته ينادي:

ـ ارجع، ارجع أيها المجنون!! أطعني عُد من حيث أتيت.

استدرت ناحيته، وقلت بصوتٍ مرتفع نسبياً:

ـ اقترب وتحدث إليّ كما يتحدث الرجل إلى الرجل، بدلاً من لعبة الاستخفاء المقيتة! كأنك. . .

ويقترب الرجل مني، وكأنه يستحثني لإتمام جملتي التي لم أكملها تأدباً.

ـ كأنك ماذا؟! قلها. لماذا ترددت؟!

ـ كأنك طفل يمارس لعبة الاستخفاء!

ـ كلا كلا ليس هذا ما أردت أن تقوله. إنك منافق، ولكنك ستدفع ثمن نفاقك هذا. وجُبنِكَ أيضاً.

● وانطلق الرجل إلى أن اختفى من الحديقة. كان يعدو بسرعة عجيبة، وخفة مذهلة كأنه، كأنه، كأنه ماذا؟! لم أجد الصفة المناسبة!!

بعد أن تجولت في مشارف الغابة وراء الفندق، عدت إلى غرفتي وقد سيطر على تفكيري مشهد الرجل الذي صادفته في الحديقة.

□ □ □

وفي اليوم الثاني حرصت على الذهاب إلى الحديقة، وقد اخترت نفس الوقت الذي جئت فيه يوم أمس.

وإذا بالرجل يسير ورائي، وعلى بعد أمتارٍ مني، وكلما التفتّ إليه كان يختبئ وراء الشجر!

حاولت أن أقترب منه، وأتحدث إليه... و... عندما اقتربت منه صاح بي:

ـ كلا كلا!! لا تقترب مني!!.. أرجوك.

ـ حسناً لن أقترب. هل تجيب عن أسئلتي؟!

ـ أتمنى ذلك، ولكن أرجوك أن تأخذ بنصيحتي!.. وإلا ضاعت منك الفرصة!!

ــ فرصة؟! من أنت؟! يخيل إليّ أني أعرفك!

ـ لن أجيب عن هذا السؤال. سلني عن أي شيء آخر وأسرع. أسرع.

ــ لمَ تريدني أن أسرع؟!

ـ لأنها ستأتي إلى هنا حتماً.

ــ من هي؟!

ـ (في ذعر) ستقتلني لو رأتني معك (يبكي) ليتها تقتلني، ليتها تقتلني!! أرجوك لا تقترب مني أكثر.

ــ لا تخف. فلن يأتيك أذىً مني.

ـ يا مسكين، إنك لا تملك أن تؤذيني أو لا تؤذيني. أنصحك بأن تأخذ حاجياتك من الفندق، وتغادر القرية. اتخذ نفس الطريق الذي جئت منه!!

ــ لماذا تريدني أن أترك القرية؟!!

ـ ألم تفهم بعد؟!، ألم تحسّ بالخطر؟!! استمع لي أيها المسكين، إن كل لحظة تمرّ عليك في هذه القرية(ثم يلتفت حوله يمنةً ويسرة ويصيح) يا للسموات!! ها هي أقبلت ألم أقل لك؟! ألم أقل لك؟!

ثم عاد أدراجه مهرولاً وهو يردد:

ـ ستقتلني!! ستقتلني!! كما ستقتلك بعدي لقد جاؤوا بها من أجلك أيها المسكين. إنها خلفك!!

وتلفتُّ خلفي حيث أشار الرجل الهارب المذعور، فرأيت فتاةً مقبلةً نحوي، تحمل في يدها حقيبة ثياب. كانت على وجهها الجميل ابتسامة رقيقة.

□ □ □

ـ ٣ ـ

ـ أكان هذا المجنون يضايقك؟!

ـ كلا.

ـ هل تقابلت معه مصادفة؟!

ـ بل أنا الذي كنت أبحث عنه، إذ إنه قال لي في أول لقاءٍ لي به أشياء غامضة!! أردت أن أسأله عنها وعن أشياء أخرى كثيرة، كثيرة تثير دهشتي في هذه القرية.

ـ مثل ماذا؟!

ـ هل أنت من أهل هذه القرية يا آنسة؟!

ـ أجل. كنت في بلدة مجاورة أقضي بعض المهام مع صديقات لي ثم عدت.

والآن قل لي: ما هي الأشياء المثيرة التي أثارت انتباهك،

والتي كنت تتوقع أن ذلك الرجل المجنون سيوضحها لك؟!

ـ هل في استطاعتك أن تفسري لي بعض تلك الظواهر؟!

ـ ولماذا تتعب نفسك في التفكير من الواضح أنك غريب عن قريتنا، وأنك جئت إلى هنا بحثاً عن الهدوء والعزلة، فلماذا لا تستمتع بإجازتك، دون أن تشغل نفسك بما لا يجدي؟!

ـ أنتِ على حق يا آنسة، ولكن الرجل الذي فرّ هارباً فور أن رآك قال أشياء عجيبة؟!

ـ وهل يقول المجانين غير الأشياء العجيبة أيها السيد، أحسب أننا لو بقينا أكثر في هذه الحديقة، فسيدخل علينا الظلام.

ـ يا لغبائي! كيف أترك شابةً جميلةً رقيقةً مثلك، تحمل حقيبتها الثقيلة وأنا أقف دون أن أحملها عنك؟! أين بيتك في هذه القرية؟!

ـ بيتي؟!! لنقل إنه قريب من الفندق الذي تقيم فيه!!

ـ وكيف عرفت أنني أقيم في فندق؟!

ـ بديهي يا سيدي غريب عن القرية فأين تقيم؟! إلا في الفندق الوحيد فيها؟!!

□ □ □

● وبينما كنا نسير وأنا حاملٌ حقيبتها، قلت:

ـ يخيل إليّ أن الرجل المجنون لم يغادر الحديقة. كأني أراه يتلصص بين الأشجار. لقد أصيب بحالةٍ من الرعب فور أن رآك!!

ـ لا تجعله يفسد عليك إجازتك.. فقريتنا جميلة وستروقك دون أدنى شك.

ـ لكن يخيل إليّ أن أهلها يراقبونني. أعني أن هذا إحساسي. أيضايقك يا آنسة إحساسي هذا؟!

ـ كلا كلا. بل يهمني أن أعرف من أين جاءك هذا الإحساس، هل ترى أن سلوك أهل القرية نحوك يختلف عمّا ألفته في مدينتك؟!

ـ سأضرب لك بعض الأمثلة. أنا كاتب وصحفي ومؤلف مسرحي أيضاً. كنت أشتري بعض الأوراق والأدوات المكتبية، وكان البائع يختلس النظر إليّ من طرف خفي.

ـ ألا ترى يا سيدي أن هذا أمر طبيعي في قريةٍ صغيرة كهذه؟! رجلٌ غريبٌ وسيم، فمن الطبيعي أن يثير فضول الناس. سيدي يبدو أنك واسع الخيال.

ـ إذا كنت واسع الخيال حقاً، فماذا تقولين في طريقة السير السريعة الرشيقة التي يمشي بها الناس؟!

ـ ماذا تعني يا سيدي؟!

ـ أعني أيتها الجميلة أن مشية الناس هنا أشبه بمشية القطط!!

ـ إنك حقاً كاتبٌ واسع الخيال، والآن أعد إليّ حقيبتي، فقد اقتربت من داري، كان بودي أن يطول حديثنا. على أية حال، لا تستمع إلى ما يقوله ذلك المجنون فيشوش أفكارك. ومن الأفضل ألا تحاول أنت البحث عنه.

□ □ □

● عدتُ إلى الفندق، وتناولت طعام العشاء في البهو الواسع، وظل ذهني سجيناً لتلك الأفكار العجيبة التي طرأت عليَّ!!

أصوات مواء القطط.

الطريقة الغريبة التي عاملتني بها صاحبة الفندق.

صاحب المتجر الذي اشتريت منه الأدوات المكتبية ونظراته المريبة إليَّ.

مشية أهل القرية التي تشبه رشاقة مشية القطط، وتفضيلهم السير في محاذاة الحوائط.

الرجل الذي التقيته في الحديقة!

□ □ □

ـ ٤ ـ

● انتهيت من عشائي وصعدت إلى غرفتي، كان الدهليز

المؤدي إليها يسبح في ظلامٍ دامس، فأحسست بشيء يمرّ بالقرب مني، ولمّا لامسته ارتعدت فرائصي، بعد أن اكتشفت كأن يدي إنما جاءت على جسم قطٍّ كبير. والغريب أن خياشيمي قد استنشقت عطراً نفّاذاً والعجيب أن ذلك العطر هو نفس العطر الذي كنت قد استنشقته عندما كنت أسير مع تلك الفتاة الجميلة التي التقيتها بعد ظهر اليوم في الحديقة!

وبينما كنت أسير متخبطاً في الظلام، وقبل أن أصل إلى غرفتي، شعرت بقبلةٍ دافئةٍ تُطبع على فمي! فدخلت إلى غرفتي، وأنا كالمسحور الذي فقد إرادته ولا يستطيع التحكم في حركات جسده!!

□ □ □

● وفي الصباح نزلت إلى البهو لتناول الإفطار، فقال لي الرجل الذي كان يقوم على خدمتي:

ـ إن مهمتي معك قد انتهت، وستتولى الاهتمام بك من الآن فصاعداً الآنسة ليلي، التي جاءت أمس من زيارةٍ لإحدى صديقاتها في قريةٍ قريبة، وعرفت بوجودك، وتحدثت عنك طويلاً مع السيدة والدتها، بعد أن صعدت إلى غرفة نومك.

وما هي إلا لحظات حتى أقدمت نفس الفتاة الجميلة التي التقيتها في الحديقة يوم أمس.

ـ صباح الخير. لعل الإقامة في قريتنا قد راقتك. خشيت أمس

أن تكون قد عزمت على الرحيل، ولكنني واثقة أنك ستحب الإقامة بيننا بعد أن أتكفل أنا برعايتك، وتلبية كل طلباتك.

ـ ولكنني يا آنسة لم أقرر الرحيل! ومن أين جاءك الإحساس بأنني قررت ذلك؟!

ـ كنت أعلم أنك لن تتركنا، لأنني واثقة من أنك تعشق الجمال. إلا إذا كنت تظن بأنني لست جميلة؟!!

ـ بل إنك رائعة الجمال!! ولكن اسمحي لي بسؤال: هل تستعملين عطرك هذا دائماً؟!

ـ تعني ليلة البارحة في الدهليز المظلم؟! أمام غرفتك؟! والقبلة الخاطفة؟! أهذا ما تعني؟!!

ـ أجل! أجل! كنتِ أنتِ إذن؟!

ـ ألم أقل لك إنك لن تفكر في الرحيل بعد أن وطئت قدماك قريتنا؟!

□ □ □

وتوطدت علاقتي بليلي في سرعة عجيبة. كان من الواضح أن كلينا يريد لهذه العلاقة أن تتوطّد. . .

ولكن كانت تتفاعل بداخلي تلك الهواجس والتساؤلات عن هذه الفتاة الجميلة ليلي.

* هل هي مرتبطة ارتباطاً عضوياً بما يجري في القرية. ؟!

* ولماذا يسير أهلها بسرعة وخفة كما القطط؟!

* ونظرات الناس المريبة التي تحيطني كلما سرت في شوارعها؟!

* وهل لها علاقة بنظام الحياة الغريب في هذه القرية؟!

ولكنني سرعان ما نسيت هواجسي وتساؤلاتي عندما توافيني الفتاة الجميلة ليلياً في غرفتي. وحاولت بعد أن خرجت يوماً من غرفتي فجراً أن أدون بعض خواطري، وكتبت سطوراً، ولما قرأتها في الصباح

● «إنني نسيت عالمي!! نسيت من أين جئت!! بل نسيت اسمي!!».

□ □ □

ـ ٥ ـ

● وذات صباح وقبل أن تأتي ليلي من بيتها إلى الفندق، قالت لي أمها في صوتٍ يحمل رنة الحزم، رغم رقة الألفاظ:

ـ ترى، هل قررت شيئاً خلال هذه الأيام؟!! وخاصةً بعد أن توطدت علاقتك بابنتي ليلي؟!

ـ ماذا تعنين يا سيدتي؟!

ـ أنت تعرف ماذا أعني!!

ـ إن ما أشعر به نحو ليلي هو عاطفة صادقة لم أكن أشعر بها

نحو أحد من قبل.

ـ إذن لمَ لا تُقرر؟!

ـ تعنين الزواج؟!

ـ لا!! لا!! الزواج لا يهم!!

ـ لا يهم؟!! لست أفهم؟!

ـ إذا لم تفهم. راجع نفسك، وقدّر حجم أحاسيسك نحو ليلي. عندها ستصل إلى القرار الذي سيسعدنا جميعاً!!

□ □ □

● كنت مضطرباً جداً، أشياء كثيرة لا أجد لها تفسيراً، بل إنني لا أعرف لماذا أصبحت عاجزاً عن اتخاذ أي قرارٍ حاسم بشأن مسائل كثيرة غامضة صارت تكتنف حياتي. ولم أتحدث مع ليلي في أمر الزواج، وسألت والدتها:

ـ أوتعرفين لماذا لم أفاتح ليلى في أمر الزواج؟!

ـ لماذا؟!

ـ لأني لم أعد أعرف أين كنت قبل أن أنزل قريتكم هذه، ولا أدري إذا كنت متزوجاً أو غير متزوج قبل قدومي إليكم؟!.. ألا يحتمل أن تكون لي حبيبة في المدينة التي جئتُ منها إلى هنا؟!

ـ كل هذا لا يهم. ما دام لا يؤثر على القرار الذي نريدك أن تتخذه وتريد منك لياي أن تتخذه! ولا تكثر من التفكير. ودع نفسك على سجيّتها. اتبع إحساسك الطبيعي.. بعدها ستصل إلى القرار الذي نحبك جميعاً أن تصل إليه.

□ □ □

● ظل حوار والدة ليلي عالقاً بذهني. وذات مساء، راودت ذاكرتي صور غامضة عن حياتي السابقة قبل أن آتي إلى هذه القرية.

وظللت ساهماً، فقالت لي ليلي:

ـ هيه؟! إلى أين ذهبت بك أحاسيسك يا حبيبي؟! إنك ساهم ولا تلتفت إلى واحدة من أجمل بنات القرية اخترتها واختارتها لك المقادير. هيه، هل قررت البقاء معنا نهائياً؟!

ـ لست أدري؟!

ـ لم لا تدعني أعينك على اتخاذ قرارك؟! أنا وأمي، وكل أهل القرية اقترحوا أن تنضمّ إلى قريتنا.

ـ اقترحوا أن أنضم إلى قريتكم؟!

ـ وأن تتعرف إلى مفاتن بلدتنا الجميلة في الغابة القريبة التي تحتوي على آثارنا القديمة، و...

ـ يخيل إليّ أن الرجل المجنون يختبئ في تلك الأماكن.

ـ ما لنا وللمجنون؟! ما رأيك لو خرجنا الآن؟! سأريك أماكن رائعة الجمال، أم لعلك تريد زيارتها وحدك؟!

ـ ماذا؟ وحدي؟! وهل تكون روعة الجمال من دونك؟! إن المكان يكتسب روعته عندما تكونين أنتِ فيه!!

ـ إذن، هيا. هيا بنا يا حبيبي.

□ □ □

ـ ٦ ـ

● وخرجت بصحبة ليلي إلى قلب الغابة التي تمتد إلى الطرف البعيد من البلدة، واتخذنا مجلساً في منطقةٍ فيها حيث كانت هناك أعمدة مرمرية محطمة، وهي أشبه ما تكون بمسرحٍ قديم. وجاء إلى ذهني أن هذا المسرح قد شُيّد لممارسة عبادات وثنية شيطانية دنسة.

وبينما كنت أفكر بشكل تلك العبادات والممارسات، مالت ليلي برأسها على كتفي وسألت:

ـ لِمَ أنت ساهم هكذا يا حبيبي؟!

ـ أين نحن؟!

ـ نحن أقرب ما نكون إلى وادي الأنهار الثلاثة!!

ـ عجباً! كنت أظن أنني رأيت نهراً منها حين نزلت من. . . من أين جئت إليكم يا ليلي؟!

ـ ألا تعرف يا حبيبي؟!

ـ صدقيني إذا قلت لكِ: لا أعرف يا ليلي!!

ـ ولكنني أعرف بأني أحب فيك كل شيء!! أحب فيك السهوم، والتوهان. . أحس كأنك تقترب مني، بل إنك تقترب منا جميعاً اقتراباً شديداً.

ـ ليلي، نعم أنا أحب فيك كل شيء. ماذا فعلتِ بي؟!

ـ لكم يسعدني هذا! وإذا كنت تحبني حقاً فلا شك أنك ستحب كل ما أفعله! بل ستحب كل ما أنتمي إليه!

ـ تعنين أهل القرية.

ـ أجل. أعني أنك ستشاركنا في حياتنا. . . حياتنا الحقيقية، وليست الظاهرية التي تراها.

ـ ليلي، أرجوكِ هناك أشياء كثيرة لا أفهمها. من أنا في الحقيقة؟!. . من أين جئت؟! لِمَ لَمْ أعد أذكر اسمي؟! ليس هناك ما يربطني إلى ماضيَّ.

ـ كل هذا لا يهم يا حبيبي! المهم أنك هنا، وأنك ستعيش حياتنا الحقيقية!!

ـ وما هي تلك الحياة الحقيقية التي تتكلمين عليها؟ لماذا لا

يكف أهل القرية عن مراقبتي؟! وأنت لماذا أحببتك في ساعاتٍ محدودة دون سؤال؟! بل دون أن تحاولي من جانبك سؤالي عن أي شيء يتعلق بي؟!

ـ ما دمت تحبني فمن حقك أن تعرف.

ـ إني أحبك كما لم أحب في حياتي الماضية. . التي لم أعد أعرف عنها شيئاً. أحبك بقوة. هذا المجهول الذي جاء بي من حيث لا أدري إلى مكان لا أعرفه ولا. . . ولا أفهمه أيضاً!!

ـ أعلم أنك من عالم آخر يا حبيبي. لا أدري كيف جئت إلى هنا!! ولكن لا أملَ لك في العودة إلى عالمك القديم؛ فقد ضاعت الوسيلة إلى ذلك إلى الأبد. حدث هذا لقلائل. . . قلائل جاؤوا من عالمك إلى عالمنا.

ـ مثل الرجل المجنون؟!

ـ الرجل المجنون أحدهم. لكنه!! لكنه!! الآن صار واحداً منا، وأنت أيضاً ستغدو واحداً منا بعد أن تشاركنا حياتنا الحقيقية!!

ـ ليلي، هل أنا منقاد إلى حياتكم بغير إرادتي. أرجوك صارحيني بذلك!!

ـ أجل يا حبيبي. لحسن الحظ، لأنك بقيت حتى الآن، لأنك

تحبني، كان بمقدورك أن تسرع إلى محطة القطار وترحل، بعد أن حذّرك المجنون!! لكنك لم تفعل..

ـ بل فعلت! ولكنني لم أجد المحطة، ولا القطار. لم أجد غير وادٍ مجهول.

ـ ذلك لأنك يا حبيبي لم ترِد حقاً مغادرة القرية. فلو أنك أردت ذلك حقاً لوجدت المحطة والقطار. ولكنك بقيت، لأنك أحببتني وأحببت حياتنا الحقيقية.

ـ وكيف هي الحياة التي سأحياها معكم؟!

ـ ستحب حياتنا جداً وستدخل راضياً في المملكة التي تحكمها أمي.

ـ أمك؟! مديرة الفندق؟!

ـ أمي في الحقيقة ملكة العالم الذي ستدخله، وأنا أميرة تلك المملكة. أميرة في الحياة الحقيقية التي لا نحياها إلا في الليل!!

ـ في الليل؟! لماذا في الليل؟!

ـ ألا ترى حولك كيف دخل الليل علينا سريعاً في جلستنا هذه؟ يا لجمال هذا المكان!

ـ حدثيني أكثر. لقد بتُّ أشعر كأننا كائنات نعيش في أسطورة قديمة غامضة.

ـ في يوم ما، منذ آلاف السنين، كانت هنا مملكة رائعة. ألا ترى آثارها في كل مكان حولنا؟!

□ □ □

ـ ٧ ـ

● وبينما كانت ليلي تصف لي مبادئ حياتهم الحقيقية، مددت يدي، وأخرجت علبة السجائر، وهي الشيء الوحيد الذي يُذكّرني بعالمي الماضي، ووضعت سيجارةً بين شفتيَّ، وما إن هممت بإشعال عود الثقاب وإذا بليلي تصرخ في خوف وهلع ورعب:

ـ أرجوك، أرجوك يا حبيبي، لا تشعل النار.

ثم تعدو ويختفي صوتها تدريجاً.

ـ لا أريدها. لا أريد أن أراها. إنها تحرقني. أرجوك. أرجوك!!

وأطفأت الثقاب، وألقيت بالسيجارة على الأرض، وهشمتها بقدمي. وعادت ليلي تلهث، بعد أن ذهب عنها الذعر الذي تحكّم بصوتها، وتقاطيع وجهها ساعة رأت نار الثقاب، وعدت إلى الفندق، فتركتني ليلي وذهبت لحال سبيلها..

وتبيّن لي شيءٌ أدخل الذعر إلى قلبي! فقد تبيّن لي أنني بتُّ أسير بخفة وسرعة ونشاط.

بل إنني صرت أتلمس الجدران، بل تراودني الرغبة الشديدة في أن أمارس المواء كالقطط!!

وهيمن علي الإحساس بأنني سأتحول في بطءٍ إلى قط! وعندما التقت عيناي بصورة مديرة الفندق الأم، التي تجلس في صدر القاعة، خُيّل إليَّ أنها ملكة في مملكةٍ وأنا أحد رعاياها!!

اقتربت منها في احترام، وانحنيت، وإذا بها تتحدث إليَّ في وقار بلغة المقتدرة وصاحبة السلطان المهذبة.

ـ إذن فقد قررت أن تعيش معنا نهائياً؟!

ـ أجل، أجل!

ـ ستذهب معنا الليلة.

ـ أجل. أجل!!

ـ إذن كن مستعداً عند منتصف الليل!!

ـ أجل. أجل!!

□ □ □

● وصعدت إلى غرفتي، وكان الظلام قد خيّم على المكان كله. وقرب باب الغرفة شعرت بليلي تهمس في أذني:

ـ لا تنسَ. عند منتصف الليل ستذهب معنا وتعيش حياتنا الحقيقية.

أغلقت على نفسي باب غرفتي وأنا كالذاهل، وكانت النافذة المطلة على الشارع مفتوحة، وسمعت صوتاً ملأ حياتي رعباً! إنه صوت الرجل المجنون . . يصرخ عليَّ من بعيد في توسل:

ـ لا تذهب. لا تذهب. ارحل من هنا يا مسكين. لا تذهب معنا. لا تذهب معنا.

● ولم أنم. وما إن حلّ منتصف الليل وإذا بي أسمع أصوات مواءٍ غريبة، تأتيني من أسفل بهو الفندق، من الشارع، من كل مكان، فنظرت من النافذة لأرى منظراً لم يكن يخطر على مخيلتي.

الناس تلقي بنفسها من نوافذ البيوت وتهبط إلى الأرض دون أن تصاب بأذى، ثم تنهض وتجري في خفةٍ وسرعة.

وفجأةً ظهرت ليلي في الشارع تشير إليَّ مناديةً:

ـ هيا، إني بانتظارك.

□ □ □

ـ ٨ ـ

● وخرجت من غرفتي مسرعاً لأنضم إلى أولئك الذين تجمعوا في ردهة الفندق، وإذا بليلي تضمني وتعانقني في نشوةٍ مجنونة . .

ـ هيا يا حبيبي، الحياة الحقيقية التي تنتظرك وتنتظرها. أسرع. أسرع.

وأسرع الجمع الغفير، ويدي في يد ليلي، نعدو جميعاً على ضوء القمر الباهت. نعدو إلى الغابة. ولأنهم متمرسون بالعدو فقد سبقوني، وليلي هي الأخرى قد تلبستها قوى غريبة، أخذت تستحثني، ثم تعود لتسحبني من يدي. ولما عجزت في مسايرتهم بالسير السريع، تركت ليلي يدي وسبقتني إلى الغابة وصعدوا تلاً لم أره من قبل، ثم اختفوا جميعاً في جوف الوادي وتحته ولم أعد أراهم، ولما اعتليت فوق التل، رأيتهم في الوادي على ضوء القمر. رأيتهم جميعاً في قاع هوةٍ واسعة يتمايلون، ويتصايحون كالمجانين. اختلطت أصواتهم الحيوانية: قطط، نمور، فهود، أصوات لم أكن قد سمعتها من قبل، وكانوا كلهم عراة.

وبينما أنا أنظر إليهم من فوق التل، سمعت صوت الملكة أم ليلي من بعيد تُصدر أوامرها لابنتها:

ـ اذهبي وائتي به!! لماذا يقف على حافة الهوة، ولا يقفز نحونا؟!

وجاءتني ليلي كحيوانٍ غريب يتلوى ويصدر أصواتاً فيها قحة ودنس، وأحسست برغبةٍ نزقة جامحة تدعوني أن أندفع إليها وهي تقول لي بصوتها الشهي الحيواني وبلهجةٍ آمرة:

ـ اقفز. اقفز إلى الهوّة يا حبيبي. ارقص معنا رقصة حياتنا

الحقيقية. اقفز وتغيّر إلى الأبد. اقفز لتصبح مثلنا. اقفز لتغدو قطاً.

وكنت مرعوباً، فأنا لا أستطيع القفز مثلما يفعلون، فلو قفزت من التل إلى الهوّة، لتحطمت عظامي، لكن ليلي بنفس المواء

الشهواني الحيواني تقول لي:

ـ كلا يا حبيبي، لن تتأثر. ستقفز إلى الوادي وأنت منتصب على قدميك. هيا يا حبيبي لنشرب من رحيق الحياة الحقة.

فظللت في حيرةٍ من أمري في ما بين الإقدام والإحجام. وفجأةً وجدت نفسي أرد على ليلي وكأنني قد تيقظت من غفوتي:

ـ لا. لا. لا أريد!!

وإذا بليلي تصرخ بأعلى صوتها مناديةً إياهم:

ـ اصعدوا. اصعدوا لنأخذه إلى الأسفل. اصعدوا.

ويقتربون نحوي بعد أن اشتد المواء والزئير.

● فركبني الذعر، وأنا أراهم يتسلقون جدار الهوّة نحوي كالقطط. اقتربوا مني وأخذوا يجتذبونني نحوهم والملكة تصدر أوامرها من بعيد:

ـ لا تتركوه. لا تتركوه. يجب أن يقفز معكم لنلقي به بين أحضان إبليس.

فتشبثت بساق شجرةٍ قريبة بينما هم يجذبونني بشدة نحو الهوّة.

وقبل أن أستسلم أو أتهاوى، تذكّرت فجأةً حالة الذعر التي استولت على ليلي لحظة إشعالي عود الثقاب. وبسرعةٍ أخرجت علبة الثقاب من جيبي، وقمت بإشعال النار في الحشائش الجافة، وساعدت الريح في انتشار النار، فتهاوت الأيدي التي كانت تمسك بي، وقفزوا جميعاً مذعورين نحو الهوّة، وما إن تخلصت منهم حتى أخذت أعدو أعدو هارباً. . .

□ □ □

ـ ٩ ـ

● وظللت أعدو إلى أن طلع النهار. وإذا بي وجهاً لوجه أمام الرجل المجنون.

ـ لقد نجوتَ مؤقتاً، أما أنا فلا نجاة لي. لقد تحولتُ مثلهم.

ـ لِمَ لَمْ تُحذّرني؟!

ـ لقد حذّرتك، ولكنك لم تستمع إلي؟!

ـ ولكنك لم تقل لي الحقيقة؟!!

ـ لأني، لأني أصبحت مثلهم. لا نجاة لي. لقد نِلتُ عقابي على أي حال.

ـ عقابك؟! عقابك على ماذا؟!

ـ لأني حاولت أن أقتحم الزمن بالعلم. أنت دخلت إلى هذا العالم الغريب مصادفةً، أما أنا فقد دخلته عن عمد، عن علم، عن دراسة. كنت أعرف أن هناك عالماً موازياً لعالمنا. بحثتُ عنه بالعلم. دخلته وأنا لا أدري ما سوف يكون من أمري. ظننت أن العودة لن تعزّ عليّ، لكنها عزّت.

ـ ومتى عرفت الباب الذي ولجت منه إلى هذا العالم الموازي؟!

ـ لم يعد للزمن معنى في ذهني. لقد نسيت ذلك. لنقل من مئة عام أو أربعة فقط. لا فكاك لي منه. أنا أسير هذا العالم الذي اقتحمته في جهل!! أتصدّق أنه رغم أني من علماء الفيزياء الذين لا تتلاعب العواطف في مشاعرهم، أتصدق أنني كنتُ أغار منك منذ رأيتك!!

ـ تغار مني؟!

ـ أجل. منذ استدعوا ليلي لغوايتك. . أدركت أنك ستحبها كما أحببتها أنا، وأنها ستدخلك عالمهم الشيطاني الدنس كما أدخلتني. طالما فكرت في قتلك حتى لا تفوز بليلي دوني. ولكن ما الفائدة إنها ستفعل نفس ما فعلت بي وبك، إذا اقتحم هذا العالم الموازي رجلٌ آخر.

ـ وكيف لنا أن نخرج من هذا العالم الشيطاني؟!

ـ لست أدري. لو عرفت لغادرته من زمنٍ بعيد. أما الآن فلا

أدري، وربما لا أريد. وأنت؟! هل تريد مغادرة هذه القرية إلى عالمك؟! هل تقوى على أن تترك ليلي الجميلة المسلّطة عليك من عالم الشيطان؟!

ـ أجل. أجل. سأصنع المستحيل كي أجد الباب الذي أعود من خلاله إلى عالمي... ألا تريد أن تأتي معي؟!

ـ كلا. أنت تريد الخروج. أما أنا فلا أمل لي في ذلك. ربما لأني تدنّست بحب ليلي. ومن يدري؟ لعلي أسترد حبها، بعد أن تتحرر أنت من هذا العالم، وأبقى هنا، فلن تجد أمامها سواي!!

□ □ □

● في أوراق آرثر ميللر، لم يشر إلى مصير ذلك الرجل المجنون، ولا إلى الطريقة التي استطاع بها مغادرة ذلك العالم الغريب، الذي التقاه مصادفةً في تلك القرية، وإن لمّح في بعض إشارات غير واضحة جاءت في ثنايا قصته تلك (البقعة التائهة في عالم مجنون غير مرئي).

ألكسندر بوشكين يموت دفاعاً عن شرفه!!

ألكسندر بوشكين، الذي تعرّض لأحقر مؤامرةٍ، جعلته يغادر الحياة، وهو في السن التي يعتبرها مؤرخو الفن والأدب، سن العطاء، السن التي يتم فيها نضج المبدع، وتستعد الدنيا لاستقبال روائعه.

مات من أجل زوجته التي استخدموها وسيلة لإذلاله!! ولأنه رفض أن يكون شاعراً للقصر، ولم يبع عبقريته إلا للوطن وللعالم، ولم يكن يملك خياراً يحول بينه وبين الخدمة في بلاط قيصر روسيا، فحظي بلقب شريف، لكنه ما كان يكتب شعراً إلا ليعبّر فيه عن مآسي التعساء والبسطاء من العمال والفلاحين.

□ □ □

ـ ١ ـ

● عندما نشرت له قصيدة بعنوان (الفلاح)، التي يقول في مطلعها:

«ألقِ بنظرك إلى هذا المشهد
ترى أكواخاً بائسة هنا وهناك
وراءها أرض سوداء
مُلئت بالأخاديد والمنحدرات
وقد عُقدت في سمائها غيوم رمادية كثيفة
فأين أنت يا نهر النيقا الكبير؟...».

ولم يرضَ القصر بالقصيدة، فاستُدعي على أثرها بوشكين لمقابلة القيصر. وما إن وقف بين يديه حتى فاجأه بالقول:

«أيها الشاعر النبيل، قصيدتك هذه تنمّ عن موهبةٍ فذّة، وإني أدعو الله أن تكون العبقرية التي ينتظرها الناس منك لتعوّضهم بها عن شاعرنا الكبير (درجافين)، كما أني أتمنى لو أنك تعالج بشِعرك موضوعات هي أقرب إلى الحقيقة، بدلاً من هذا الخيال الجامح. وإني لعلى ثقة يا بوشكين أنك ستنتهج في شِعرك سياسةً جديدة تهدف إلى خدمة الدولة. إلى اللقاء أيها الشاعر ألكسندر بوشكين».

- ولما خرج الشاعر بعد هذا اللقاء، اتخذ قراره في أن يركّز في معظم أشعاره وقصصه، على كل ما من شأنه أن يحثّ الناس على التقدم والرقي، للارتفاع بمستوى الوطن، لكي ينعم بكرامة وحرية، ما دام القيصر يقف إلى جانبه، وقد نفّذ قراره، وصدرت له مجموعة من الأشعار والقصص التي تصبّ في هذا الاتجاه.

وما هي إلا فترة وجيزة، وإذا برسالةٍ تُفاجئه، حيث جاء فيها:

«إن قصيدتك الأخيرة عن بطولة نابليون، قد أغضبت عليك مولانا العظيم، وأعتقد أنك ـ يا عزيزي ألكسندر بوشكين ـ توافقني الرأي: إن الشاب المطيع لأوامر القيصر أبينا العظيم، هو النموذج الصحيح للتربية القومية، وليس هو الشاب الذي تتقاذفه صور البطولات الزائفة. لا أخالك ـ يا بوشكين ـ إلا أن تكون قد فهمت قصدي، وأنت الشاعر اللبيب».

بالطبع، الهدف واضح من الرسالة التي وقّعها مدير الشرطة السرية بندروف، رغم اللف والدوران الذي احتوت عليه، فصار مطلوباً منه أن يكتب في الموضوعات التي يحددها القصر. وبالفعل، فقد تناول بوشكين عدة موضوعات ليضمنها قصائده، لكنه لم يستجب، رغم أنه قد نما إليه أن أفكار تلك الموضوعات صادرة عن القيصر نفسه!!

□ □ □

ـ ٢ ـ

• ولكن بوشكين لم يحرّك ساكناً، وظل متمسكاً في كل ما يكتب من قصائد وقصص، بالقضايا التي تهم الناس، بمختلف شرائحهم الاجتماعية، ولم يذعن لأوامر القصر.

فوصلته رسالة أخرى من مدير الشرطة السرية بندروف، جاء فيها:

«ماذا جرى لتفكيرك يا عزيزي بوشكين؟! أتريد أن تُغضب مولانا القيصر؟! فكّر أكثر من مرة قبل أن تحرق كل جسورك مع القيصر إلى الأبد».

لكن بوشكين فكّر في شعره فقط، وفكّر في رواياته التي كان يحاول فيها إحياء ذلك التراث العظيم في وطنه.

وبدأ بوشكين يدفع فاتورة ثمن مواقفه، بعد أن غضب القيصر عليه، حيث صدرت الأوامر بوضع شاعر روسيا العظيم **ألكسندر بوشكين** تحت المراقبة الدقيقة، وأخذت التقارير السرية تتدفق في تحليل كتابات الشاعر، بل إن الرقابة قد اشتملت على تحركاته أيضاً، وكانت تُرسل التقارير للقصر تباعاً على الشكل التالي:

* تقرير مرفوع إلى صاحب السعادة قائد الشرطة السرية بندروف (سرّي جداً):

«لي الشرف بأن أحيطكم علماً بأن الشاعر المعروف ألكسندر

بوشكين الموظف بالقصر على الدرجة العاشرة، وصل إلى موسكو من بطرسبرغ، وسكن في فندق بينا، وقد فرضنا على تحركاته رقابة شديدة».

* الشاعر المعروف **ألكسندر بوشكين**، يتردد على منزل أسرة جوشاروفتا، والذي يبدو أنه ارتبط بعلاقة عاطفية مع **الآنسة** ناتاليا نيكولا جوشاروفتا.

* تأكد لدينا أن الشاعر **ألكسندر بوشكين** قد تقدم إلى أسرة جوشاروفتا طالباً الزواج بالآنسة ناتاليا، وأن الأم اشترطت حصوله على موافقة صاحب الجلالة أبينا العظيم القيصر المبجّل!

□ □ □

● وكعادة الأشراف والنبلاء، تقدم بوشكين إلى القيصر ملتمساً الإذن بالزواج، وبعد فترة جاءه الرد من طريق بندروف:

«إن صاحب الجلالة أبانا العظيم القيصر المبجّل، الذي يعتني بكم عناية أبوية، قد خوّلني أن أبلغكم بموافقته على زواجك من الآنسة نتاليا نيكولا جوشاروفتا، وأن أوجّهكم بنصائحي حتى إتمام الزواج».

ـ ٣ ـ

● تحددت ملامح مأساة بوشكين التي أدت إلى نهايته بالموت، في أول حفل أقيم بالقصر، ودعي إليه الشاعر مع عروسه، فراقت ناتاليا في عين القصر، ومنذ تلك الليلة المشؤومة،

تعلقت العروس بحياة القصور وبالحفلات والمراقص، واعتادت كلمات الإطراء والإعجاب بجمالها الأخّاذ، وشبابها الفتان، وتزايد عدد عشاقها، ما زاد في معاناة ألكسندر بوشكين.

وفي تلك الليلة المشؤومة أيضاً، بدأت الخيوط الأولى من ملامح المؤامرة للإجهاز على عبقرية الشاعر، فأُعطي الإيحاء للصحافة أن تحفل بالغمز واللمز عن علاقاتٍ مريبة بين زوجة بوشكين، والعديد من شخصيات المجتمع، وخاصةً الضابط الشاب دانتس هيكرن.

لكن بوشكين كان واثقاً كل الثقة من طهارة زوجته، بعد أن أقسمت على الكتاب المقدس أن القيصر لم يخرج في تعامله معها عن حدود اللباقة.

ولكي تكتمل خيوط المؤامرة التي تهدف إلى تحطيم حياة الشاعر بوشكين، فقد وصلته رسالة، قلبت حياته رأساً على عقب، وتيقّن أنه يقع تحت هيمنة تخطيطٍ مدمر، يتخذ من زوجته وسيلةً لهلاكه، حيث جاء في تلك الرسالة:

«اجتمع القوادون من حملة (القرون)، وأقروا بالإجماع انتخاب الشاعر ألكسندر بوشكين رئيساً لهم في روسيا».

وما إن تجرّع الشاعر الحسّاس تلك الصدمة التي تضمنتها الرسالة من تلميحات، وإذا برسالة أخرى تصله بعد فترة وجيزة، جاء فيها:

«لعله يهمك أن تعلم أن الذي أرسل إليك الرسالة الأولى هو الضابط الشاب الوسيم، الذي لا تكف زوجتك عن متابعته في حفلات سيدك القيصر. إنه الكابتن دانتس هيكرن. مؤكد أنك تعرفه، وتعرف مدى علاقته بزوجتك. فلماذا لا تبارزه لكي تصون شرفك؟».

□ □ □

وكان واضحاً أن بوشكين سيقوم بمغامرة المبارزة مع ذلك الضابط، ولكنه قبل أن يتخذ قراره ذهب بالخطابين إلى مدير الشرطة السرية بندروف، فقابله الأخير بنعومته المعروفة قائلاً:

ـ يا عزيزي ألكسندر بوشكين، كيف يخطر ببالك أن روسيا يمكن أن تغامر بشاعرها الكبير في مبارزة كهذه؟!

ـ إن شرفي صار مضغة في الأفواه، يا صاحب السعادة!

ـ ولكن اسمك كأعظم شاعر في روسيا، وسمعتك كأعظم روائي في أوروبا يمنعانك يا بوشكين من المغامرة بحياتك من أجل سخافات فتى طائش مثل دانتس هيكرن! لا. لا. يا بوشكين، أريد منك أن تنسى كل شيء، وأن تتفرغ لشِعرك، ولفنك، ولإبداعك.

فطلب بوشكين من بندروف أن يتوسط له عند القيصر في الحصول على إجازة طويلة يقضيها بعيداً عن العاصمة، لأن خياله صار مشلولاً عن الإبداع، وكلماته قد احتُبست بسبب ما

يعانيه من تأثير تشويه سمعته، وسمعة زوجته. لكن بندروف يقول له:

ـ تغادر العاصمة؟! هذا مستحيل يا ألكسندر بوشكين! فطالما أن صاحب الجلالة لم يغادر العاصمة، فمن الصعب عليك مغادرتها. هل نسيت أنك من أشراف البلاد، وعليك أن تتبع مولاك أينما يكن؟

□ □ □

ـ ٤ ـ

● أدرك بوشكين بعد ذلك اللقاء أن حياته تكتنفها المخاطر، فكتب العديد من القصائد:

كلا.. لن أموت

جسمي سيفنى

روحي ستبقى حية

ما بقي على الأرض شريف واحد

سيجتاز صيتي.. بلدي

من أقصى سيبيريا الباردة

إلى أشد الأماكن حرارة

في آسيا.. وأفريقيا..

□ □ □

● . . وكلما اشتدت حدة قصائده التي أخذ الناس يتلقفونها بنهم ويرددونها بإعجاب، اشتدت أيضاً تلك الرسائل التي وصل البعض منها درجةً من الوقاحة والسفالة، حيث جاء في إحداها:

«ألكسندر بوشكين، هل فقدت كل كرامة، وجبنت عن مبارزة الفتى الذي يعاشر زوجتك، وكأنك تعرف ذلك وتغض طرفك عنه؟! فإذا لم يكن كذلك، فما الذي يمنعك عن مبارزته؟!».

□ □ □

● ولم يكن أمام بوشكين من مفرٍّ من مواجهة دانتس في غابةٍ بضواحي بطرسبرغ، وهو الشاعر الذي لم يسبق له أن أمسك بمسدس، يواجه ضابطاً متمرساً في استعمال كافة أنواع الأسلحة!

وكانت رصاصة دانتس هي الأولى، أصابت من الشاعر مقتلاً، بينما طاشت رصاصات الشاعر في الهواء.

□ □ □

هناك حيث البحر

يغسل الصخور الجرداء

هناك حيث القمر

يسطع في كبد السماء

هناك قدمت الطبيعة الساحرة
غلافاً فيه طلسماً
وقالت لي مداعبة:
إذا ما الخيانات
أدمت قلبك
عليك بطلسمي هذا
فإني أمنحك إياه
من أجل الحب.. والحب فقط

□ □ □

مات بوشكين من أجل الحب، حب الوطن، حب الإنسان، حب الكرامة.

وظلّت البشرية بكل لغاتها تردد كلماته بالحب والتقدير والإعجاب، حتى صار واحداً من عظماء الأدباء والشعراء ممن خلّدهم التاريخ.

أما الذين تآمروا عليه من القصر ورجاله، فإنهم لا يذكرهم التاريخ إلا في مزابله!

المعتمد بن عباد
يقتل صديقه.. ثم يبكي عليه!!

لزم كل واحد منهما الآخر. . وصار الناس في مدينة شلب في الأندلس لا يرون أميرهم محمد بن المعتضد الشاب ابن العشرين، إلا وفي رفقته الشاعر المرح الظريف أبو بكر بن عمّار ابن السابعة والعشرين.

ولا أحد يدري كيف استطاع ابن عمار التسلل إلى قلب الفتى المترف الطيب، حتى جعل الناس يرددون أنه أفسد عليهم أميرهم، فترك الاهتمام بإدارة الحكم، ليلتفت إلى اللهو وقرض الشعر وملاحقة الحسان خفية كأنه واحد من فتيان شلب، وهذا مخالف للهدف الذي أرسله أبوه إلى تلك المدينة من أجله.
وصار الناس يرددون حادثة ليلةٍ تنكر الأمير فيها بثياب تاجر، وخرج إلى شاطئ البحر حيث كانت الفتيات الحسناوات يتجمعن في ذلك الشاطئ، وراقت إحداهنّ الأمير، فتابعها حتى كوخها، بعد أن أطعمته بضحكاتها، وغمزاتها، ثم دخلت هي

الكوخ وأشارت إليه أن يقفز من النافذة، وما إن قفز حتى انهال عليه أخوتها ضرباً، وما نفعه صياح ابن عمّار: ويحكم!! ويحكم!! إنه الأمير!!

ولكن الأمير يصيح فيه خجلاً:

ـ «قبّحك الله يا ابن عمّار، هل يُضرب الأمير بزعانف السمك؟!».

ثم يضحكان للموقف الذي وقع لهما، وتحدثت به كل مدينة شلب!!

□ □ □

● رغم الصداقة التي خلّداها في أشعارهما، ورغم الودّ الذي تحدثت به الأندلس كلها في تلك الفترة العاصفة من تاريخ العرب في الجزيرة الجميلة، شاعران كان فساد ما بينهما، ثم مقتل أحدهما بداية الضياع للمجد المؤثل في أرض السمن والعسل الأندلس!! والعجيب أن أولهما كان ملكاً، بينما كان الثاني صعلوكاً.

□ □ □

ـ ١ ـ

لنبدأ بالصعلوك، فنراه يدخل مدينته الواقعة في أقصى الجنوب الغربي من الأندلس فوق ربوة متدرجة حتى المحيط الأطلسي.

نراه يدخلها على حمار هزيل، وفي ثياب رثة مهلهلة، وليس معه من متاع الدنيا سوى لسان ذرب، وقريحة رائعة، وخيال بديع.

إنه شاعر، ولكنه شاعر فقير جائع، متعب.

كان في السابعة والعشرين من عمره، عندما عُقد في تلك المدينة اجتماع الأمراء. فمحمد المعتمد ولي عهد المعتضد، أمير إشبيلية، شاب في العشرين من عمره، جعله أبوه أميراً على مدينة شلب ليتدرب على المُلك، حتى إذا ورثه يكون مستعداً متمرساً بسياسة الحكم، والمعتضد يزور الآن ولده، حيث وصل إليه من إشبيلية محفوفاً بعددٍ من الأمراء.

والمعروف أن محمد شاعر رقيق، وأبوه المعتضد يحسن النظم أيضاً، وقد انتهز ابن عمار فرصة هذا الاجتماع ليلقي شعره على المجتمعين في بلدته، فتمكن من الوصول إلى القصر حيث ألقى قصيدته عليهم، فبدأها بالقول:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره
لمّا استرد الليل منا العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره
وشياً وقلّده نداه جواهرا

فلما سمع المعتضد تلك الأبيات، قال لولده:

ـ أهذا شاعرك يا محمد؟!

ـ ما رأيته قبل اليوم يا أبت!!

ـ أهكذا يقتحمون حديقة قصرك، وأنا والأمراء ضيوف عندك دون إذنٍ منك؟!!

ـ ولكن ألا ترى أن شعره جميل يا أبت؟!

وهنا يلتفت المعتضد نحو ابن عمّار ليتوجّه إليه بالسؤال:

ـ من أنت؟ ومن أينِ جئت أيها الشاعر؟!

ـ خادمك يا مولاي، أبو بكر بن عمّار من أهل شلب.

ـ أتمم أبياتك أيها الشاعر.

روضٌ كأن النهر فيه معصم
صافٍ أطل على رداء أخضرا
وتهزّه ريح الصبا فتخاله
سيف بن عباد يبدد عسكرا
أندى على الأكباد من قطر الندى
وألذ في الأجفان من سنة الكرى
فاح الثرى متعطراً بثنائه
حتى حسبنا كل تربٍ عنبرا

وتتوجت بالزهر صلع هضابه
حتى ظننا كل هدبٍ قيصرا

فتصدر كلمات الإعجاب من المعتضد الذي يقول لولده:

ـ لكأن هذا الشاعر قد تفوق عليك يا محمد؟!!

ـ لكأنه كذلك يا مولاي.

لكن ابن عمار يبادر الأمير محمد ـ المعتمد ـ بالقول:

ـ وأين كلماتي الهزيلة من بارع كلماتك يا مولاي الأمير؟!

فيقول المعتمد لأبيه:

ـ لم لا تجعل ابن عمار من شعرائك يا أبت؟!

ولم لا تجعله من شعرائك أنت؟! أتخشى المنافسة؟ أجزه بألف دينار، وكسوة تليق بمجلسك.

□ □ □

ـ ٢ ـ

لكن المعتضد لم يكن مرتاحاً لما يقوم به ابنه من أفعال في تلك المدينة، ويعزو ما طرأ على سلوكه إلى رفقة شاعره الجديد أبي بكر بن عمار، فيطلبهما إلى إشبيلية، ويذهبان معاً، فيرغم الأب ولده على أن يلزم مجلسه ويباعد بينه وبين ابن عمار، ولكن ما بينهما من صداقة وود يدفعهما إلى التسلل والتجوال

معاً في مغاني إشبيلية، حتى عادت سيرتهما مع حسناوات المدينة الساحرة ثانية..

وتصل الأخبار إلى أسماع المعتضد، فيأمر بترحيل ابن عمار إلى شلب منفياً، على ألا يغادرها مطلقاً.

فيكتب أبياتاً يودع بها صديقه:

سكّن فؤادك لا تذهب بك الفكر
ماذا يعيد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
وإن يكن قدرٌ قد عاق عن وطرٍ
فلا مرد لما يأتي به القدر
كم زفرة من شغاف القلب صاعدة
وعبرة عن شؤون العين تنحدر
رضاك راحة نفسي لا فجعت به
فهو العتاد الذي للدهر أدّخر

□ □ □

وبينما كان ابن عمار في مدينة شلب تصله قصيدة المعتمد التي يرد بها عليه:

ألا حيّي أوطاني بشلب أبا بكر
وسلهن هل عهد الوصال كما أدري؟

وسلّم على قصر الشراجيب من فتىً
له أبداً شوق إلى ذلك القصر
وليل بسدّ النهر لهواً قطعته
بذات سوار مثل منعطف البدر

وظلّ المعتضد مصرّاً على ألا يعود ابنه إلى مدينة شلب؛ إذ استقر به المقام في القصر مع أبيه ليتعلم منه مباشرة فن الحكم..

□ □ □

ـ ٣ ـ

ويضرب القدر ضربة ظنها الصديقان عودة إلى الماضي القريب السعيد، أيام اللهو والمرح والشباب العابث، ولكنها كانت بداية لا تنبئ بتلك النهاية التي انتهت إليها. فقد مات المعتضد، وقام بالملك من بعده محمد المعتصم.

مات عباد ولكن
بقي الفرع الكريم
فكأن الميت حيّ
غير أن «الضاد» «ميم»

وكان أول عمل قام به صاحب (الميم) ـ أي المعتمد ـ أن أرسل إلى صديقه ابن عمار الذي لبّى الدعوة بهذه الأبيات:

لــبّــيـــك لــبّــيـــك مـــن مـــنـــادِ
لـــه الـــنـــدى والـــرحـــب والـــنـــدى
هـــأنـــا بـــالـــبـــاب عـــبـــد قـــنّ
قـــبـــلـــتـــه وجـــهـــك الـــســـنـــي
شـــرفـــه والـــده بـــاســـم
شـــرفـــتـــه أنـــت والـــنـــبـــيّ

فيسرّ المعتمد بن عباد لما سمع من صديقه ويستقبله قائلاً:

- بالغت، والله كعهدك يا بن عمّار لشد ما طال شوقي إليك يا أخي.

- والله يا مولاي ما كان للحياة طعم وأنت عني بعيد!! وأقسم بحبي لك أن أبياتي الثلاثة هذه، هي أول ما كتبت منذ أن غادرت إشبيلية حتى عدت إليها.

- عودٌ حميد يا صديقي.

- ما أحسب ما ذهب يعود يا سيدي وابن سيدي.

- ويحك يا ابن عمار!! أمللتنا ولم تبق معي غير ساعة من زمان؟! أم تركت لك قلباً في شلب تود لو تعود إليه؟!

- لا هذا ولا ذاك يا مولاي!!

- فما معنى: أصلح الله ما فسد من طبعك!! قد كان طبعك المرح والمزاح، لكنك اليوم كئيب الوجه، كثير السهوم، ما

الذي حلّ بك يا صديقي؟!

ـ يا مولاي إنك اليوم سلطان هذا الملك الواسع كله، وتلك أعباءٌ لا يتسق حملها مع مثل ما كنا فيه أيام النزق واللهو والدعة.

ـ تعلم والله يا ابن عمار أني أحب الجلسة الصافية، أسمع فيها شعرك، وتسمع فيها شعري، أقول شطراً، وتقول أنت الشطر الآخر.

ـ لا بد مما ليس منه بد يا مولاي . . وما كان لسليل ابن عباد أن ينام عن أمور الحكم ومشاغل السياسة في هذا الظرف العصيب الذي تترصدنا فيه عيون الإسبان، تريد أن ترى منا غفلة، فتنقضّ علينا.

ـ لعلني لم أرث قدرة أبي!! أتحسبني لم أفكر في هذا يا صديقي؟! لقد فكرت وقلت إن أبي كان يصطنع الوزراء حتى يستطيع أن يفرغ بعض الوقت، فينال من الحياة ما ينال الناس من الأنس والمرح.

ـ نعم يا مولاي، وقد أكد ما تقوله في هذه الأبيات:

قسمت زماني بين كدٍ وراحةٍ
فللرأي أسمار وللطيب آصال
فأمسي على اللذات واللهو عاكفاً
وأضحي بساحات الرياسة أختال

ولســت عـلـى الإدمـان أغـفـل بـغـيـتـي
مـن الـمـجـد إني في الـمـعـالي لـمـحـتـال
إذا نــام أقــوام عــن الــمــجــد ضـلــة
أســهّـر عـيـنـي أن تـنـام بـي الـحـال

ـ ما دمت يا ابن عمار قد جئت على هذه الأبيات لوالدي المعتضد، فلا بدّ لي أن أصطفي لي وزيراً يقوم مقامي في إدارة الأمور والحكم، وزيراً أثق بقدرته، وأعلم أنه لا يطمع في أن يستبد بالأمر دوني.

ـ كان أبوك رحمه الله يجد أمثال هؤلاء حوله كثيرين، فأين من حولك مما تحب؟!

ـ وجدت من أثق في قدرته، وأعلم أمانته، وأعرف أنه لن يفارقني حينما، وحيثما أريد!!

ـ ومن ذاك يا مولاي؟!

ـ أبو بكر ابن عمار.

ـ أنا؟! أنا وزير سلطان الأندلس؟!

ـ (ضاحكاً) ـ نعم. . وزيره، وصاحبه، وإلف شبابه. أهلاً بك يا وزيري.

ـ مولاي!!

ـ من الآن تمارس العمل.

ـ كشاعر، أم وزير؟!

ـ هذه اللحظة كشاعر: أكمل هذا البيت يا ابن عمار

«هذا المؤذن قد بدا بأذانه»

«يرجو بذاك العفو من رحمانه»

«طوبى له من شاهد بحقيقة»

«إن كان عقد ضميره كلسانه»

ـ عجباً لك. ماذا جرى لمزاجك يا ابن عمار؟! أحس في صوتك التوجس والتشكك. أولا تحس مزاجي من شعري؟! الوثوق، والاطمئنان؟!

ـ أوأفتح قلبي يا مولاي؟!

ـ كل ساعة لك عجيبة!! ومنذ متى كان قلبك لي مغلقاً؟!

ـ أما التوجس والتشكك، فبسبب قلة حيلتي، وضعف موقفي من الناس جميعاً. أما الوثوق والاطمئنان، فبسبب ما أنت فيه يا مولاي من مجدٍ وعزةٍ وقوةٍ أمام الناس جميعاً.

ـ لم أرك فيلسوفاً من قبل يا ابن عمار!! لشدّ ما غيّرتك الإقامة في شلب. هيا إلى الصلاة.

□ □ □

ـ ٤ ـ

وسكن ابن عمار في قصره الجديد الملحق بقصر الإمارة، وكان حريصاً على مشاعر سيده، وكانت تصيبه الغيرة القاتلة والحسد من الآخرين الذين يتوددون للسلطان، فعمل على استحكام شدة قبضته، لدرجة أن البعض كان يراه يتصرف وكأنه هو الحاكم في مصير الأندلس. وصار مثل هذا الشعور ينتاب المعتمد بن عبّاد حيال صديقه، والملوك لا تغفر لمن يتحلب ريقه إلى سلطانهم.

لكن ابن عباد أراد أن يتجاوز عن تلك الأفكار التي تراوده حيال صديقه ابن عمار، فأراد أن يسترجع معه أيام اللهو التي قيدتها تبعات الإمارة، والوزارة، فدعاه إلى رحلةٍ يتنزهان فيها، وتنكرا بهيئة تاجرين، وذهبا إلى متنزه بإشبيلية، يطلق عليه الناس (مرج الفضة) لجمال منظره، وطيب هوائه، وجلسا في أمسيةٍ رقّ فيها النسيم، وطاب فيها الهواء، فعبّر المعتمد عن ذلك المنظر، وهو يحدث صديقه ابن عمّار:

□ □ □

ـ منظرٌ بديع!! انظر إلى حركة مياه النهر مع مداعبة النسيم..

ـ والأبدع من كل هذا وذاك يا مولاي الأمير!!

ـ على رسلك يا ابن عمار.. لا تنسَ أننا مجرد تاجرين، فدع

الإمارة والوزارة حتى لا تنفر منا تلك الحسناوات اللاتي يغسلن الثياب على حافة الغدير.

ـ صدقت. صدقت. انظر إلى تلك الفتاة الطويلة. إنها أروعهن جميعاً.

ـ دعنا من النساء الآن، لنبقَ مع منظر هذا النهر، وما يفعله النسيم في مائه. واسمع هذا البيت ثم ردّ عليه:

ترقرق الماء بهفهاف النسيم واطّرد
يا لوحة أبدعها بفنه الفرد الصمد

فلم يجب ابن عمار وظل ملتزماً الصمت.

فقال له المعتمد:

ـ ماذا جرى؟! أين قريحتك؟! قد كنت تسبقني في القريض!!

ـ أمهلني لحظة. أولا يفكر الشاعر؟!

فكرر المعتمد عليه بيت الشعر، وكانت الشابة الطويلة القامة التي تقوم بغسل الثياب في النهر قريبةً منهما، وكأنها قد استرقت السمع لبيت الشعر، ولمحت عجز ابن عمار عن مجاراة صديقه، وإذا بها تقول:

أجمل بها يوم الوغى
لو أن ذا الماء جمد
تخالها منسوجةً
من جلّق ومن زرد

فيُدهش المعتمد بن عباد ويقول في إعجاب:

ـ بالله لقد غلبتك والله يا صديقي. من علّمك الشعر يا جارية؟!

ـ مولانا المعتمد سلطان إشبيليا، وشعر وزيره أبي بكر بن عمّار!!

ـ اقتربي يا جارية. من أنتِ؟!.

ـ يدعونني يا سيدي «رمكية».

ـ اسم عجيب!! وكيف يطلق عليك هذا الاسم وأنت بهذا الجمال الخلّاق.

ـ حكم السيد على عبدته.

ـ وما اسم سيّدك؟!

ـ رميك بن حجاج!!

ـ وأين يقيم يا رمكية؟!

ـ على غير بعيد من هنا.

ـ وهل اتخذك زوجة؟!

ـ وكان لي منه طفل اخترمه الموت.

ـ من الرق إلى الرق؟!

ـ أعتقك، وأتزوجك إن طلقك الرجل بغير مَنٍّ ولا أذى. إذا عدتِ إلى البيت يا رمكية، فقولي لزوجك يأتيني في القصر، ولا تذكري له السبب.

ـ ومن أين أنت أيها السيد؟!

ـ أنا المعتمد بن عبّاد.

□ □ □

ـ ٥ ـ

ولم يكن رميك بن حجاج في حاجة إلى معرفة السبب. يكفي أن المعتمد بن عبّاد سلطان إشبيلية شرّفه بشراء جارية أخذ منها مبتغاه ومات عنها طفلها.

دخلت رمكية قصر المعتمد، لتصير سيدة القصر، وسيدة قلب صاحب القصر.

وبدأت الغيرة والوساوس تنهش قلب ابن عمّار. أجاءت هذه الجارية لتسلبه حب صاحبه له؟! ومن يدري لعلها تغيّره عليه فيفقد الوزارة، ويعود إلى حياة الصعلكة والفقر، والتسول بالبيت أو البيتين من الشعر.

لكنه كان يخفي ما بصدره ويظهر للعاشق وللمعشوقة البشر والبشاشة. بل حين عزم المعتمد على تغيير اسم زوجته الحبيبة، اقترح عليه ابن عمّار اسم «اعتماد» بدلاً من «رمكية»،

باعتبار أن الحاكم المعتمد وزوجته اعتماد.

وحين غاضبت اعتماد زوجها يوماً، أرسل إلى صديقه ابن عمّار أن يتدخل ليعود الصفاء إلى قصره بعد أن تكدّر عندما غضبت الحبيبة.

ووافاه بأبياتٍ من الشعر، فحملها الوزير، وقرأها أمام زوجة أميره كي يعود السلام بينهما، قال فيها:

أغائبة الشخص عن ناظري
وحاضرة في صميم الفؤاد
عليك سلام بقدر الشجون
ودمع الشؤون وقدر السهاد
تملّكتِ مني صعب المرام
وصادفتِ ودّي سهل القياد
مرادي لقياك في كل حين
فيا ليت أني أعطى مرادي
أقيمي على العهد ما بيننا
ولا تستحلي لطول البعاد
دسست اسمك الحلو في طيه
وألّفت فيه حروف "اعتماد»

□ □ □

وكان ابن عمار يخفي مشاعره الحقيقية في صدره، ولكنه كلما دخل دهاليز النعاس، كان يتراءى له شبحٌ ينبثق إليه من عيني رأسه، فيردد له:

«أفق يا ابن عمّار، إن النعم ستزول، وستفقد الكثير إذا لم تفق».

وظلّ المسكين قلقاً في النهار ويعاني من الأرق في الليل، ومضطرب، كثير السهر والسهوم، وكان يتساءل:

«هل تغيّر قلب المعتمد بن عباد عليّ، وصار يضيق ببقائه بالقرب منه؟!». غير أن الواقع يقول بعكس ذلك، فكلما لقيه المعتمد كانت البسمة الحلوة التي اعتادها منه على شفتيه، والكلمة الرقيقة التي تنعش الأمل، وتمحو القلق، وتبذر زهور الثقة الرطبة الندية في نفسه.

ما باله يفرغ طويلاً في نفسه، وتزدحم في رأسه التساؤلات: ما باله يفرغ طويلاً إلى الرمكية، وقد مرّ على زواجهما أكثر من عام؟! ألا يملكها؟! ألا يشبع من التطلع إلى وجهها؟! هل سلبته المرأة قلبه وعقله؟!

هل أطرح الوزارة وأفرّ من إشبيلية قبل أن تفسد الرمكية ما بيني وبين صديقي؟! إلى متى يا ربّ هذه الحيرة؟! مَن يريني طريقي ومذهبي في الحياة غير الله؟!

وتكسر هذه التساؤلات رغبة المعتمد بن عبّاد في طلبه إليه أن

يصطحبه اليوم كله، فيناقشه في أمور كثيرة في شؤون إدارة الدولة، وعندما جاء الليل، تفرغا لبعضهما البعض كما كان العهد بهما قبل دخول اعتماد الرمكية قصر السلطان، حتى إذا أذن الليل بالنوم، وتحرك الوزير ابن عمّار ليقوم إلى بيته، يقول له المعتمد برجاء:

ـ أقسمت عليك يا أخي أن تقضي الليلة معي!

ـ ذهب أكثر الليل يا مولاي، وباقيه أدعه لمولاتي اعتماد. فما أحب أن أغضبها، بإبقائك كل الوقت.

ـ تغضب السلطانة؟! ألا إنها عنك راضية يا أبا بكر. ولقد أريتها شعرك الأخير في مدحها، فقالت:

«أولا تهب شاعرنا ولاية يكون أميراً عليها؟!».

ـ كأن مولاتي السلطانة تريد الخلاص مني؟!

ـ ما أرادت إلا تكريمك، لأنها تعلم مقدار حبي لك، وقدر ودّك ووفائك لي. ولكني والله يا أخي ابن عمّار، لا أريد فراقك أبداً، وما دام أوان النوم قد لاح، فقد أُعدت لنا في هذا المكان غرفة. فوالله لتضعن رأسك يا أخي معي على وسادٍ واحد.

ـ يا مولاي، هذا كان يحدث عندما كنا في شلب. أما الآن، فهناك من يشاركك السلطان، فهي أحب عندك من أقرب الناس إليك.

ـ هيا. هيا يا أخي إلى النوم. ودعني بربك أغمض عيني على أنغام كلماتك، ما آخر ما قلت يا أبا بكر؟

ـ لو تقارضنا الشعر يا مولاي لطالعنا ديك الصباح!!

ـ صدقت يا ابن عمّار، ولكنني أريد بك العودة إلى أيام شلب ولهو الشباب.

ـ فخذ إذن هذين البيتين:

تذكرني عهد الصبا كأنما
قدحت بنار الشوق بين الحيازم
ليالي لا ألوى على رشد لائم
عناني ولا أثنيه عن غيّ هائم

ـ أجيبك يا ابن عمّار ببيتين أيضاً:

أنال سهادي من جفون نواعس
وأجني عذابي من غضون نواعم
هو العيش لا ما أشتهيه من السرى
إلى كل ثغرٍ آهل مثل طاسم

وظلا يتسامران شعراً إلى أن غلب عليهما النوم. لكن نوم ابن عمّار لم يكن تلك الليلة هانئاً، فما إن بدأ غطيط النوم يغالبه، حتى راوده ذلك الشبح:

«لا تغتر يا ابن عمّار، فإن شاركك اليوم في وسادة واحدة.

فسوف يفتك بك ولو بعد حين، فانجُ يا ابن عمّار بنفسك واهرب التماساً لنجاتك».

ويقوم مفزع النفس، وتلتقي نظراته في وجه صديقه الطيب النائم قربه. ويستغفر الله من أضغاث أحلام صارت تدهمه كثيراً منذ أن دخلت الرمكية قصر صديقه... ويحاول النوم ثانية، فلا يكاد يسلّم له جفونه، حتى يلوح له الشبح:

«ويحك يا ابن عمّار، لا ينفعك الوعيد حتى ترى نفسك مجندلاً في هذا القصر بيد صديقك الذي ينام وإياك على سريرٍ واحد. اهرب يا ابن عمّار، وانجُ بنفسك!!».

□ □ □

ـ ٦ ـ

هذه المرة يقوم ابن عمّار خائفاً متوجساً موقناً أن هذا الشبح أو هذا الهاتف يعلم ما لا يعلمه هو، فسوّلت له نفسه أن يخرج مستخفياً حتى يصل البحر، ليتخذ طريقه نحو شمال أفريقية فيبقى هناك بعيداً عن كيد اعتماد، وغدر المعتمد.

وعندما يستيقظ السلطان فلا يجد صاحبه، فيصيح:

- **«يا ابن عمّار، يا ابن عمّار. أيها الحراس، أين ذهب الوزير؟!».**

فينتشرون وبأيديهم الشموع باحثين في كل زوايا القصر من

الداخل والخارج، فيظن المعتمد أن صديقه قد تعرض لمكروه، ويصيح بالحرس:

ـ «أين اختفى؟! إني والله لأخشى أن يكون قد اختطف، فرجال عدونا ألفونسو يتربصون به بسبب هزيمتهم أمام الجيوش التي قادها ابن عمّار قرب قرطبة!! أقسم لو ناله مكروه على أيديهم لأقتلنّ به ألف أسير من رجالهم».

وبينما كان المعتمد بن عبّاد يتحرق أسىً ولوعةً على صديقه الذي أمضى ليلة معه ثم اختفى عند تباشير الصباح، جاءه الحراس يحملون حصيراً مطوياً، وجدوا فيه حركة، ما أكد لهم أن مصدر هذه الحركة إنما هو جسم لإنسان، ونفضوا الحصير أمام المعتمد الذي أصابته الدهشة حينما رأى ابن عمّار يتوسل إليه، طالباً منه الرحمة:

ـ كيف دخلت في هذا الحصير يا ابن عمّار؟!

ـ الرحمة يا مولاي. بحق السماء لا تقتلني!!

ـ أقتلك!! أنا أقتلك يا صديقي؟!!

ـ إذن.. لم السيف في يدك؟!

ـ إنما خرجت به لأقتل من مسّك بشرّ. تعالَ يا ابن عمّار. ما حملَك على هذا الاعتقاد؟! تعالَ يا صديقي إلى الغرفة. تعالَ.

وبعد أن دخلا إلى إحدى صالات القصر، وكانا بمفرديهما، أراد المعتمد أن يخفف عمّا ألمّ بصديقه:

ـ إنك ترتعد. اجلس. والآن وقد هدأت نفسك بالله حدثني، ما الذي حمّلك على هذا؟!

ـ أخفيت نفسي في الحصير كي لا يراني أحد وأنا أسعى إلى البحر كي أغادر إلى شمال أفريقيا!!

ـ ولِمَ يا صديقي؟!

ـ حلم رأيته. كلما سربلني النوم، رأيت شبحاً يقترب مني، وينصحني بالهروب، ويحذرني منك، فرأيت أن أهرب قبل أن يلحق بي غضبك، وتقتلني!!

ـ أنا أقتلك يا أبا بكر؟! كيف أقتلك؟! أرأيت أحداً يقتل نفسه؟! وهل أنت عندي إلا نفسي؟! عُد إلى وسادتك يا رفيق الصبا، ودع عنك أضغاث الأحلام!!

ولما علمت اعتماد الرمكية بما حدث، أزعجها ذلك الاهتمام الزائد على الحد الذي يبديه زوجها نحو صديقه، فعاتبت المعتمد أن يتركها طوال الليل، ويقضيه بمنادمة صديقه ابن عمّار، فيقول لها زوجها:

ـ يكاد ابن عمّار أن يهلك نفسه في شؤون إدارة البلاد. والله لولا سياسته مع ألفونسو الإسباني لضاعت قرطبة!!

ـ وما يدريك ما يدبّر في الخفاء مع ألفونسو؟!

ـ الخفاء؟! أبو بكر ابن عمّار؟! الذي مال دولتنا كله بين يديه لا يا حبيبة القلب، إنه...

ـ ما عدت أرى لك حبيباً غير ابن عمّار هذا!!

ـ أنت زوجتي، ريحانة القلب، وهو صديقي، وإلف شبابي، وصاحب ملاعب صباي. وأقسم لك إنه دائماً يذكرك بأجمل أشعاره.

ـ ما دمت تثق به كل هذه الثقة، أرسله في جيشٍ يفتح لك «مرسية» التي في أيدي الإسبان، فإن فتحها، فتثبته والياً عليها.

ـ يبدو أنك تودين أن يقتل ابن عمّار في مواجهته للإسبان، ولكنني أؤكد لكِ أنه سيفتح (مرسية).

□ □ □

ـ ٧ ـ

ويصدر ابن عبّاد أوامره إلى صديقه أن يخرج لفتح مرسية التي اغتصبها ألفونسو، وينجح الشاعر الفارس فيما ظنّته اعتماد الرمكية أنه لن ينجح فيه.

وما إن تصير مرسية في يده حتى يثبته المعتمد حاكماً عليها، وقد كتب له في هذا التعيين أبياتاً:

تغيّر لي فيمن تغير «حارث»
وكل خليل غيّرته الحوادث
أحارث إن شوركت فيك فطالما
نعمنا وما بيني وبينك ثالث

فأجابه ابن عمّار، الذي قرر ألا يعود إلى إشبيلية بأبيات تنبئ عن رغبته هذه:

لك المثل الأعلى وما أنا «حارث»
ولا أنا ممن غيّرته الحوادث
ولا شاركته الشمس فيّ وإنه
لينأى بخطى منك ثان وثالث
فديتك ما للبشر لم يسر برقة
ولا نفحت تلك السجايا الدمائث
أظن الذي بيني وبينك أذهبت
حلاوته عنّي، الرجال الخبائث
وهل أنا إلا عبد طاعتك التي
إذا مت عنها قام بعدي وارث؟!

□ □ □

● ولكن المعتمد لم يكفّ عن دعوة صديقه إلى العودة، ولم يكفّ ابن عمّار عن اعتذاراته، وقد كثرت بينهما القصائد

المتبادلة، حتى يرتكب ابن عمّار خطأً هو أبشع ما يمكن أن يرتكبه صديق في حق صديقه.

فابن عمّار، بعد أن خاض غمار الحياة، ونجح فيها نجاحاً ملحوظاً في إدارة دفة الأمور السياسية والمعارك العربية، فضلاً عمّا حققه من سمعةٍ طيبة في الشعر والأدب، أخذت نفسه تسوّل له من أنه هو الذي لديه القدرة على تثبيت الحكم القوي في الأندلس، وظنّ أن حكمه لمرسية التي افتتحها سيحقق له ما تطمح إليه نفسه:

«إن المعتمد ابن عبّاد شاعر وأنا شاعر».

لكنه يتعثّر عندما تأتيه هذه الحقيقة عن المعتمد، وهي أنه سليل ملوك، وهذا ما يقض مضجعه، فليس لأسلافه من نصيب في شيوع الذكر، ولا عراقة الأصل، فكانت نار الغيرة تتأجج في صدره، وتوشك أن تنسيه أيادي المعتمد التي امتدت إليه. لكن القصيدة التي بعث بها إليه المعتمد يوماً يمتدحه فيها باعتباره خرج من بيئة غير كريمة كما جاء في هذه الأبيات:

الأكـثـريـن مـسـوّداً ومـمـلـكـا

ومـتـوجـاً فـي سـالـف الأعـصـار

الـمـكـثـريـن مـن الـكـبـار لـنـارهـم

لا يـوقـدون بـغـيـره لـلـساري

والمؤثرين على العيال بزادهم
والضاربين لهامة الجبار
لما نماهم للعلا عمّارهم
تركوا العداوة قصيرة الأعمار

فهذه الأبيات تنهش في صدر ابن عمّار، ويراها تعريضاً، وسخرية بأهله، لكنه يدرك بقرارة نفسه أن المعتمد لو كان لا يحبه، لما قبل أن يثبته على مرسية.

□ □ □

ـ ٨ ـ

ولعبت المقادير لعبتها، عندما أصرّ المعتمد على ابن عمّار في العودة إلى إشبيلية، لكن هذا الأخير قد تمسك بالولاية على مرسية لأنه كان يعتقد جازماً أن الرمكية تترصده وتخطط لإزالته، ولو ذهب إلى إشبيلية فلن تدعه يخرج منها حياً.

ولهذا فقد عقد العزم على أن يتمرد على المعتمد بن عبّاد، حتى وإن اقتضاه الأمر أن تكون المواجهة بينهما حربية.

وبدأ اتصالاته بقادة قوات الأمراء الذين كانوا يعادونه بالأمس، والذين أشبعهم هجاءً في شعره، لكنه الخوف الذي يكرسه بداخله ذلك الشبح، من أن صديقه سيقتله بيده.

ومرةً أخرى يلحّ المعتمد على صديقه في العودة إلى إشبيلية بعد

أن عُيّن لمرسية والٍ جديد، ويكون أمر المعتمد هذه المرة، متسماً ببعض الشدة، فيفقد الغضب والخوف ابن عمّار اتزانه، وينسيه حبه لصديقه، وينطلق لسانه في مجلس من مجالسه بقصيدة بالغة العنف موجعة الهجاء، سبّ فيها المعتمد وزوجته الرمكية وأولادهما سبّاً قبيحاً، لا يليق بمنزلة الشاعر ولا بإنسانية الحاكم والصديق.

ويقرأ المعتمد بن عبّاد تلك الأبيات:

ألا حيّي بالغرب حياً حلالاً
أناخوا جمالاً وحازوا جمالا

وعرّج بيومين «أم القرى»
ونم فعسى أن تراها خيالا

تخيرتها من بنات الهجان
رمكية ما تساوى عقالا

فجاءت بكل قصير العذار
لئيم النجارين عماً وخالا

قصار القدود ولكنهم
أقاموا عليها قروناً طوالا

سأهتك عرضك شيئاً فشيئاً
وأكشف سترك حالاً فحالا

● حزن ابن عبّاد حزناً شديداً لما آل إليه أمر صديقه من خيانة العهد والتنكر للصداقة، وقال:

ـ «أما إنه لو تعرض لي لعفوت عنه بحق الأيام السالفة، ولكنه تطاول على أولادي وزوجتي:

جـراحـات الـسـنـان لـهـا الـتـئـام

ولا يـلـتـام مـا جـرح الـلـسـان».

□ □ □

● ثم يأمر ابن اللبّانة قائد جنده أن يخرج بجيش لجبٍ، وأن يأتي بابن عمّار مقيداً.

ويدخل به ابن اللبّانة إلى مجلس المعتمد ذليلاً مهاناً، جمعت يداه إلى عنقه بقيدٍ من ليف، وعليه جلباب بائع شعير، وجعل المعتمد يطرح السؤال تلو السؤال، ويعدد عليه ما قدّمه له من نِعم، ثم يسأله:

ـ أكذبت عليك في شيء مما قلت يا ابن عمّار؟!

ـ والله ما كذب غيري يا مولاي، ولست أنكر شيئاً مما ذكرت أبقاك الله، ولو أنكرته لشهدت عليّ به الجمادات فضلاً عمن ينطق!!

ـ فماذا؟!

ـ عثرت، فأقل، وزللت فأصفح!!

ـ هيهات يا ابن عمّار، هيهات. إنها عثرة لا تقال!!

ـ أهو القتل يا مولاي؟!

ـ فإن كان؟!

ـ فاقتلني بيدك. فهكذا رأيتك في الحلم تفعل!! وهذا ما كان يردده عليّ الشبح.

ـ لبئس ما تطلب مني. خذوه إلى السجن، حتى أنظر في أمره.

□ □ □

ـ ٩ ـ

ويُسجن ابن عمّار في غرفة بالقصر الذي شهد مجده أيام حظوته عند المعتمد. وطال سجنه، وكثر ما كتب إلى المعتمد من رسائل الاستعطاف حتى كان آخرها:

سجاياك إن عافيت أندى وأسجح
وعذرك أن عاقبت أجلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية
فأنت إلى الأدنى من الله تجنح
حنانيك في أخذي برأيك لا تطع
عدايا ولو أثنوا عليّ وأفصحوا
فإن رجائي إن عندك غير ما
يخوض عدوى اليوم فيه ويمرحوا

أقلني بما بيني وبينك من رضىً
له نحو روح الله باباً يفتّح
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم
فكل إناءٍ بالذي فيه ينضح

- ويرقّ قلب المعتمد لصديقه ويذهب لزيارته في سجنه، وتكون خلوة يتذاكر الصديقان فيها أيامهم الحلوة ولياليهما الصافية، ويبكي كل منهما على صدر صاحبه، ويخرج المعتمد متأثراً بعد أن عقد العزم بقرارة نفسه أن يعفو عن صاحبه، ولم يشر له بذلك صراحةً، ولكنه أوحى إليه بإيحاءات تدل على نيته، وطلب إليه أن يتفاءل خيراً، وأن يكتم أمر زيارته له.

- لكن ابن عمّار يستخفه الطرب، فيكتب إلى صاحب له في القصر بما دار بينه وبين السلطان.

إلا أن حاشية الملوك أكثر الناس حساسيةً لاتجاهات ريح السياسة، وكان الجميع في القصر يدركون أن شمس ابن عمّار قد أفلِت، فذهب ذلك الصديق بالورقة التي جاءته من ابن عمّار وهو في سجنه ليسلمّها إلى ابن اللبّانة ـ الوزير الجديد ـ الذي ذهب هو بدوره إلى المعتمد مصطنعاً الغضب، حيث فاجأ المعتمد بقوله:

ـ يا مولاي، قد جئت أرجو السماح لي بمغادرة إشبيلية!!

ـ لمَ يا ابن اللبّانة؟!

ـ لأقيل نفسي قبل أن تستغني عن خدماتي.

ـ ويحك أيها الوزير! أأنا قلت لك هذا؟!

ـ كلا يا مولاي.

ـ فمن إذن؟!

ـ وزيرك الكبير أبو بكر بن عمّار!!

ـ ابن عمّار في السجن، فكيف جاءك أنه قال هذا؟!

ـ أرسل من سجنه بهذه الورقة إلى بعض أصحابه، يقول فيها إن مولانا قد وعده بالعودة إلى مركزه أقوى مما كان، وعندها فسوف ينتقم من كل أعدائه!! ولا أظنه سينسى يا مولاي أنني جئت به مكبّلاً مهزوماً من مرسية.

ـ صه. صه. فإن لي عينين أقرأ بهما. إذن فلم يحسن حتى أن يحفظ سره وسري.

□ □ □

● يقوم المعتمد وبيده هراوة حديدية مسرع الخطى وقد استبدّ به الغضب والحنق حتى إذا كان في غرفة السجن صاح:

ـ يا ابن عمّار، هل أخبرت أحداً بما كان بيني وبينك عندما زرتك هنا؟!

ـ حاشا أن أفعل يا مولاي!!

ـ ولكن بهذا أخبرني من لا أتهم، ولا أشك في صدقهم!!

ـ كذبوك يا مولاي. أقسم برأسك إنهم كذبوك.

ـ أولم تكتب إلى بعض أصحابك أنني عفوت عنك، وسأعيدك إلى الوزارة؟!

ـ يا مولاي، أقسم بحبي لك إنني لم أفعل ما يفترون به عليّ.

ـ فما تقول في هذه الورقة وهي بخطّك والكلام كلامك؟!

فينهار ابن عمّار باكياً.

ـ أقلني يا مولاي، إنها لآخر زلة!!

ـ والله ما أقيلك أبداً. لقد رأيتَ في منامك أنك تموت بيدي، وقد صدق هاتفك أيها الخبيث.

وفي غضبٍ جارف هوت الهراوة الحديدية المرة بعد الأخرى على رأس ابن عمّار، ولم يكفّ المعتمد عن الضرب العنيف، وكأنه قد انتابته حالة هستيرية وهو يضربه، إلا بعد أن صار السجين جثةً هامدة.

وحين أفاق المعتمد بن عبّاد على نفسه، انكفأ على جثة صديقه، وأخذ يبكي وينشج، وفقدت الأندلس شاعرها الكبير أبو بكر بن عمّار الذي قتلته هواجسه والعقد المترسبة في داخله، حيال صديقٍ أحبه، وأخلص له الودّ.

□ □ □

غوستاف فلوبيـر.. رائد الواقعيـة (مدام بوفاري)

● يلقّبونه الآن برائد المدرسة الواقعية، رغم أنه عاش أنضج فترات عبقريته في العصر الرومانسي، أيام كانت الذاتية المريضة في كل أوروبا هي معيار الفنان، الأيام التي وضع فيها عشرات الكُتّاب والموسيقيين والشعراء من كل بلاد أوروبا، قواعد ومبادئ الرومانسية القائمة على النرجسية الموغِلة في عبادة الذات، واللذّات أيضاً!

أما هو، فلا نعرفُ كاتباً من كُتّاب تلك الفترة كان أعفّ منه في تلك الأبواب المغرقة في الذاتية الهاذية.

● ولكنه كان من البراعة والإخلاص لفنّه، بحيث يفصل فصلاً تاماً بين تفكيره بعمله وبين رغباته. لم يكن معروفاً بالشهرة الواسعة في باريس، ولكن بعد أن خرجت «مدام بوفارى» من مراعف قلمه العبقري وصار مشهوراً، حتى لعبت أفاعي

المواجهات التي تعرض لها في حياته التي صادفها بعد «مدام بوفاري».

كان يواجه ما يتعرض له من أحداثٍ بحكمة وروية، وبالعنف أحياناً، لدرجة أنه كتب يوماً إلى حبيبته:

«دعيني يا لويز أحبك بأسلوبي الخاص، بما سمّيتِه ذات مرة في لحظة رضا، أصالتي الفنية. لا ترغميني على ما لا أحب. هبي لي الوقت الكافي لأكتب، فحياتي كلها للكتابة، ثم لك!! للكتابة أولاً إذا كنت ترينني ساذجاً وبدائياً وسخيفاً ومملاً كما تقولين عني في كل صالونٍ فنّي. باستطاعتك أن تجعليني ذكياً وحكيماً ومثيراً إذا أعطيتني الفرصة الكاملة للقراءة والخلوة بنفسي!! كل كاتبٍ يا لويز في حاجة إلى هذه الخلوة!! ماذا تخسرين إذا وهبتني ثلاث ساعاتٍ كل يوم من الخلوة التامة بنفسي؟!».

- أما كيف ولدت رائعته «مدام بوفاري»، ففي الصفحات التالية تجدون الجواب.

□ □ □

ـ ١ ـ

الأفكار العظيمة للأعمال الأدبية الخالدة لا تبدأ من فراغ، كلها تقريباً لها جذور عميقة في أرض الحقيقة. ولنقرأ المشهد الأخير الذي يصور حالة إيما بوفاري قُبيل انتحارها.

□ □ □

ـ نارٌ في جوفي. إني أحترق. أحترق.

ـ دعيني أُسقيكِ هذا الدواء. يا إلهي! لقد تجرعتِ من السم ما يكفي لقتل فيل!!

ـ لا تحاول إنقاذي بما لديك من أدويةٍ أيها الصيدلي. المهم أن أموت بكرامة. احملوني إلى الداخل، احملوني إلى فراشي.

وعندما حضر زوجها أمام عددٍ من أقربائها وأصدقائها، قالت بإعياءٍ شديد:

ـ أرجوكم، دعوني الآن وزوجي. لا تفسدوا خلوته النادرة معي.

ـ بالله لِمَ فعلتِ ذلك بنفسك يا إيما؟ لماذا؟ لماذا؟

ـ حتى الآن لا تعرف لماذا يا شارل؟

ـ إني أغفر لكِ كل شيء. عيشي يا إيما، عيشي.

ـ عجباً!! أنت تغفر لي؟ أنت الزوج المجروح تغفر لي، بينما الناس لا يغفرون؟ حتى الذين لم أمسّهم بشرٍّ لا يغفرون.

ـ لأني أحبك رغم كل شيء؟

ـ ماذا؟ تحبني يا شارل؟ نفسيَ الشريرة التي ألقت بي إلى المهالك؟ نزواتي الطائشة التي مرّغت كرامتك في الوحل؟ بعد ذلك تحب، وتغفر!

ـ إيما، لعل ذلك لأني أحسّ بالخطأ الذي ارتكبته أنا الآخر. لقد اختطفتك من باريس، من الأنوار والسهرات والمجتمع الذي لا ينتهي نهمه للهو والمتعة، وجئت بكِ إلى هذه القرية. اعتقدت لغبائي أن القناعة تكفي، والهدوء بهجة. كنت أظن أن حبنا يعوِّض كل شيء.

ـ ثم جاء دور رودولف وليون وأندريه وميشيل، حتى صبي الصيدلية!

ـ لا تعذبي نفسك بالكلام!

ـ أسمع نباح كلب! هل تسمعه مثلي؟ يقولون إن الخاطئة تسمع نباح كلبٍ أسود ساعة موتها؟ شارل، أمعك مرآة؟ أريد أن أرى كيف يكون وجه الخاطئة وهي تموت. اذهب وهات لي المرآة يا شارل. (تتألم) الألم يمزق أحشائي. يالتعاستي! لم أهب أحداً لحظةً واحدةً من السعادة الحقة. حتى لنفسي (في احتضار) شارل، عد. عد. شارل، إنني!! إنني... !!

□ □ □

● لا شك أن القارئ قد أدرك أننا اقتطعنا المشهد الأخير لحياة (مدام بوڤاري)، فكل ما فعله (غوستاف فلوبير) أنه صوَّر بقلمه الفذ ومن واقع الحقيقة، ما حدث لإيما زوجة الطبيب الهزيل الشخصية دكتور شارل بوڤاري..

● تُرى، كيف كانت حقيقة هذه الشخصيات الروائية على أرض الواقع قبل أن يقتنصها فلوبير ويرسمها على تلك الصورة الفنية الرائعة، ويضيفها إلى قائمة النماذج الإنسانية الفريدة؟

بعد نجاح رواية (مدام بوڤاري) صار فلوبير المؤسس للواقعية، إذ إنه خرج عما كان مألوفاً أيام المدرسة الرومانسية، والتي كان بطلها بلا منازع (ڤيكتور هوغو).. فلوبير صار موضع اهتمام النقّاد والصحفيين والقراء.

□ □ □

في بيته الريفي المتواضع في قرية (ري)، نفس القرية التي وقعت فيها أحداث روايته الشهيرة، كتب في دفتر مذكراته ملاحظات عُثر عليها في ما بعد، صوَّر فيها تلك الوقائع التي جمعها لكي يبدأ بروايته الشهيرة.

□ □ □

ـ إذا نظرت من نافذة بيتي، رأيت صيدلية السيد (فارمير). لا تزال كما هي منذ الحادث الأخير، وقد كُتب عليها صيدلية السيد (هومار) الذي سمّيته في روايتي (فارمير)، حيث كان لا بد لي من أن أغير الأسماء حتى لا أقع تحت طائلة القانون، وأتعرض للتعويضات، فغيّرت الأسماء كلها تقريباً، فدكتور (جورج يوجين ديلمار) أصبح (شارل بوڤاري)، مدام (دلفين ديلمار) صارت (إيما بوڤاري). وهكذا يجب أن يكون الكاتب حريصاً على تجنب المنزلقات القانونية.

فأنا مثلاً كنت على معرفة دقيقة بمدام (دلفين)، ولا أُنكر أنها حاولت في يوم من الأيام أن تضمني إلى قائمة عشاقها. صحيح أنها جميلة ورائعة، طفلة غضّة، في السابعة عشرة من عمرها، لعوب، أنيقة، ذات دلال وجاذبية طاغية، ولكنني كنتُ أفكر فيها كبطلةٍ لرواية سوف أكتبها يوماً ما، بدلاً من أن تكون عشيقة.

في أول الأمر كنتُ أنوي أن أجعلها قصةً عاطفية من طراز جديد، ثم حدث أن ماتت مدام (دلفين ديلمار) في الظروف التي بينتها في روايتي، فعدلت عن القصة العاطفية الرومانسية إلى القصة الواقعية. كنتُ قد انتهيت من قصةٍ لي بعنوان (البائسون)، قرأتها طوال ليلةٍ كاملة على صديقي الناقد بوليه، فأمسك بالمخطوطة وقذف بها من النافذة، وصاح:

ـ هراء. وحدة الموقف ضائعة! البدايات لا تؤدي إلى الخاتمة الطبيعية! التدرج المنطقي للصراع معدوم! يا فلوبير ابدأ من جديد.

ـ أبدأ بماذا؟ ليس في ذهني غير هذه التي ألقيت بها إلى العدم. سأنزل إلى الشارع وأجمع الأوراق التي ألقيت بها لكناسي القمامة.

ـ دعها لكناسي القمامة، فإنها لا تصلح حتى لهذا. يجب أن تعدل تماماً عن كتابة أي موضوع غامض ليس في ذهنك صورة واضحة عنه. ألم تدرك يا غوستاف أنك عاشق للحوار

العاطفي ذي الطابع الغنائي؟ يجب أن تعدل عن هذا اللون على الفور. اعدل عنه إلى الأبد. خذ موضوعاً من الواقع، من الأحداث التي تقع لكافة الطبقات الاجتماعية، ثم اكتب دون تكلف.

ـ أعترف أني مقيد بالحوار العاطفي ذي الطابع الغنائي، ولكن ماذا أفعل؟ لا أعتقد أن في قدرتي التخلص منه!

ـ بل تستطيع.

ـ كيف ؟

ـ إذا اخترت فكرةً واقعية، أرغمتك هذه الفكرة ذاتها على التخلص من طابعك العاطفي السخيف. اسمع، لماذا لا تكتب عن حياة مدام (دلفين ديلمار)؟ كلنا يعرف أيَّ حياةٍ كانت تحياها!! وكيف جعلت من زوجها التافه تيساً بقرون!! شخصية مدام ديلمار تستحق أن تكتب عنها عملاً ممتازاً. لا تقل أنك من عُشاقها.

ـ لا، لست في القائمة يا عزيزي. تمنيت ذلك يوماً ثم هربت.

ـ حسناً، اكتب عن مدام دلفين. لو أنني صاحب موهبة مثلك لما توانيت لحظةً عن كتابة عملٍ عظيم عن حياة هذه المرأة!

ـ ماذا لو قاضاني زوجها؟ هل تريد أن أسجن عشر سنوات بتهمة التشهير بالمواطنين الشرفاء؟

ـ شرفاء حقاً!! هيا يا عزيزي غوستاف، فكر بما قلت لك، ثم نلتقي بعد ذلك لتقرأ عليَّ ما كتبت.

□ □ □

ـ ٢ ـ

وبدأ غوستاف فلوبير في كتابة قصة حياة مدام (دلفين ديلمار) التي سمّاها (إيما بوفاري)، وإن كان قد عدَّل في خاتمة الرواية بعد موتها. وعندما شارفت الرواية على نهايتها، زاره السيد رودولف، وهو أحد الأسماء في قائمة عُشاق (مدام بوفاري)، وكان قد أدى دوراً مؤثراً في مجرى حياتها. هذا الرجل فاجأ فلوبير بالقول:

ـ إذا نشرت هذه القصة فسأقاضيك؟

ـ لن أخدعك يا سيد رودولف كما خدعت أنت صاحبتك المسكينة، لهذا فإنني أقول لك: لن تُنشر رواية (مدام بوفاري) إلا بعد موتك!!

ـ إنك مُنصف يا سيدي. ولكن ألا يمكن أن نصل إلى اتفاق ما؟

ـ كيف؟

ـ انشر الرواية وقت ما يحلو لك. في حياتي أو بعد موتي. في حياتي أفضل بالطبع، على أن يكون لي ٢٠٪ من أرباحك!!

ـ (في حدة) أيها السيد، تفضل بمغادرة المنزل. لقد حاولت أن أصورك يا سيدي في الرواية نذلاً حقيراً، ولكنني الآن أرى أنني لم أوفق في رسمك بما فيه الكفاية.

□ □ □

لم يحاول فلوبير قراءة روايته على صديقه الناقد (بوليه) حيث كتب في مذكراته:

ـ كنتُ أشعر بأنني كتبت عملاً كبيراً، فلم أشأ أن أعرضه لهواة تحطيم الأدباء، وحفاري قبور الأعمال الفنية، وذهبت بالمخطوطة من فوري إلى أحد الناشرين المعروفين، فبادرني بالقول:

ـ حسناً يا سيد فلوبير، عد بعد ثلاثة أشهر.

ـ ثلاثة أشهر؟ هذا وقتٌ طويل جداً!

ـ بالله عليك!! أين أجد الوقت الكافي لقراءة (١٧٨٨) صفحة بهذا الخط الرديء؟! لنجعل المدة شهرين. عد بعد شهرين!

□ □ □

● ولما عدت له بعد شهرين:

ـ لي اعتراض أولي على اسمها. (مدام بوڤاري) هذا اسم غير مشوِّق. ابحث لنا عن اسم آخر إذا لم ترض عن الاسم الذي أقترحه عليك.

ـ وما الاسم الذي تقترحه؟

ـ (قلوب في العاصفة).

ـ أليس هذا الاسم عاطفياً أكثر من اللازم؟ إنه لا يتفق مع الاتجاه الواقعي للقصة!!

ـ وهناك أمر آخر يا سيد فلوبير. المعالجة تحتاج إلى بعض التعديلات. اطمئن، لن أطلب إليك أن تقوم بها بنفسك. سأعطيها لبعض أعضاء لجنة القراءة المختصين. إنهم خبراء في هذا الباب كما تعرف، وأنا لا أريد أن أنشر شيئاً يتسم بسذاجة الاسلوب، و... و...

ـ سيدي، هات المخطوطة.

□ □ □

ذهبت بروايتي إلى إحدى المجلات الأسبوعية، واتفقت مع محررها على نشر القصة بشكل حلقاتٍ أسبوعية نُشر منها حلقتان. في الأسبوع الثالث فوجئت بتعديلاتٍ رهيبة على ما كتبت. أسرعت إلى المحرر.

□ □ □

ـ آسف جداً يا سيد فلوبير، الكثير من الفقرات لا تتفق مع سياسة المجلة الأدبية، أنت متحرر أكثر من اللازم!!

ـ سيدي، إن مجلتك أكثر المجلات الأدبية تحرراً!!

ـ إنك سبقتنا في هذا الباب بقرنٍ كامل يا سيد فلوبير!

ـ إني أمنعك من نشر الرواية، إذا كان في نيتك تعديل حرف واحد مما كتبت.

ـ عزيزي فلوبير، أرجوك، قدّر موقفي. لم يجسر أحد قبلك على وصف علاقة الزوجة الخائنة بزوجها بمثل هذه، هذه الواقعية. خذ المخطوط وأجري بعض التعديلات. يا الهي! لا تنسَ يا سيدي أن مجلتي يقرأها رجال الدين والمتزمتون، كما يقرأها الأدباء والمتحررون!!

ـ آسف، لن أعدّل حرفاً واحداً.

ـ أرجوك، إنك لا تعرف حرج موقفي. عندي آلاف الخطابات من القراء يطلبون فيها الاستمرار في نشر روايتك، وعندي أيضاً هذا الخطاب.

ـ ممن هذا الخطاب ؟

ـ ألا ترى رسم القصر الإمبراطوري على المظروف؟ إنه من السكرتير الخاص لجلالة الإمبراطور نابليون الثالث، يقول فيه: إن الإمبراطور مزَّق العدد الذي نُشرت فيه أول حلقة، وقذف به في وجه السكرتير. في نهاية الخطاب يهدد بإغلاق المجلة إذا استمر نشر القصة.

ـ ماذا تنوي أن تفعل؟ الحلقة الرابعة في ماكينة الطباعة الآن. هل غيّرت من كلماتي ؟

ـ بالطبع. أرجوك، قدّر موقفي.

□ □ □

ولم يُقدر فلوبير الموقف، وكتب مقالةً في إحدى الصحف اليومية:

ـ لظروف لا أملك الحكم عليها، حدث تعديل لا أُسأل عنه في الحلقتين الثالثة والرابعة من قصتي (مدام بوفاري). هذا التعديل يُسأل عنه الناشر وحده. وعلى هذا فإني أرجو قُرائي الأعزاء أن يعتبروا أني بريءٌ تماماً من هذا العبث بروايتي. وسألجأ إلى القضاء لحماية حقوقي الأدبية.

□ □ □

ـ ٣ ـ

ولكن فلوبير هو الذي قُدم إلى المحاكمة بتهمة **«إفساد أخلاق الناشئة، والتهجم على تقاليد الأُسر الشريفة»**.

ودخلت نقابة الأطباء مطالبةً بتعويض مدني كبير لما تعرض له الطبيب ـ زوج إيما ـ بالمساس بشرفه، وقامت قائمة الأدباء حيث هبوا جميعاً دون استثناء للدفاع عن غوستاف فلوبير، حتى عدوه اللدود الشاعر لامارتين كتب في إحدى الصحف:

ـ إنها لإهانةٌ لشرف الأدب والأدباء في بلادنا، أن يُقدَّم مؤلف (مدام بوفاري) إلى المحاكمة، لأنه كتب كتاباً سيكون في يوم ما حجر الزاوية في الأدب العالمي الحديث.

وكتب المفكر والأديب بودلير:

ـ أحبائي الأطباء، إننا لم نمنعكم من الإمساك بالمبضع لفتح بطوننا وصدورنا، ثم إلقائنا في القبور. لماذا لا تدعوننا نُعالج عقول الناس وضمائرهم بأقلامنا.

وبرأت المحكمة ساحة غوستاف فلوبير، وقامت جماعة الأدباء الأحرار بنشر (مدام بوڤاري) على نفقتها في كتاب كبير لأول مرة، وكان ذلك في عام (١٨٥٧)، لتغدو تلك الرواية بداية الانطلاقة الأولى للقصة الواقعية في الأدب العالمي.

□ □ □

ـ ٤ ـ

الروايات التي كتبها فلوبير قبل (مدام بواري) مثل: **(غِواية القديس أنطوان)**، وغيرها كانت كلها متواضعة، خافتة الأحداث. ولكن على ضوء نصيحة صديقه الناقد (بوليه) بدأ بالشروع في كتابة رواية واقعية تتناول حياة (دلفين ديلمار) السيدة التي انتحرت، وكان غوستاف فلوبير قبل أن يشرع في كتابتها، قد سافر إلى باريس ليلتقي بوصيفة السيدة ديلمار، التي تُعتبر أقرب الناس إليها، وأكثر الناس معرفةً بدقائق حياتها. وعندما التقاها بادرته بالقول:

ـ إنني لا أحب يا سيدي أن أتكلم كثيراً عن تلك الأحداث الحزينة. لقد كنتُ أحمل لسيدتي مدام ديلمار إعزازاً كبيراً، وتقديراً غالياً. ولولا أن والدك الراحل الدكتور فلوبير، كان

استاذاً لزوجها دكتور (ديلمار)، لما استعدت معك أحداث ذلك اليوم الحزين.

ـ لستُ أريد أن أعرف تفاصيل يوم انتحارها فحسب يا (ڤيليسيه)، بل تفاصيل حياتها كلها!.

ـ لماذا ؟

ـ لأني ببساطة أريد أن أكتب قصةً عن حياة سيدتكِ!

ـ إذاً فلن أتكلم!

ـ لماذا بحق السماء؟

ـ لأنكم معشر الصحفيين تجنون أرباحكم بالعمل على فضائح الناس!

ـ لست صحفياً، بل أنا روائي.

ـ هل تعدني يا سيد فلوبير بأن تُنصف سيدتي الراحلة؟

ـ إذا كانت تستحق الإنصاف، فسوف أفعل!

ـ من المؤسف يا عزيزي أنها هي لم تحاول قط أن تُنصف نفسها. اندفعت في طيشٍ وتهورٍ في تيار عاطفتها الجياشة، حتى أوردتها مورد الهلاك! حسناً، ماذا تريد أن تعرف عنها؟

ـ كل ما لديكِ!

□ □ □

ـ ٥ ـ

● دلفين ولدت عام (١٨٢٢) في قرية كريون. . كان أبوها من أعضاء المجلس المحلي. لم يكن ثرياً كما كان يريد أن يُدخل في روع الناس. كان يستدين من أقاربه في باريس ليكفل لبناته وأكبرهن دلفين حياةً مرفهةً سعيدة.

ـ هل حصلت دلفين على تعليمٍ مناسب؟

ـ كيف لا وقد كان أبوها حريصاً على أن تحصل في النهاية على زوجٍ مناسب؟ كان يريد أيضاً أن يتباهى في المناسبات الاجتماعية بثقافة ابنته وذكائها، وقدرتها على عزف مقطوعات شوبان وشوبرت على البيانو، وبراعتها في رقص الفالس، وإنشاء الشعر العاطفي، وترديد بعض فقرات من مسرحيات موليير، وروايات شكسبير.

ـ وأين تعلمت هذا كله ؟

ـ في دير قرية كريون.

ـ وأنتِ متى التحقت بخدمتها يا فيليسيه؟

ـ بعد خروجها من الدير صرت وصيفتها، وأعفتني أمها من العمل في البيت، وخصصتني لخدمة دلفين دون سواها من البنات. .

ـ وكيف كانت دلفين قبل أن تتزوج؟

ـ قبل أنْ تتزوج، وبعد أن تزوجت، يا سيدي كانت رقيقةً عطوف، تخرج الكلمات من فمها هادئة، معطرةً كأنها الزهور، فتود لو تجمعها في سلةٍ أنيقة، لشدّ ما كنتُ أحبها!

ـ وهي؟ أكانت تحمل لكِ نفس الإعزاز؟

ـ أجل يا سيدي، كنتُ مكمن سرها. والحق أنه لم يكن أحد يعرفها دون أن يحبها، لأنها كانت تحب الناس جميعاً. أحسب أنها كانت واقعة في حب الحب نفسه، وليس حب إنسان بعينه. كانت تقرأ كثيراً، وأكثر قراءاتها في الشعر والروايات العاطفية، شديدة الولع بالموسيقى، تعشق من كل قلبها وقائع الغرام في بلاد الشرق الأقصى وجزر المحيطات المجهولة.

ـ تلك كانت موجة الرومانسية في أيامها، بعد أن نشر سان بيير روايته (بول وڤيرجيني)، كانت إذاً تعيش في الخيال؟

ـ ولكنها بعد أن تزوجت حاولت جادةً أن تتأقلم مع حياتها الجديدة في قرية ري التي انتقلت إليها مع زوجها.

ـ وكيف كان الدكتور ديلمار؟

ـ كان يكبرها بخمسة عشر عاماً، ورغم أنه كان طيب القلب، لا يتأخر عن تلبية أي طلب لها، فإنه لم يكن عاشقاً بالمعنى الذي كانت تتمناه سيدتي دلفين، غير أنها لم تفكر قط في خيانته، وقررت أن تعيش في القرية كما تعيش بقية النساء.

وأذكر أنها قاومت بعزيمة صادقة محاولات الشاب هنري ستانسيلاس للتقرب منها، وكان شاباً وسيماً، أنيقاً، ويعمل في مكتب موثق عقود القرية. كان يتردد على دارنا عارضاً خدماته باستمرار على الدكتور وزوجته. سمعته إحدى المرات يقول لها:

اسمحي لي يا مدام ديلمار بأن أقدم لكِ بعض مجلات الموضة التي وصلتني أخيراً من باريس.

ـ أشكرك يا سيد هنري. لم تعد بي حاجة إلى هذه المجلات. لقد قررت أن أعيش في هذه القرية كما تعيش ربة البيت الحقيقية. لا حفلات ولا موضة.

ـ أهذا معقول يا سيدتي؟! من لها مثل جمالك لا . . .

ـ (تقاطعه) معذرةً يا سيدي إذا قلت إن هذا قرار نهائي!!

ـ سيدتي، لقد جئت في الحقيقة إليك لكي أقول شيئاً.

ـ وما ذاك يا سيد هنري؟

ـ كنت أريد أن أقول إنه من اللحظة التي رأيتكِ فيها، منذ الجلسة التي تكلمنا فيها على الكتب والقراءة وأحلام الغروب، وأنتِ أعني طيفك يا سيدتي، يحيط بي من كل مكان، أراه أمامي في الصباح، وأراه أمامي في . . .

ـ (مقاطعةً) هذا كلام لا يليق إلا بالأطفال يا سيد هنري!

ـ لو تكرمتِ بالإنصات إلى ما أريد أن . . .

ـ سيد هنري، لا فائدة. أنا امرأة متزوجة قُدِّر لها أن تكون ربة بيت. ولا أطمح إلى أكثر من هذا. وإنني أحترم زوجي. ألا يكفي هذا كي توفر على نفسك كل ما تريد قوله؟

ـ نعم. يكفي، يكفي جداً. وداعاً يا سيدتي!

ـ ولماذا الوداع؟ ستزورنا كعادتك، ونجلس في أحاديثنا العادية دون أن نعود إلى مثل هذا الحديث بعد الآن!!

ـ (منفعلاً) سيدتي، منذ اللحظة التي دخلتِ بها حياتي وأنا...

ـ (تقاطعه) سيد هنري، إنني لم أدخل حياتك قط!!

ـ معذرةً، إنِ ألفاظي طائشة. كنتُ أريد أن أقول لنني سأحتفظ في ركنٍ من قلبي بذكرى هذه الأيام التي قضيتها قربكِ. لن يكون من السهل نسيانها. سأسافر إلى باريس. وداعاً يا سيدتي. وداعاً يا دلفين.

□□□

ـ ٦ ـ

ـ أرأيت يا سيد فلوبير إلى أي حد قاومت مشاعر هذا الفتى الوسيم الذي ضحى بمستقبله، واستقال من مكتب الموثق كي يتمكن من نسيانها بالسفر إلى باريس ؟!

ـ تريدين القول إنها لم تفكر قط في خيانة زوجها ؟

ـ نعم. في تلك الفترة على وجه الخصوص، كانت تحاول

جاهدةً ألا تخون زوجها. وأذكر أنني دخلت عليها بعد خروج الفتى هنري، فوجدتها تبكي بكاءً خافتاً، فقلت لها: سيدتي، ماذا حدث؟

ـ لا شيء يا ڤيليسيه. لا شيء!! إنما هي أعصابي قد انهارت فجأةً بلا مبرر.

□ □ □

ـ ألم يكن زوجها دكتور ديلمار يقضي معها وقتاً مناسباً يا ڤيليسيه؟

ـ وكيف يتمكن من ذلك وعيادته تشغل كل وقته؟! بالإضافة إلى زيارة البيوت في القرى المجاورة؟ كان يُجهد نفسه في سبيل أن يوفر لها حياةً مرفهة!!

ـ أكانت مبذرة؟

ـ كانت هكذا وهي في بيت أبيها. أما بعد أن تزوجت فأدركت قلة دخل زوجها. فقد كانت مقتصدة في نفقاتها. كان في استطاعتها أن تطلب العون من أبيها وأمها كي تحافظ على أناقتها السابقة، وتشتري الغالي من الثياب كما كانت تفعل قبل الزواج، ولكنها قررت أن تتأقلم مع حياتها الجديدة دون شكوى. وقد حدث أن جاءها ذات يوم السيد تريستان بائع الثياب المتجول.

□ □ □

ـ إن ما معي يا سيدتي سيدخل السرور إلى نفسك هذه المرة.

ـ إنك دائماً تحمل بضائع غالية الثمن يا سيد تريستان!

ـ من قال هذا يا سيدتي؟ الأجدر أن تقولي إنني أبيع بضاعةً ثمينة. وأقسم إنني أبيعها بسعر التكلفة. إليكِ اذاً هذا الشال المراكشي الجميل. إنه. . .

ـ (تقاطعه) شكراً. لا حاجة لي به!

ـ إنه ليس غالي الثمن يا سيدتي؟

ـ ليس هو الثمن الذي يدفعني إلى الرفض، إنما هي البضاعة نفسها. قد يحتاج هذا الشال المراكشي الفاخر سيدةً ترتاد الحفلات والمجتمعات، أما أنا. . .

ـ لندع الشال إذاً. خذي هذه الدانتيلا. هذه الياقات المطرزة، إنها توضع على أي ثوب فترفع من قيمته. هذه القطعة من بروكسل لا أقدمها إلا إلى عميلاتي الجميلات.

ـ إنني لست في حاجة إلى شيء مما معك يا سيدي. قد تكون علمتَ أنني من سيدات الحفلات والمجتمعات في باريس. أما هنا في هذه القرية، فليس في نيتي أن أفعل ما كنتُ أفعله هناك!!

ـ كما تشائين يا سيدتي، وسأكون دائماً تحت أمرك إذا احتجتِ إلى شيء مما أبيع.

□ □ □

ـ عاشت إذاً في القرية مع زوجها عيشةً راضية ؟ إذاً متى حدث التغير في حياتها، لتختتمها بهذا الشكل المأساوي ؟

ـ عندما دخل لويس كامبيون الذي كانت سيرته على كل لسان، ولويس هذا كان مولعاً بمصادفة الممثلات وراقصات البوليار، وكان ثرياً مترفاً يعيش في دارٍ أنيقة. أرسل إلى سيدتي باقة وردٍ جميلة دون سابق معرفة، فطلبت من حامل الباقة أن يُلقي بها.

ـ لماذا ؟

ـ لأنها كانت تخشى أن تلوك الألسن سمعتها!

ـ وهل التقاها في ما بعد ؟

ـ نعم، كانت سيدتي تشتري بعض العقاقير من صيدلية لافوس فدخل لويس كامبيول هذا وخصَّ سيدتي بتحيةٍ رقيقة.

□ □ □

ـ ٧ ـ

ـ علمت أنكِ أهملتِ باقة الورود التي أرسلتها إليكِ! لماذا يا ترى ؟! لا بد أنهم تحدثوا عني بالسوء. هل رسموا لي صورةً بشعةً مخيفة إلى الحد الذي دفعكِ إلى ألا تستقبلي باقة أزهاري ؟

ـ إنك تبالغ يا سيدي.

ـ لستُ مبالغاً. إن ما يقال عني لا يبتعد عن الواقع، فإن لي من الحماقات أكثر مما بلغكِ؟

ـ يبدو لي أنك لست سعيداً أيها السيد. ولذا ترتكب كل تلك الحماقات لتبحث فيها لنفسك عن السعادة!

ـ صدقتِ. من الغباء أن يبحث المرء عن السعادة باتخاذ ذلك الطريق!

ـ بعض الناس يرون أن الحماقات ما هي إلا محاولة ليبحثوا فيها عن سعادتهم!

ـ وأنتِ من هؤلاء يا سيدتي؟

ـ يا سيدي ما يميزنا نحن النساء حرصنا الشديد على ألا نقع في المهالك!

ـ إذاً فقد صدق حدسي.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنني قلتُ لنفسي حين رأيتكِ لأول مرة: ها هي سيدة رائعة الجمال، محترمة، ممزقة بين واجباتها اليومية السخيفة، ورغبتها الصادقة في التحرر والانطلاق من تلك القيود.

ـ ولماذا قلتَ لنفسك هذا؟

ـ لأننا متشابهان يا مدام ديلمار بنفس القدر، وربما بنفس المصير أيضاً!

ـ ولكنكَ على الأقل لا تعرف مرارة اليأس يا سيدي؟

ـ لماذا؟ . . لأن الابتسامة دائماً على شفتيَّ؟ . . لو رأيتني يا سيدتي في خلوتي بعيداً عن الناس لما قلت هذا؟ لست أدري ماذا يحل محل الابتسامة عندئذ. ربما صورة لليائس من حياةٍ أهدرها دون هدفٍ أو غاية، وربما صورة اللاأمل في حياةٍ جديدة، أنفق فيها مخزون القلب من أجل هدفٍ أسمى وأعلى من مجرد حماقات تافهة. (فترة صمت). . . وأنت يا مدام ديلمار؟

ـ أنا؟ أنا ماذا يا سيدي؟ أنا امرأة متزوجة، عليها واجبات مقدسة تجاه زوج رقيق، عطوف. يا إلهي! كيف تركتك تتحدث على هذه الصورة؟ هيا يا ڤيليسيه! هيا!!

□ □ □

ـ يبدو من اضطراب سيدتكِ المفاجئ أنها وجدت في نفسها ميلاً شديداً إلى لويس كامبيون!!

ـ أجل يا سيدي. وكانت تلك المقابلة العابرة في الصيدلية هي بداية مأساتها الحقيقية.

□ □ □

واسترسلت وصيفة السيدة ديلمار بسرد وقائع وخصوصيات

سيدتها، ووقفت أمام عشاقها واحداً تلو الآخر، مبينةً خصائص كل منهم.

وكيف أن سيدتها صارت مدمنةً شبقَ الخيانة، ضاربةً عُرض الحائط بكل ما كان سائداً من محرمات لا يُقرها المجتمع، بل لا يقرها قانون الأخلاق الذي اعتاده الناس في القرية وفي المدينة، حتى صارت مدام ديلمار مضرب الأمثال بالتهتك والخيانة، ولكنها رغم كل هذا كانت سيدةً رقيقةً وجميلة، ومن أكثر الناس طيبةً، فختمت حياتها بالانتقام لنفسها من نفسها.

□ □ □

ـ ٨ ـ

ولم يكتفِ غوستاف فلوبير بما أفادت به وصيفة السيدة ديلمار، بل ذهب إلى القرية يستطلع مجريات الأحداث التي تتعلق بتفاصيل حياة بطلته، ففي الدوائر الرسمية كالشرطة والمستشفى اطلع على التقرير الآتي:

«يوم السادس من مارس (١٨٤٨)، انتحرت في قرية ري بنورمانديا، سيدة في السادسة والعشرين من عمرها بتعاطي كمية كبيرة من الزرنيخ».

ولما أخذ غوستاف فلوبير يتصل بجيرانها ومعارفها، قالت له إحدى السيدات:

* إن حكاية المسكينة دلفين ديلمار ليست من الحكايات التي

يجب أن يسمعها الصغار، أو الفتيات اللاتي على وشك الزواج. إنها حكاية محزنة، حكاية امرأة عاطفية زوجوها برجلٍ يكبرها بعشرين عاماً، بارد العاطفة، قليل المعرفة بما تتوق إليه قلوب النساء اللواتي يعشقن الشعر والموسيقى.

* وقال قسيس القرية لفلوبير:

ـ في رأيي أن دلفين ديلمار لقيت جزاءها موفوراً. يا إلهي! ماذا جرى للدنيا؟ وماذا كانت تريد هذه السيدة أكثر من الذي حصلت عليه؟ زوجها رجل رقيق، كان يكدّ ليل نهار في عيادته، وفي زيارته للمرضى في بيوتهم بالقرية وفي القرى المجاورة أيضاً كي يحقق لها حياةً سعيدة مرفهة، ومع ذلك تلفتت إلى العشق المحرم مع الرجال!! لم يكن من الكياسة أن تنشروا قصة انتحارها. إن هذا يشجع بناتنا على الفساد!

□ □ □

وقد صوَّر غوستاف فلوبير كل تلك الوقائع وغيرها بقلمه الرشيق، فكانت (مدام بوفاري) روايةً شكلت المفصل ما بين الرومانسية التي كانت سائدة، والواقعية التي انتشرت بعد (مدام بوفاري).

وحين سُئل فلوبير عن الشخصية الحقيقية لبطلة روايته قال:

ـ إيما بوفاري. إنها من ابتكارات خيالي الخصب، ونتاج عبقريتي الفنية. إيما بوفاري هي أنا.

فتصدى له النقّاد وأولهم صديقه بوليه حيث كتب:

ـ «إن فلوبير يكذب بوقاحة، وينسى أن الأحياء الذين يعرفون أحداث القصة الحقيقية يستطيعون الكلام. فقد عاشت السيدة التي صورها غوستاف فلوبير في روايته باسم (مدام بوڤاري) في قرية ري التي كان والده الدكتور جلوفاس فلوبير يمارس فيها مهنة الطب.

أحداث الرواية كلها وقعت على أرض الحقيقة، ولم يفعل فلوبير أكثر من أن أعطى الشخصيات الحقيقية أسماءً جديدة. فـ(دلفين ديلمار) صارت (إيما بوڤاري)، زوجها (يوجين ديلمار) صار (شارل بوڤاري)، الصيدلي (لافوس) صار (هومييه). الشخصية الوحيدة التي لم يغير اسمها هي يليسيه وصيفة دلفين. ومن يرد أن يكشف ادعاءات فلوبير، فليس عليه إلا أن يزور قرية ري، ويقابل الناس هناك فيرووا له الحقيقة كاملة».

□ □ □

وقد أنكر غوستاف فلوبير كل ذلك لأسباب كثيرة أهمها أن لا يقع تحت طائلة القانون بالتعريض لحياة أُناس يعيشون بالقذف، فأصرَّ على أن كل شخوص روايته (مدام بوڤاري) هم من وحي خياله، ولكنهم ليسوا من خارج هذا الكوكب، بل هم يعيشون في صلب المجتمع الذي يعيشه.

ثلاثة ملامح من حياة دوستويفسكي!!

عقدة أوديب!!

ـ لولاها لما عرفت كيف أكون قارئاً. كانت تقرأ لي كل شيء يصف النفس البشرية الحقيقية، حتى وأنا مريض كانت تأخذني على صدرها وتقرأ لي من أشعار بوشكين وتبكي. ولا أحسب أحداً في هذه الدنيا أسعده الله بأمٍّ كأمي.

● وحين ماتت ماريا فيدروفنا، كان حزن دوستويفسكي كبيراً على أمٍّ ظلّ يبحث عنها في كل النساء اللواتي التقاهنَّ!

وقد كانت المرأة تشكل عنده عقدة خوفٍ، ومن العجيب أن تكون هذه عقدة دوستويفسكي بالذات، وهو الذي اقتحم أعماق المرأة في كل أعماله بجرأةٍ لا يجاريه فيها أحد!! اقتحم أعماقها بفأس الحطاب ومشرط الجرّاح وفي الحانات، والقصور، والأكواخ، وكانت أمه الوحيدة التي تكلم عن حبِّه الصادق لها.

● أكان دوستويفسكي يبحث حقاً طوال مشوار حياته عن أمٍ جديدة في النساء اللواتي التقاهنَّ؟!! فكثيرٌ من الرجالَ يفعلون ذلك في عقلهم الظاهر، أو الباطن.

لكن دوستويفسكي لم يكن رجلاً سوياً، كان بركاناً يقذف الحمم ويصيب بها نفسه أولاً. وحين اقترب من المرأة ــ رغم خوفه المرضي منها ــ كانت تلك الحمم تنذرها بالجحيم الذي ينتظرها مع ذلك الرجل!! بعضهنّ كنّ يخشينه، ويخفن منه أكثر مما كان يخاف هو منهن.

□ □ □

ــ ١ ــ

● عرف أول من عرف ماريا إيساييف. عرفها في مكانٍ لا تنبت فيه زهرة الحب الندية. في مجاهل سيبيريا. كان يزور زوجها التاجر الفاشل السكير الذي كثيراً ما تركها بمفردها، بينما ينغمس هو في عربدته وسكره خارج الدار.

ــ إن هذا الذي قرأته يا سيد دوستوفسكي لرائع. رائع. كيف استطعت أن تكتب هذا؟!! وأين؟!!

ــ وأين يا ماريا؟! إذا لم يكن في السجن الرهيب؟!! هنا في سيبيريا!!

ــ يا مسكين، لشدّ ما قاسيت!! لم تخبرني حتى الآن لم أرسلوا بك إلى سيبيريا؟!

ـ ألم يخبرك زوجك؟!

ـ لا. كل ما قاله أنك سُجنت لأسباب سياسية!!

ـ تماماً!! أو هكذا يظن الناس والبوليس السري أيضاً. أنا أعذرهم، فقد كنت أتردد على منزل بتراشي.

ـ الذي كان يعمل على قلب نظام الحكم القيصري؟!

ـ إنك لا تدرين يا ماريا كم هو عبقري بتراشي هذا؟! وكم تمنيت عندما أُلقي علينا القبض أن أشاركه زنزاته، ولكنهم رفضوا ذلك، ولم أره إلا في ذلك اليوم المشهود، يوم الخامس عشر من ديسمبر ١٨٤٩.

ـ حين أخرجوكم من السجن إلى ساحة الإعدام؟!

ـ إذن كنت تعرفين ذلك؟!

ـ وهل يجهل أحد ما حدث لبتراشي وجماعته؟! هل كنت واحداً منهم؟! ليتك يا فيدور تصف لي تلك اللحظات التي أوثقوكم فيها وهيأوا البنادق لإطلاق الرصاص على رؤوسكم وصدوركم. وكيف كنت تشعر حيال ذلك؟!

ـ أوقفونا أمام فصيلة الإعدام، وخلف كل رجلٍ منا نعشه، وصاح الضابط: «أطلقوا النار!!»، لكن الرصاص لم ينطلق، ولم يسقط أحدٌ منا، عندما سُمِعَ صياح ضابطٍ جاء مسرعاً

على جواده وهو يقول: أوقفوا الإعدام. أوقفوا الإعدام. بأمرٍ من القيصر.

كانت الدقيقة الفاصلة بين تصويب البنادق وصياح القادم بالعفو، كأنها قرون من الزمن. كنا فيها مرعوبين فاقدين الوعي تعبث بأرواحنا شياطين اليأس. . ليتني أستطيع نسيان تلك اللحظات التي تسير في ذهني مثل سريان الدم في جسدي!

ـ أوصفت يا فيدور تلك اللحظة في رواياتك؟!

ـ تلك اللحظة؟! تلك اللحظة! كانت هي نقطة الإرتكاز التي انطلقت منها معظم شخوص رواياتي، لكنني وضحتها أكثر في (بيت الموتى) وهو البيت الذي أخرجني منه بعد سنوات أخي الأكبر. لكن القيصر اشترط أن أُبعَدَ عن موسكو وبطرسبرغ وأن أُنفى إلى سيبيريا.

ـ من حسن حظنا أن تكون بيننا يا فيدور. ليتك لا تفارقنا!

ـ أيحزنك حقاً أن أغادر سيبيريا؟

ـ وماذا تظن أنت أيها العزيز فيدور؟

ـ لا أحسب أن رحيلي يحزنك! ثم لماذا يحزنك؟ ما أنا إلا صديق لزوجك. أصاحبه بعض السهرات للتغلب على قسوة الحياة في سيبيريا.

ـ أهذا فقط أيها الماكر؟!!

ـ أجل!! أجل!! زوجك صديق لي. لا أكثر ولا أقل!!

□ □ □

ـ ٢ ـ

● لكن دوستويفسكي كان يكذب!! لأنه أحبها بأعنف ما يكون الحب. لم يكن يخشى زوجها، ولم يكن يخطر بباله أن تكون علاقتها بزوجها حائلاً دون حبّها له.

لكنه الخوف! الخوف من الحب الذي غزا قلبه بعنف. الخوف من المرأة كان حائلاً دون أن يصارحها بحقيقة مشاعره حيالها.

● كان يشارك دوستويفسكي في غرفته الكئيبة المتواضعة في مجاهل سيبيريا أحد أصدقائه الذين يدركون ما تنطوي عليه عبقرية هذا الإنسان من أفكار، فكان يحاوره دائماً فيما يجول بذهنه :

ـ نعم. نعم. أحبها بكل ما في قلبي من عنفوان العشق. ولكن لا أجسر على أن أخبرها بذلك، حتى لو قالت لي: «أحبك يا فيدور» «أحبك يا فيدور» لصرخت فيها: إنك متزوجة!! وعليك أن تكوني مخلصةً لزوجك!! ولكن ليس ما كنت سأقوله لها نابع من قلبي أبداً!! إنما ما أعنيه هو: «إنني أخافك فلا تقتربي من قلبي أكثر من هذا». فماذا أفعل يا دوروف؟!

ـ كفّ عن التردد إلى بيتها!!

ـ لا أستطيع!! فحبّي لماريا إيسايف قد استلب كل حياتي.

□ □ □

● وكتب في مفكرته:

«هل ماريا تحبني فعلاً؟!! أم أن خيالي هيّأ لي ذلك؟! فجعل منها وكأنها تجنّ بحُبّي!! كم تمنيت أن يموت زوجها، وتأتيني تحت ثلوج سيبيريا لتطرق بابي قائلة: لقد تخلصنا منه يا فيدور!!..

ـ أليس من الغريب يا دوروف أنني أتحين كل الفرص للذهاب إلى بيتها والجلوس إليها وأتظاهر لها بقراءة آخر ما كتبت!! ورغم ما ألقاه من قبولٍ منها، إلا أن الخوف يُلجم لساني فلا أبادلها غير الكلمات الخشنة، ثم أنصرف حانقاً!!..

□ □ □

● ولما علم دوستويفسكي أن زوجها ينوي الرحيل إلى بلدةٍ أخرى، زارها مرعوباً وعرف منها الحقيقة، فعاد إلى بيته وقد مسّه هاجسٌ من الجنون.

ـ سيرحلون يا دوروف!! سترحل ماريا!! لم لا يذهب زوجها بمفرده؟!

ـ الزوجة تتبع زوجها أينما ذهب!

ـ ولكنها تحبني! إنك لم تسمع كلماتها الرقيقة وهي تثني على كتاباتي. والآن سترحل! سترحل عني وكأن هذا الرحيل أمر طبيعي، وليس كارثة. أليس ذلك ما يدفع إلى الجنون يا دوروف؟!

ـ انسها! فلا أحسبها تحبّك!

ـ لا يمكن، فهي الوحيدة التي تفهم ما في قلبي.

ـ أنها مجرد امرأة حطمها الفقر، وأذلّها إدمان زوجها الشراب. امرأة لا ثقافة لها، ولا مسحة من الجمال. إنها لا تستحقك يا فيدور! إمرأة كهذه لا تليق بكاتبٍ من طرازك!

ـ لماذا تحطم أجمل ما في حياتي؟! لماذا وأنت صديقي؟!

ـ لأني صديقك. قلت لك ما قلت!

□ □ □

ـ ٣ ـ

● وبعد شهورٍ يتلقى دوستويفسكي أخباراً تؤكد أن زوج ماريا قد توفي، وأنها بصدد الزواج بأحد المدرسين في القرية التي تعيش فيها.

ـ ستتزوج يا دوروف. ستتزوج الشيطانة. ستتزوج وهي تعرف أنها تحبني وأني أحبها! لماذا تفعل هذا؟ لماذا؟

ـ هدئ من نفسك يا صديقي. دعها تتزوج. دعها تخرج من حياتك!

ـ المدرس سيهجرها إذا تزوجته بعد شهر واحد. لا بد من أن أمنع هذا الزواج!

ـ كيف وأنت لا تستطيع مغادرة سيبيريا إلا بإذن من القيصر؟!

ـ سأهرب. لا بد أن أقابلها وأقنعها بالعدول عن هذا الزواج.

ـ لو أن هذا يعيد إلى نفسك هدوءها لدبّرت لك الأمر دون حاجتك إلى الهرب، وكتبت إليها لتقابلك على حدود القرية. إذ من السهل أن أحصل لك على إذن بالغياب لمدة ثلاثة أيام!

ـ افعل يا دوروف. أرجوك أن تفعل.

□ □ □

● **ويتحدد الموعد. ويسافر دوستويفسكي إلى مكان اللقاء المحدد، ولكنه لا يجدها!!**

وكانت نوبات الصرع التي انتابته إثر موقعة الإعدام وإطلاق الرصاص قد فارقته. وعاد إلى ما يشبه حالته الطبيعية. ولكن عدم لقائها إياه في الموعد، أعاد إليه الصرع في عنفٍ لم يعهده من قبل، حيث وقع على رصيف المحطة قبل أن يركب القطار في طريق العودة، وحملوه إليه حملاً، وظل في القطار في

غيبوبةٍ تامة وحين عاد إلى قريته كان يجرّ قدميه جراً. وبعد فترةٍ عاد إلى حالته الطبيعية.

□ □ □

● وما هي إلا شهور قليلة، وإذا ببابه يُطرق، وإذا به وجهاً لوجه أمام ماريا إيسايِيف!!

ـ إنك قديس يا فيدور. أنا لا أستحقك. ولم أحب أحداً سواك!!

ـ **والمدرّس؟!**

ـ لم أتزوجه! لقد أعانني في محنتي بعد وفاة زوجي، ثم تزوج أخرى. فيدور، خذني زوجةً لك يا فيدور، بل خذني خادمة إذا لم تقبلني كزوجة. دعني أقبّل يديك أيها القدّيس.

ـ **أعطني مهلة للتفكير يا ماريا. كل شيء في عقلي الآن مختلط ومضطرب!**

● كان يريد الفرار. يفرّ من المرأة التي أحبها. ولم يتعذّب في حياته كما تعذّب في أيام فراقها، ولكنه في النهاية حسم الأمر.

□ □ □

● وبعد أن خرج من الكنيسة الصغيرة التي جرت فيها طقوس الزواج، حصل على إذن بقضاء شهر العسل في بطرسبرغ.

كان يخشى هذا الحب الذي يملأ قلبه. يخشى المرأة التي

أحبها. وعندما ضمتهما غرفة شهر العسل في الفندق، سقط على الأرض فجأةً وانتابته نوبةٌ من نوبات ذلك الداء الذي لا دواء له، الداء الذي صاحبه حتى موته، داء الصرع.

ووقفت العروس حائرة تقاوم إحساس الاشمئزاز الذي يدفع بعض الناس إلى الهرب أمام مثل هذا المنظر المروع! الزوج ملقىً أمامها كالجثة التي فقدت الحياة، والزبد يتدفق من فمه مصحوباً بصرخاتٍ محمومة.

□ □ □

- ثم عاشا معاً، وكلٌّ منهما يفرُّ من صاحبه. هي لم تعد تحتمل حياةً مقرفة ما بين الصرع والشك والخوف والوساوس، وهو ظل يعاني من عقدة خوف حبها له. ولم يتحرر من تلك العقدة إلا يوم دُفنت بعد أن عانت من مرض السل الذي جعل خيال دوستويفسكي عبارة عن سعال ممتد طوال ساعاته معها في المنزل. ماتت ماريا إيساييف مسلولةً..
- وعاد فيدور دوستويفسكي يبحث عن حبٍّ جديد، بل عن مأساةٍ جديدة. وكلما وجدها، انتابته المخاوف، فيفرُّ منها إلى أخرى. وهكذا أمضى حياته في قلقٍ وخوفٍ وهلع من المرأة التي لم يطمئن إليها مثلما كان يطمئن إلى المرأة التي أحبته وأحبّها، أمه!

□ □ □

عاش ثري الفكر.. ومات مديناً!!

قصة الصراع بين الكاتب والناشر، قديمة قدم صناعة النشر نفسها، ففي عام ١٨٦٥ كانت الكوارث تتوالى على رأس دوستويفسكي، بعد أن صار نجماً لامعاً في سماء الرواية الروسية، فبعدما ماتت زوجته كتب عنها ما يؤكد عدم انسجامه معها، وقد كانت علاقتهما فاشلة إلى أبعد حدود الفشل، لدرجة أنه قال بعد وفاتها:

«لا بأس. على كل حال فقد كان الحب قد مات بيننا قبل موتها، وكم تمنيت أن أخلص منها، ولكن لم أتوقع أن يكون خلاصي بموتها، ليتها قبلت بالطلاق حينما اقترحته عليها منذ ثلاثة أعوام».

كان دوستويفسكي يعيش بمفرده، والدائنون ما فتئوا يترددون على طرق باب بيته الصغير، والبعض منهم كان يأتي بقرار لحجز أثاث البيت من المحكمة، وقد وصف دائنيه يوماً:

«هؤلاء اللئام، صاروا يدخلون إلى بيتي، ليفتشوا تحت أخشاب الغرف، وبين فحم المدفأة، يظنون أنني أخفي عنهم أشياء ثمينة!! إنهم لئام وأغبياء أيضاً. ماذا يملك كاتب مثلي؟».

ومع أنه ليس في بيت دوستويفسكي سوى قطع من الأثاث المتهالكة، فإن الدائنين قد أحصوها في دفاترهم، وجاء البعض منهم بمندوب المحكمة، لينذر صاحب قصة (الجريمة والعقاب) قائلاً:

«سنمهلك عشرة أيام يا فيدور دوستويفسكي. إذا لم تسدد ديونك كلها كاملة قبل هذه المهلة، عرضنا كل ما في هذا البيت للمزاد. وحذارِ. إذا نقص من هذا البيان شيء، فموجودات البيت المكتوبة في هذا التقرير، لا يجوز أن ينتقص منها شيء، وإلا فسيكون مصيرك نفس مكانك القديم في سجن سيبيريا».

وما إن خرج مندوب المحكمة والدائنون من صباح ذلك اليوم، حتى جاء الناشر ستيلوفسكي، وهو رجل اشتهر بالبراعة الشيطانية في سلب حقوق المؤلفين، وتجريدهم من كل حقوق لهم في أعمالهم، وكذلك اشتهر بقسوة القلب، وما إن دخل البيت حتى بادر المؤلف بالقول:

ـ طبعاً ستقول يا عزيزي فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي ما جاء بستيلوفسكي في هذه الساعة على وجه التحديد؟! سأوفر عليك الإجابة وأقول لك: يا فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي، إنها الرحمة التي فُطر عليها قلبي، دفعتني إليك دفعاً. كنت ماراً بالمصادفة أمام بيتك، فرأيت ما فعل بك الدائنون. لا أستطيع أن أقف مكتوف اليدين وأنا أراهم يمزقون واحداً من أعظم كُتاب روسيا!

فيجيبه دوستويفسكي ببرود متعمد:

ـ حسناً يا ستيلوفسكي، دعنا نرفع الأقنعة ونتكلم بصراحة، فأنا أعلم أنك وصبيانك تتلصصون منذ أسابيع، وتتجسسون

لتعرفوا ماذا سيحدث لي مع الدائنين. فاذكر لي بصراحة سبب حضورك؟!

ـ أرجو ألا تظن أنني سأخبر الدائنين عن نقلك قبل حضورهم اليوم بعض الأثاث إلى منزل صديقك فرانجيل؟! لا تخف يا عزيزي من أي وشاية من هذا النوع!!

واستبد الغضب بالكاتب ليقول لمحدثه:

ـ طبعاً إنك لن تشي بي، إلا إذا لم أوافقك بالطبع على ما جئت من أجله؟!

ـ أنا لم آتِ إلا لأنقذك من الورطة! والآن قل لي: كم ديونك يا عزيزي فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي؟

ـ ما الذي يعنيك في هذا الأمر؟

فيتظاهر ستيلوفسكي بالكرم ويقول:

ـ أنا أعلم أن ديونك نحو ثلاثة آلاف روبل، وأرجوك أن تعتبر المبلغ منذ الساعة في جيبك!!

ـ لقاء ماذا تعطيني هذا المبلغ؟

يقف ستيلوفسكي ليربّت على كتف المؤلف ويقول:

ـ أرأيت رقة قلبي، وما فُطرت عليه من رحمة إزاء خوفك مني، وتوجسك من مبادراتي؟!

لكن دوستويفسكي يرفع يده عن كتفه ويكرر السؤال بحدة:

ـ لقاء ماذا تدفع لي ثلاثة آلاف روبل يا ستيلوفسكي ؟

ـ أنت أذكى من أن تجهل ما أريد، فأنت مؤلف، وأنا ناشر، وهذه الثلاثة آلاف روبل سأدفعها لك مقابل حق طبع ونشر جميع مؤلفاتك السابقة في ثلاثة مجلدات!

ـ ولكنك تعلم أنني تعاقدت مع أخي على أن يقوم هو بهذا!!

فيسخر ستيلوفسكي منه:

ـ أه! ذلك كان أيام مجلتكم التعسة التي توقفت عن الصدور منذ أشهر، ثم إن التعاقد مع أخيك وهو الآخر مفلس مثلك لا يجدي نفعاً.

ـ ولكن التعاقد بيننا رغم ذلك ما زال قائماً!

ـ حسن. حسن. إذا كنت لا تزال مصراً على أن تجعل من هذه العلاقة العاطفية بينك وبين أخيك ذات قيمة في هذا العالم المادي، فالشأن شأنك! ولكن تذكر يا دوستويفسكي أن الدائنين سيعودون إليك بعد عشرة أيام ؟!!

وتنتاب المؤلف الدهشة حينما علم أن الناشر قد عرف بالمهلة المحددة لعرض بيته في المزاد العلني، لكن ستيلوفسكي ربّت كتف المؤلف ثانياً قائلاً:

ـ هيا. هيا يا عزيزي. هذه ثلاثة آلاف روبل لقاء حق طبع مؤلفاتك السابقة ونشرها. موافق أليس كذلك؟

ـ إنك لص. أفّاق يا ستيلوفسكي.

ـ أنا واثق من أنك ستوافق على شروطي إذا تصورت نفسك حراً طليقاً بعد تسديد كل ما عليك من ديون لتتفرغ بعدها لأعمالك الأدبية العظيمة في صفاء بال، ونفس خالصة من المتاعب المالية.

ـ موافق.

وما إن سمعها ستيلوفسكي حتى بادره قائلاً:

ـ على كل شروطي طبعاً.

ـ ألك شروط أخرى أيضاً؟!

ـ لا. لا. مجرد طمع في كرمك الأدبي. أعني أن نضمّن العقد تعهدك كتابة رواية جديدة لم يسبق نشرها، وتكون هذه الرواية هدية منك.

ـ لكن معيني قد نضب يا ستيلوفسكي، وأفكاري لم تعد منتظمة، ولا أستطيع أن أعدك بشيء كهذا.

ـ لا تقل إنه سيعيك كتابة رواية جديدة من ٤٠٠ صفحة؟!

ـ لا. لا. آسف لن أفعل. لن أفعل.

ـ يا للخسارة! مع أنني جئت ومعي ثلاثة آلاف روبل! تصور يا دوستويفسكي ما سيحدث لك بعد عشرة أيام؟!

وما هي إلا فترة صمت وجيزة نطق دوستويفسكي بصوت يحمل رنة الحزن:

ـ حسناً حسناً. رواية جديدة من ٤٠٠ صفحة.

ـ بديع بديع! هذا هو العقد، لقد أعددته سلفاً لعلمي أنك تريد أن تنتهي من المتاعب المالية لكي تتفرغ لفنك. وقِّع هنا يا عزيزي فيدور ميخائيلوفيتس دوستويفسكي.

لكن المؤلف يطلب قراءة بنود العقد، إلا أن الناشر يقول له:

ـ لماذا تضيع وقتك، إنه يحتوي على الشروط المعتادة، ومع هذا سأقرأ عليك الشرط الأخير لأنه يحتوي على إضافة، وهو كالتالي: «إذا لم يقدم الطرف الثاني فيدور ميخائيلوفيتس دوستويفسكي الرواية الجديدة المشار إليها في البند السابق قبل يوم ١ نوفمبر، دفع الطرف الأول غرامة قدرها ٤٠٠٠ روبل، ويصبح الطرف الأول هو المالك الوحيد لكل حقوق الطبع والنشر لجميع زوايات الطرف الثاني ما صدر منها وما لم يصدر.

ـ هذه لصوصية دنيئة، إنك تتصرف بأخلاق الخنازير.

ـ مجرد احتياطات لحفظ حقوقي، كذلك فإنها دافع وحافز لك كي تعمل. إن هذه الفقرة لمصلحتك، وأنا واثق من أنك ـ أيها المؤلف العظيم ـ ستنهي الرواية الجديدة في أقل من شهر.

ثم يدفع القلم للمؤلف الكبير لتوقيع العقد. وبعد فترة تسلم دوستويفسكي من الناشر مبلغاً قدره ١٦٧ روبلاً فقط، وقال للمؤلف:

ـ هذا ما بقي من حقك بعد تسديد جميع ديونك، إذ إنني اشتريت جميع الصكوك من دائنيك، وها هي بحوزتي. وهذا المبلغ ١٦٧ روبل هو كل ما بقي لك من ٣٠٠٠ روبل.

□ □ □

● وكان الدائنون قد يئسوا من الحصول على أموالهم فباعوا صكوكهم بأثمان بخسة للناشر الجشع ستيلوفسكي. وصار ديستويفسكي حراً طليقاً من الديون، وفي سرعة متناهية جمع ثيابه في حقيبة كبيرة بالية وجلس يكتب إلى صديقه فرانجيل:

«أهذا حلم يا عزيزي فرانجيل؟! أيمكنك حقاً أن تتصور صديقك فيدور دويستويفسكي خالياً من أعباء الديون! أنا نفسي لا أصدق؟! ومع هذا فقد حدث تماماً ما لم أتخيله. سددت جميع ديوني وبعت لشيلوك هذا الزمان اللعين ستيلوفسكي رطلاً من لحم قلبي. سأوضح لك تفاصيل الصفقة الشيكسبيرية حين ألقاك في فيسبادن!!».

في عام ١٨٦٦ ظهرت القصة التي تضمنها العقد بين المؤلف والناشر، وكانت هي قصة (الجريمة والعقاب) التي بيعت منها ملايين النسخ وترجمت إلى معظم لغات العالم، ولم يستفد منها الكاتب لأنها من ممتلكات الناشر بموجب العقد.

□ □ □

دوستويفسكي.. المقامر والعاشق!!

● بولين سوسلوفا. أحبها دوستويفسكي بالرغم من مغامراتها، ورعونتها، وأسفارها المتعددة. لحق بها إلى مدينة فيسبادن في ألمانيا، وما إن رأته حتى بادرته بالقول:

ـ فيدور حبيبي أقرضني ألف مارك.

ـ أتحمل مشقة السفر لملاحقتك، وعندما ألقاكِ تريدين أن تقترضي مني ألف مارك؟!

ـ ألا تحبني يا فيدور؟!

ـ أجل. ولكن أنا الذي لم أتناول غير الشاي لأربعة أيام بلياليها، لتفاجئيني بهذا الطلب؟! بعد أن خسرتُ كل ما حملته معي من أموال على مائدة القمار!!..

ـ لا مفرّ يا حبيبي من أن تبحث لي عن ألف مارك من أي مكان!!

ـ ولماذا ألف مارك؟!

ـ رشوة للبوليس السياسي. إذا لم أدفعها لهم الليلة قبضوا عليَّ!

ـ وإذا دفعتها؟!

ـ ربما سمحوا لي بالبقاء معك في فيسبادن ليومين أو ثلاثة أيام، وربما أصروا على أن أغادر فيسبادن إلى باريس!!

ـ **ولكنكِ مطلوبة في باريس بتهمة إلقاء قنبلة في مقهى ديلابيه.**

ـ سأختفي في بيت صديقة الكاتب الفرنسي بلزاك.

ـ **اسمعي يا بولين، عندي حل يريح الجميع.**

ـ أسرع به، ماذا تنتظر يا بليد التفكير. أسرع به.

ـ **أن نتزوج، وبذلك تصبحين زوجة فيدور دوستويفسكي. الذي...**

ـ (تقاطعه ضاحكة) ألغِ فكرة الزواج نهائياً. أنا لا أؤمن بهذا النظام الاجتماعي البالي. لا زواج لي. ولا تحاول أن تُكثر من التفكير في هذا الأمر!!

ـ **أهذا لأني في الأربعين وأنت في العشرين؟!**

ـ ما هذا الهراء يا فيدور؟ لقد أحببت تورجينيف وهو في الستين!! هه؟! هل ستبحث لي عن الألف مارك، أم أحاول سرقة صاحب الفندق؟!

□ □ □

● وتتبخر في الهواء أحلام السفرة السعيدة في فندقٍ ناءٍ بمدينة فيسبادن مع حبيبة القلب الفوضوية بولين. لا يدري أحد ماذا قدمت لرئيس الشرطة السرية كي يدعها تغادر تلك المدينة في اليوم التالي سراً!

بعدها مباشرةً كتب دوستويفسكي إلى صديقة فرانجيل:

«ماذا جرى لك يا فرانجيل؟! لو أنك كنت في هذا المأزق الذي أوقعت نفسي فيه، أكنتُ تاركك لسخرية رواد هذا الفندق؟! أرسل لي فوراً مئتي روبل أو أجرة العودة إلى روسيا على الأقل. إني في أسوأ حالات الانهيار العصبي، والتدهور النفسي، بعد أن اضطرت بولين إلى مغادرة فيسبادن. الصرع يراودني مرتين كل أسبوع على الأقل. إذا لم يكن معك المبلغ فاقترضه من الناشر كاتاكوف. وأتعهد أن أكتب له رواية جديدة على حلقات. المهم أن لا تهمل الرد كعادتك».

- ولا يأتيه الرد. ولم يبقَ أمامه سوى أن يفر إلى الحدود على قدميه تاركاً حقيبة ثيابه، أو، أو، أو يرهن ساعته الذهبية. إنها الشيء الوحيد الذي لم يبعه من ميراث أبيه. وذهب إلى بيت مرابية عجوز في إحدى حواري مدينة فيسبادن.

ـ ما الذي دلك على بيتي أيها الرجل؟!

ـ سألت أحد خدم الفندق عن أرقّ وألطف سيدة في فيسبادن، كي...

ـ (مقاطعة) لا تعامل لي معكَ! هيا، انصرف.

ـ ولكن لماذا؟! إنك لم...

ـ أتريد أن تعرف لماذا لن أتعامل معك؟! لأنك تحاول أن

تخدعني بالكلمات الناعمة. لستُ أرقَّ ولستُ ألطف سيدة في فيسبادن. أنا مرابية عجوز أتقاضى أعلى نسبة على الرهونات من المقامرين أمثالك، ولكنني لا أبخس الناس أشياءهم. مرابية... أجل، ولكني أمينة قبل كل شيء.

ـ حسنٌ. إني أحب التعامل مع هذا النوع من التاجرات

ـ تاجرات؟! أنت مراءٍ كبير. حسناً، سأعطيك ثلاثة وعشرين ماركاً.

ـ لا بأس. وفي الحقيقة هذا أكثر مما كنت أتوقع.

ـ (في توجّس) إنك تثير الريبة أيها الرجل. لم يحدث أن قَبِل أحد ما أعرضه عليه دون نقاش.

ـ ذلك لأني أمين مثلك.

ـ أو لأنك تنوي سرقتي! إنك تُكثر من التلفت حولك! أيكون هذا لدراسة المكان؟! كن حذراً أيها الرجل، فإن لي شقيقة أصغر مني تُقيم معي. إنها في الغرفة الداخلية. (منادية). فاني، فاني، ماذا تفعلين ؟!

● صوت من بعيد:

ـ أقرأ. إنني أقرأ.

ـ أرأيت ؟! لستُ وحدي، فلا تداعب الأمل في سرقتي!! هات الساعة وخذ المبلغ. متى تأتي لتفك الرهن؟!

ـ لا أدري. قد لا أعود أبداً. وقد أعود في الغد. أجل سأمر غداً. لا بد أن أمر عليكِ في الغد، لأنكِ رائعة! رائعة!

□ □ □

● لم تكن تلك العجوز تدري أنها أوحت إلى كاتب روسيا العظيم فيدور دوستويفسكي بأروع أعماله قاطبةً (الجريمة والعقاب).

لم يعد إليها ثانيةً، ولكنه حبس نفسه في غرفته بالفندق ثلاثةَ أيام بلياليها، ثم كتب إلى صديقه فرانجيل:

«اسمع يا فرانجيل، لستُ أطلب منك مالاً هذه المرة، ولكني أريد أن تتصل بالناشر كاتاجوف وتخبره بأن دوستويفسكي في سبيل كتابة أعظم أعماله قاطبةً. اطلب إليه أن يبقي الأمر سراً حتى لا يتسرب إلى اللعين ستيلوفسكي، وإلا طالب بالرواية الجديدة بموجب العقد المبرم بيننا. أنت تعرفه صقر جارح لا يرحم. وأوافق أن ينشرها على حلقاتٍ في مجلته (الرسالة) دون ذكر اسمي. يمكنك أن تتفق وإياه على اسم مستعار. لا تناقشه في الثمن. سيضطر إلى أن يدفع أعلى ثمن في عالم الرواية فور أن يقرأ الحلقة الأولى. أعتقد أنك غدوت في شوقٍ إلى معرفة فكرة هذه الرواية. حسناً، ليس هذه المرة، فإن الأحداث في ذهني مختلطة مضطربة رغم وضوح الفكرة».

وجاء ردّ فرانجيل في برقية:

«كاتجوف موافق على طول الخط. عد إلى سان بطرسبورغ. ستكتب الرواية في بيتي الريفي. فرانجيل».

□ □ □

● حين وصل إلى كوخ فرانجيل في ضواحي بطرسبورغ، وجد في انتظاره فتاةً هزيلةً شاحبة.

ـ اسمي آنا سنيتكينا. أرسلني السيد فرانجيل كي أكون سكرتيرتك، قال إنك ستكون في حاجة إلى من ينسخ لك صفحات الحلقات قبل إرسالها إلى مجلة الرسالة.

ـ ولكنكِ يا صغيرتي لن تتمكني من قراءة خطي.

ـ أعتقد يا أستاذ أنك سترضى عن عملي، ثم إنك ستكون في حاجة إلى من تطهو طعامك، وتغسل ثيابك.

ـ تعنين أنه ليس في البيت سواكِ؟!

ـ أجل. قال السيد فرانجيل إن هذا أدعى إلى عدم تسرب سر روايتك.

ـ يا إلهي! إذاً فأنت تعرفين كل شيء.

ـ أجل يا أستاذ، ولكن كن مطمئناً. لو قتلوني لما بُحت بكلمة واحدة.

□ □ □

• ثلاثة أسابيع، وفيدور دوستويفسكي لا يغادر الغرفة. من المكتب إلى الفراش، ومن الفراش إلى المكتب، وآنا سنيتكينا الفتاة الشاحبة الهزيلة تخدمه وكأنها تتعبد لصنم. تجلس في ركن من الغرفة لساعات طويلة، تنظر إليه وهو يكتب، تسعفه بالقهوة وبالشاي إذا لازمته رعشة البرد، فأما إذا سقط فريسة لنوبة من نوبات الصرع، حملته في جهد وصعوبة إلى الفراش حتى يفيق، وهو لا يكفّ في لحظات الفواق عن الكتابة. ورويداً ورويداً تتبلور شخصيات روايته العظيمة **(الجريمة والعقاب)**.

ـ أستاذ دوستويفسكي، إنك لم تعهد إليَّ حتى الآن بنسخ صفحة واحدة. أما زلت لا تثق بي؟!

ـ أبداً. أبداً. كل ما في الأمر أنني لا أثق بنفسي.

ـ ماذا تعني يا أستاذ؟!

ـ أعني أنني أخشى أن أتكلم على شخصيات روايتي أو أدع غيري يطّلع عليهم في دنياهم فينهار بنائهم الدرامي.

ـ أهم من الضعف بحيث يتهاوون لأول ضوء من الشمس؟!

ـ لا. لا. لماذا تقولين هذا؟!

ـ أعتذر. وأنت تفهم هذه الأمور أكثر مني دون ريب!!

ـ لا. كأنك تتحدثين بصلابة راسكو لينيكوف. قد يبدو هزيلاً ضعيفاً مثلك هكذا، ولكنه أيضاً يحمل نفساً قوية كل القوة، مثلكِ أيضاً. إنه طالب شاب، طالب جامعي، ولكنه من أسرة فقيرة مثل آلاف الأسر التي تعيش في روسيا. يفكر في التمرد على الفقر في محاولة جريئة للتفوق والتغلب على ظروفه. يفكر في (عمل خطير) رغم أن طبيعته الخيرة تنكر هذا العمل إلا أنه يصر على تنفيذه. كأنه صوت شيطان يدفعه إلى هذه الفعلة دون هوادة.

ـ وما هذه الفعلة يا أستاذ؟!

ـ القتل!!

ـ يا إلهي!

ـ لا ترتعبي. إنه لا يحب الفكرة ذاتها، يحاربها ليل نهار في ذهنه، ولكنه ينتهي إلى أنها ضرورية، سيقتل مرابية عجوزاً، ويسرق ما في خزانتها من مال كي يبني به مستقبلاً يظن أنه سيكون عظيماً من أجل البشرية.

ـ يزهق نفساً بشرية؟!

ـ العجوز نفسها في رأيه لا تستحق الحياة. مرابية، حقيرة، حشرة، دنيئة، تعيش على دماء ضحاياها، لا فائدة من حياتها لأحد. إنه يقول لنفسه: لماذا تغش؟! أكان بونابرت يتردد في سحقها سحقاً لو توقف على موتها المجد الذي

حققه؟ لا. لا يتردد العظماء في المشروعات العظيمة. سأقتلها.

ـ يا إلهي! ألا تستطيع يا أستاذ أن تجعله يعدل عن مشروعه في آخر لحظة؟!

ـ إنني لا أكتب رواية بوليسية يا آنا سنيتكينا. إني أكتب عملاً إنسانياً. سيقتل راسكو لينكوف العجوز المرابية، لكن جريمته ستعذبه وتخرجه رويداً رويداً من دائرة البشر. ليس ضده أي دليل، ولكنه يعترف على نفسه رغم ذلك في النهاية.

ـ ولماذا يعترف ؟!..

ـ لأنه يريد أن يعود مرة أخرى إلى دائرة البشرية. قانون الحقيقة والطبيعة الانسانية هو أقوى من الذكاء يا آنا. هذا هو راسكو لينكوف.

□ □ □

● كانت آنا أول من عرف بفكرة (الجريمة والعقاب)، أول من قرأها، وهي تنسخ الصفحات المليئة بالهوامش والشطب والتخريج، بل وبالرسوم أيضاً. في يوم وقد انتهى من كتابة الجزء الأول وهو على الأرض قرب قواعد المكتب، وقد هدَّته نوبة الصرع، حملته آنا إلى الفراش، وحين أفاق:

ـ آنا، في ذهني موضوع جديد لرواية جديدة. أريد أن...

ـ أرجوك يا أستاذ، أنت متعب.

ـ يجب أن تعرفي بكل ما في ذهني يا آنا. هذه الرواية الجديدة...

ـ إنك لم تنتهِ بعد من الجريمة والعقاب.

ـ صحيح ولكن الجديد أهم. إنها عن فنان رسام في مثل سني في الأربعين، يعيش وحيداً، مبدد الأحلام، مشرد العواطف، ثم يلتقي عرضاً بفتاة ذكية، حساسة، يخفق لها قلبه، وتنتعش بصحبتها روحه...

ـ ثم ماذا يا أستاذ؟!

ـ تصوري أن هذا الرسام هو أنا، وضعي نفسك في موضع الفتاة، ثم تخيلي أنني صارحتكِ بحبي ورغبت إليكِ أن تقبليني زوجاً، فماذا تقولين يا آنا؟!

ـ أقول إنني أحبك، وإنني سأظل أحبك مدى الحياة.

□ □ □

● وتزوجا. ويقول أكبر نقاد ديستويفسكي، الناقد الدكتور بيشج:

«لقد كانت لديستويفسكي قدرة فذة على عزل شخصيات رواياته وأجوائهم وانفعالاتهم عن حالته النفسية الخاصة. فقد كتب

الجزء الأول من الجريمة والعقاب وهو مشتت النفس، ممزق القلب، مشوق إلى حد الجنون، إلى ساعةٍ مع الفوضوية بولين، وكتب الجزء الثاني من نفس الرواية في أسعد شهور حياته مع الحبيبة الجديدة، والزوجة المحبة آنا سنيتكينا. ومع ذلك لا يمكن لناقدٍ مهما بلغ تعنته أن يجد فجوة فنية، أو حتى مجرد شق صغير في البناء الدرامي للجزأين».

- وفي العشرين من مايو ١٨٦٦ ظهرت لأول مرة على صفحات مجلة الرسالة الحلقة الأولى للرواية الخالدة (الجريمة والعقاب).

المــازنــي.. يسخر من الناس وهو في قبره!!

ليس هذا عنواناً لاجتذاب القارئ، وإنما هو حقيقة مؤكدة! فالمازني الذي عُرف بسخريته، حرص على أن يظل محافظاً على صفته تلك حتى بعد مماته، حيث طلب أن يُنقش على قبره بعد موته هذان البيتان:

أيـــهـــا الـــزائـــر قـــبـــري
اتـــلـــو مـــا خـــطّ أمـــامـــك
هـــا هـــنـــا فـــاعـــلـــم عـــظـــامـــي
لـــيـــتـــهـــا كـــانـــت عـــظـــامـــك

□ □ □

لا نكاد نعرف كاتباً كتب عن نفسه وترجم عنها في صراحة وإخلاص ودون مواربة، كما فعل إبراهيم عبد القادر المازني، وهذا الأمر يُتعب كل من يريد أن يقترب من حياته بالقلم،

وخاصةً أولئك الذين جعلوه في يوم من الأيام ـ ولا يزالون ـ أستاذاً لهم في عالم القصة والمقالة والتأليف الدرامي.

□ □ □

ـ ١ ـ

● كان المازني في دعاباته شديد المرح، زئبقيّ الحركة الذهنية، كان في طفولته، وهو يذكرها باعتزاز وتفصيل شديد، يكاد لا يترك شاردةً من ذكريات تلك الأيام إلا عاد إليها مرة ومرة. حتى (شقاوته) في الحارة التي كان يسكنها مع أمه وأبيه. كان يحب أمه حباً جمّاً، وقد بلغ حبه لها درجةً لم يصل إلى ترجمتها أديب في التعبير عن حبه إلى تلك الأم:

«كنت بعدها كلما وقعت عيناي على امرأة أدرت رأسي مزوراً، بعد أن تغرورق عيني بالدموع»

ولو جمع أحباء المازني ما كتب عن أمه فصولاً متفرقة لصارت مكتبة كاملة في حب الأم، والحدب عليها والتفاني في مرضاتها، والتماس بركتها، والاعتراف بجميلها..

● **وأذكر حين استقرت أحوالنا بعض الشيء وكبرت، واحتجنا إلى نفقات التعليم، وكانت باهظة الثمن في تلك الأيام التي سيطر فيها كرومر على وزارة المعارف، حيث جعل تكاليف الابتدائية ستة جنيهات، ولا يمكنك أن تتصور حياة من تُثقل عليه ستة جنيهات في العام، وكان لنا قريب قالت له أمي:**

ـ من حق الولد وقد كان أبوه من المحامين المرموقين أن يتعلم بالمجان، فإعفاء أمثاله من نفقات التعليم في وفاة العائل أمرٌ مقرر، وهذا حقٌ لنا.

ـ يلزم أن تتقدمي بطلب إلى وزارة المعارف ونشفعه بتوصية مناسبة من أحد المعروفين بموالاتهم للوزير والمستشار.

ـ أقارب زوجي كثيرون، ولكن لن أطلب من أحد منهم شيئاً كهذا!

ـ لا مهرب لك من ذلك يا ست هانم!!

ـ الاستجداء من هؤلاء مهانة، لن أذهب وأستجدي توصية!! لن أفعل ذلك.

□ □ □

● وغاب الرجل عدة أيام ثم عاد بنبأ سعيد:

ـ يا ست هانم،

ـ خير إن شاء الله.

ـ الغاية تبرر الواسطة.

ـ يعني إيه؟!

ـ يعني أن تعليم أولادك في المدارس لا بدّ أن نعزره بقرشين!!

ـ ماذا؟! تريد أن تقول يا راجل إن المسؤولين عاوزين رشوة علشان يدخلوا الأولاد المدرسة؟!

ـ قلت لك الغاية تبرر الواسطة.

ـ إذا كنا سنرشو الناس ونحن فقراء فأولى أن نؤدي نفقات المدرسة مما سندفع ونستريح، ونعفي ضمائرنا من هذا الإثم.

ـ يا ست هانم، لكن الإعفاء عن الأولاد سيظل سارياً طول مدة التعليم.

ـ ولو، لا أبدأ حياة ولدي بالرشوة.

□ □ □

ـ ٢ ـ

● ولم تكن والدة المازني على قدر من التعليم، وإنما كانت خبيرة بالنفس البشرية وما يتولد فيها من عُقدٍ في مواجهة تلك الأحداث.

ومن ضمن ما كتبه المازني عن والدته:

«الحياة كانت مدرستها، وقد كان أبي في حياتها كل شيء، إذا غاب في عمله فإنها تعمل كل ما في وسعها لتهيئة الجو الهادئ المريح لأعصابه إذا جاء، وإذا جاء وتناول طعامه ودخل لينام في أيام الحر، يسكن كل شيء في البيت، وصار المشي كدبيب النمل، والحديث همساً لا يكاد يُسمع، حتى إذا أفاق من نومه عاد البيت إلى حاله، وكانت تحبه في صمت حب

أمهاتنا وجدّاتنا حباً لا تشي به أمام الناس كلمة أو إيماءة، أو نظرة، وكثيراً ما سألتها بعد موت أبي بزمن كثير عن هذا الأمر فتبتسم وتطرق استحياءً ويضطرم وجهها حتى في كهولتها الذاوية وأُلحّ عليها بالسؤال:

ـ اسكت يا إبراهيم، هذا الذي تسأل عنه عيب.

ـ (مداعباً) لو قلتِ أنكِ لم تحبيه، لما لمتك! ماذا كنت تحبين بالله في هذا الرجل المزواج المتعب، الذي جعل حياتك معه جحيماً فائراً بالغيرة؟! لقد أساء إليك بالضرة!

ـ إنك لا تساوي الظفر الذي كان المقص يطيره من إصبعه.

ـ يا أماه، كنت تحبينه إذن!!

ـ اختشي يا ولد هذا والله آخر الدنيا. الأولاد الذين لم يخرجوا بعد من البيضة يسألون أمهاتهم هذه الأسئلة التي لا أدب فيها ولا حياء!

ـ اعترفي يا ماما.

ـ قم. قم. كفى قلة حياء!!

فأنهض طائعاً وأميل على رأسها فترضى عني وتدعو لي، ثم تقول لي:

ـ لن يقبل الله دعائي هذا لك حتى تذكر والدك بكل خير.

ـ اسمعي يا أماه، لم أعرف أبي كما ينبغي، فقد مات قبل أن

أكبر. ولكن القليل الذي أعرفه، مضافاً إلى الكثير الذي سمعته منك يقنعني بأنه «هو» لم يكن يساوي الظفر الذي يطيره المقص من إصبعك أنتِ!

وعزيزٌ عليّ أن أقول هذا عن أبي، فقد كان على العموم رجلاً فاضلاً ذا كرامة، ولكنني لا أغفر له أن أتعبكِ وأساء إليك بالضرّة. أما أنت عندي فخير الناس، وسيدة الدنيا، وكل ما عداكِ هباء. اسمعي أيضاً، أنا أحاول أن أحيا حياةً فاضلة لأنك معي في الدنيا، مجرد شعوري بوجودك يرفع نفسي ويعصمني من كثير وما هممت بشيءٍ إلا رأيتني أسأل نفسي هل ترضى عنه أمي لو علمت، أو لا ترضى؟! فأُقدم وأُحجم بناءً على جواب السؤال. إني مدينٌ لكِ بكل ما جعلني كما أنا أطال الله عمرك.

قال كلماته الأخيرة هذه وكانت الدموع تتساقط من عينيه.

□ □ □

ـ ٣ ـ

● كتب عنه طه حسين وهو يرثيه:

«ما أحسب كاتباً كرّم أمه بكلمات كهذه سوى عبد القادر المازني، عربياً كان أو غربياً».

وقيل للمازني يوماً:

ـ ما الذي فعلته أمك من أجلك حتى تعطيها كل هذا الاهتمام في كتاباتك عنها؟!

ـ **فعلت الكثير من أجلي ومن أجل أخي الأصغر أحمد، بل وأيضاً من أجل أخي ابن ضرّتها الذي بدّد ما تركه أبي. فكانت ترعاه حين قرصته الدنيا بشرورها، رغم أنه أساء لها وضيّعنا. وأذكر يوم كنت ألعب بالكرة في الحارة، فأخذها مني. فانكفأت إلى أمي أسألها عن الكرة، ولماذا حُرمتها، فكان جوابها:**

ـ اسمع يا ابني إنك لم تعد طفلاً، وإنما أنت رجلنا الآن وسيّد البيت، ورأس الأسرة وكبيرها، فقد ترك لنا أبوك مالاً كان فوق الكفاية، لكن المال ذهب ولم يبق لنا منه شيء. قد نجوع، وقد نعرى، من يدري؟ ولكن أملي في الله كبير، وعندي بعض الحليّ ومتاع لا حاجة لي إليها، فسأبيع هذا، ونفقات ونكتسي، وستواصل التعليم فما من هذا بدّ، حتى ينفد المال وينضب المورد، ولا أرى إلا بعد أن نعتمد على ما بأيدينا، لا على ما بأيدي الغير.

وما معنا قليل يا ولدي. فروّض نفسك على السكون إليه، والنزول إلى حكمه.

□ □ □

● كان المازني يصف البيت الذي يسكنه بأنه يقع على حدود الأبد، ولما طُلب إليه أن يفسر ما يقصده بحدود الأبد قال:

ـ على تخوم العالمين، على بعد أمتار من المقابر، كان يقع على الطريق الذي يخترق الصحراء بين الإمام الشافعي ومسجد عمرو، فكنت أمر في ذهابي وإيابي على المقابر، وهذا مشهدٌ يورث في النفس انقباضاً، فقد كان يذكّرني في كل لحظةٍ وأنا بعد شابٌ في مطلع الشباب والحياة، يذكّرني بالفناء، ويلحّ على عقلي بحكمة سليمان:

«باطل الأباطيل، فالكل باطل».

ومن أجل هذا الإحساس الدائم بالفناء وبالموت، كان عقلي الباطن يختار أسماءً وعناوين لكتبي توحي بتأثير المقابر عليّ (حصاد الهشيم)، (قبض الريح)، (خيوط العنكبوت).

□ □ □

ـ ٤ ـ

● أنهى المازني دراسته الثانوية، والأسرة الصغيرة كلها على حافة الفقر، ومع هذا فقد أرادت له أمه أن يكون طبيباً:

ـ يا أماه مصروفات مدرسة الطب فوق طاقتنا المادية.

ـ المهم عندي ألا تكون فوق طاقتك الذهنية! فإذا أردت أن تحقق أمنيتي وأمنية والدك فلا تشغل نفسك بمصروفات المدرسة وسأدبرها كما دبّرنا غيرها. اذهب غداً إلى مدرسة الطب وقدّم أوراقك.

● ودخل المازني كلية الطب ولكنه لم يبق فيها غير أيام قليلة

والفضل في ذلك إلى الطبيب الإنكليزي الذي كان يقوم بتدريس مادة التشريح، فبعد يومين من التحاق المازني بالكلية قال لهم ذلك المدرّس:

ـ **سنبدأ غداً بدرس التشريح في المشرحة على الجثث. واعلموا أنها ستكون مكاناً لدراسة المادة لعامين على التوالي، فمن يضيق برائحة الفورمالين وغيره من مواد المشرحة ومعالجة الجثث، ومن فزعة «جو» المشرحة فليروّض نفسه على احتمال ذلك كله من الساعة، وإلا فلا مكان له في الكلية.**

ويكتب المازني عن تلك المرحلة:

تجمّعنا في الصباح على باب المشرحة، كنا خمسة عشر شاباً، أنا أقلهم طولاً وعرضاً، ولكني في عين نفسي كنت أكثرهم شجاعةً ورغبةً في ممارسة عملية التشريح.

وما إن دخلنا حتى رأيت نفسي أتقهقهر بالتدريج، بعد أن صرت في الصف الأول صرت في وسطه، ثم في نهايته، فما إن رأيت الجثث العارية ممددة على الطاولات حتى تذكرت قارب أوزوريس الذي يحمل الجثث إلى عالم الأبدية. . .

وخيّل إلي أن اسمي سينادى به لأرقد في القارب مع الراقدين، وتَصادفَ أن لمست يدي عن غير قصد قدم إحداها، فأحسست بالرعدة في جسدي، ثم لم أعِ شيئاً بعدها، فقد غشي عليّ، وظللت هكذا حتى أعادني إلى عالم الأحياء عامل المشرحة وهو يقول متبرّماً:

ـ أطباء آخر زمن!! مالك ومال الطب يا بني وأنت بتخاف من «البضاعة»؟! فماذا يحدث لك لو علمت أن هذا الذي يرقد أمامنا الآن ويقوم زملاؤك بتمزيق أعضائه بسكاكينهم هو أحد عملاء المشرحة الفقراء، مات فاشترينا الجثة من أسرته. كان زميلي، ومع هذا فأنا الذي وضعته أمام الطلبة على مائدة التشريح!

□ □ □

ـ ٥ ـ

● وكان ذلك آخر عهد المازني بالطب، بعد أن قدّم أوراقه إلى مدرسة المعلمين التي تخرج منها فعُيّن مدرّساً للترجمة في المدرسة السعيدية الثانوية.

كان يكره التدريس شأنه شأن كل المفكرين الذين بدأوا حياتهم به، فبغضوه ومنهم العقاد، وشكري الذي صار ناظراً، والعقاد له مبرراته في بغض التعليم، وكذا شكري الذي تردد كثيراً في طلاق الوظيفة الحكومية، أما المازني فلم يكن يبغض التدريس لعلّةٍ في المهنة ذاتها، وإنما العلة في العاملين على رأس الجهاز التعليمي في ذلك الوقت الذي تفشّت فيه حبائل الوشايات، والتي تعرض لبعضٍ منها المازني في علاقاته مع حافظ إبراهيم شاعر النيل، إذ دبّ الخلاف بينهما دون أن يرى أيٌّ منهما الآخر.

وأصرّ حافظ إبراهيم على أن ينهي مستقبل المازني عندما ذهب

إلى حشمت باشا وزير المعارف، وكان صديقاً له ليشكو المازني بسبب أنه قام بترجمة بعض أشعاره، وغمزه فيها غمزات غير كريمة أمام التلاميذ، فأوصل البعض ذلك إلى حافظ.

ويعلّق المازني على ذلك:

ـ ولكني لم أفعل غير أن شرحت معاني قصيدته في مدح أحمد شوقي بيك الذي نال في ذلك الوقت رتبة «الباكوية»، فقال حافظ بين ما قال يمدحه:

قد كان قدرُك لا يحدّ نباهة

وسعادة فغدا بها محدود

المعنى جميل، لكنه يشكل دليلاً على أن حافظاً كان يحسد شوقي على منزلته وينفس عليه أدبه وعبقريته، وتمنى لو كان مثل طبعه وسليقته، فأغضب ذلك حافظ وقال للوزير:

ـ انقل هذا المدرّس السليط اللسان من السعيدية الثانوية، وامنعه من نشر مقالاته السخيفة في الصحف.

فاعتذر الوزير لحافظ وهدّأ من غضبه.

□ □ □

● وكذلك عملت الوشايات عملها لإساءة العلاقات بينه وبين علي الجارم الذي كان مفتشاً للغة العربية. دخل يوماً على المازني ورآه يكتب على السبورة أبياتاً لابن الرومي، فطلب

منه في أدبٍ أن يشرحها للتلاميذ، ففعل ثم بدأ يترجم أبيات ابن الرومي إلى الإنكليزية، فأدرك الجارم أنه في حصة ترجمة وليس في حصة أدب، فضحك وقضيا ساعةً وبعضها في الردهة يتذاكران أشعار ابن الرومي... ولكن الوشاة أوصلوا إلى المازني أن الجارم قدّم تقريراً يتهمه فيها بتدريس الأدب العربي في حصة الترجمة، وأنه يعتبر ذلك تعدياً على اختصاصات أساتذة اللغة العربية!

لكن المازني ردّ على ذلك بالقول:

ـ رغم إيماني بأنها وشايات كاذبة مفتراة، إلا أنه لا دخان بلا نار، بدليل أنه صدر أمرٌ بنقلي إلى مدرسةٍ بعيدة عن بيتي، فصدّقت ما قيل لي عن حافظ، وسارعت إلى مهاجمته في مقالين متتاليين في جريدة وادي النيل. ولست أدري إذا ما كان تقرير علي الجارم وراء نقلي.

□ □ □

وبعد سنوات كتب المازني نادماً:

ـ أتمنى على الله أن ينسى الناس ما كتبت عن حافظ، فإني على ما كتبت عنه نادم، وأذكر أن أحد الطاعمين على كل مائدة من الوشاة والنمامين، دخل مكتبي يوماً وفي يده صحيفة وقال:

ـ انظر يا أستاذ مازني، فسدت الذمم، وخربت الضمائر!!

يسرقون الناس وهم أحياء، فما بالك بعد أن يموتوا بعد عمرٍ طويلٍ إن شاء الله!!

ـ خير يا أستاذ عمران . . .

ـ يسرقونك وأنت حيّ يا أستاذ مازني!

ـ إنهم والله لكرام، يكرهون لحم الميت.. هيه. ماذا سرقوا؟!

ـ مقالك القديم في نقد حافظ بك. أنصحك بأن تقاضيهم يا أستاذ مازني. قضية مضمونة. لقد أخذوا منك حقك!!

ـ يا سيدي أخذوا «لا شيء». ما أسهل أن يهب المرء «لا شيء».

● لكن المازني لم يندم على نقده للدكتور طه حسين كما أبدى ندمه في شأن حافظ إبراهيم لأنه كتب مرةً أن موضوع خلافه مع د. طه حسين طويل وممتد، وليس مجاله الندم حتى ولا المراجعة، فأساسه لا يزال سليماً على أي حال، تماماً مثل ما قاله العقاد في أعمال طه وإنتاجه.

ومما يذكر أن العقاد والمازني قد هاجما الدكتور طه حسين هجوماً بلغ حد الإسفاف حينما أشارا بلا رحمة إلى عاهة فقدان البصر. لكن المازني يرى غير ذلك فيقول:

ـ البادي أظلم!! طه حسين هو الذي جرّني إلى ذلك حين أشار إلى عاهة العرج التي لازمتني طيلة حياتي.

مع أن المازني نفسه كان أول الساخرين من عرجته في أكثر من موضع، ولكنه يبرز ذلك بالقول:

ـ أليس هذا من عجائب النفس البشرية؟! يسخر المرء من نفسه ويشبعها سخريةً حتى إذا تعرّض لها أحبُّ الناس إليه ثار وأرغى وأزبد. لقد كنت على وشك أن أقطع ما بيني وبين العقاد من علائق الود، لأنه قال لي مرة عن غير قصد، ونحن ذاهبان إلى موعد حان أوانه:

ـ أسرع يا إبراهيم، هذا إذا كان في قدرتك الإسراع!! فقد أغضبني ما قاله أشد الغضب، لولا أنه سارع إلى إرضائي.

ومما يُذكر أن العقاد كان قد خسر صديقاً من أقرب أصدقائه لأنه أشار إلى عرجة المازني بما لا يليق، عندما كان العقاد في مقهى (صولت) الذي كان منتدى لكثيرٍ من المثقفين ومن بينهم الكاتب محمود الدسوقي، وكان من عادة المازني أن يرتاد هذا المقهى، ويحلو له مداعبة النساء، وتحديداً شابة رومية بالمقهى، كان المازني يتودد إليها ويتعمد ملاحقتها بالكلمات كلما مرّت بمائدته، أو جاءت له بطلبات جديدة. وفي إحدى المرات، حاول الدسوقي مداعبتها، فقالت له:

ـ لا أظن أن المازني يرضى بمداعباتك لي!!

ـ وهل ستغدو كلمات الغزل في جمالك محتكرة على ذلك الأعرج؟!!

وقعت الكلمة الجارحة من نفس المازني موقع السهام، وصار وجهه مكفهراً، ولم ينطق بحرفٍ واحد من فرط التأثر، لكن العقاد عندما سمع ذلك احتدّ وغضب وقاطع الدسوقي مقاطعة تامة، ولم يصلح بينهما إلا الموت!!

□ □ □

ـ ٦ ـ

● وهنا سؤالٌ لا بدّ من طرحه ونحن بهذا الصدد، وهو: كيف بدأت هذه الصداقة الأسطورية ما بين العقاد والمازني؟ يجيب المازني عن السؤال:

ـ كان العقاد بعد أن استقال من التدريس يكتب في جريدة الدستور، وكان مقرها (درب الجماميز) على مقربة من المدرسة الخديوية التي كنت أتردد عليها أحياناً لزيارة زملائي بها، وكنت أقرأ للعقاد وأدفع اشتراكي لجريدة الدستور حباً في مقالاته، وإن لم أره قبل ذلك قط. وتصادف أن كنت بالمدرسة حين دخل العقاد الذي بادرني بالقول:

ـ لم أتخيلك هكذا قط يا أستاذ مازني!! لو تخيلتك هكذا، ما قرأت لك!!

ـ وكيف تخيلتني يا أستاذي العقاد إذن؟!

ـ أوتعرف اسمي؟! مع أنه لم ينطق به أحد من الزملاء أمامك؟!

ـ ألست تضع صورتك على قمة مقالاتك؟!

فيضحك العقاد مداعباً:

ـ ولم تصدك صورتي عن قراءة ما أكتب؟!

ـ دعنا من صورتك ومقالاتك، ومقالاتي، خبّرني كيف تخيّلتني فخاب ظنك حين رأيتني؟!

ـ لم يخب ظني، ولكني تخيّلتك من مقالاتك رجلاً كبير السن، شديد الوقار، تناقش الأمور في برود، فإذا بي أجد أمامي فتىً مهندماً يُعنى بربطة العنق عناية الحسناء بقلادتها، ويتكلم عن المرأة في شوق الشباب المهندم.

ـ ويعرج؟!

ـ صدّقني يا أستاذ مازني أنا أتكلم الآن جاداً. فكرك لا يعرج، إني أتابع مقالاتك عن الأدب الفارسي التي كتبتها بعنوان: (**فارس. . شعرها وشعراؤها**)، وأرى أنك تعالج موضوعاً صعباً ببراعة وأمانة، وهو أمرٌ يعوز الأدب هذه الأيام. اسمع يا مازني، لماذا لا تأتي مكتبة البيان؟! إننا نلتقي فيها مساءً كل يوم تقريباً أنا وهيكل والسباعي وطه حسين وعبد الرحمن شكري، لماذا لا تنضم إلينا، سيكون لجماعة البيان شأن في القريب. أنا أسميها «جماعة المجانين»، ويسميها طه حسين كعادته في اللعب بالألفاظ «مجانين الجماعة»، ويعنيني أنا وشكري بهذا. أنتظرك الليلة؟!

ـ ولكني لا أعرف أين يقع «مثوى» المجانين هذا؟!

ـ أمرّ عليك في دارك ونذهب معاً، أين تسكن؟ الذي أعرفه من كتاباتك أنك تقيم على حدود الأبد. تعني ماذا؟!

ـ على حدود الموت. طريقي إلى داري يلزمني بالمرور بين المقابر.

ـ أي مقابر؟!

ـ جبّانة الغفير، أو باب الوزير؟!

ـ الإمام الشافعي.

ـ لن يرضيه أن أمرّ قرب قبره، فلي رأي فيه لو كان على قيد الحياة لما راقه. على كل حال سأمرّ عليك الليلة.

□ □ □

● ومع هذا فقد كانت صداقتهما أسطورية، لا نكاد نعرف لها في تاريخ الأدب العربي والغربي أيضاً ما يماثلها. تشيللي على سبيل المثال كان صديقاً لبايرون، لكن الحسد والغيرة كانتا تبطنان تلك الصداقة الوهمية. . وكان موسييه صديقاً لبلزاك، وما طعن الواحد منهما في أدبه وفي سيرته الخاصة أيضاً بأقسى مما طعن به الثاني.

والغريب في هذه الصداقة أن العقاد كان وفدياً، بينما لم يكن المازني يطيق الوفد، ولم يخلق الخلاف السياسي بينهما خلافاً نفسياً. كان العقاد يمجّد سعد زغلول في صحيفة الوفد التي يكتب فيها، بينما كان المازني يبرز مثالب سعد.

وقد حاول الخبثاء أن يفسدوا بين الصديقين، لكن العقاد مع أنه سريع الغضب ناري المزاج يقول:

ـ لندع السياسة وألا نجعلها تفسد ما بيننا.

بينما كان المازني يحتال على فورات العقاد بالاعتكاف عنه حتى تهدأ نفسه، وقد كتب مرة عن غضبة من تلك الغضبات:

«ولقد قيل إن الصديق نفسٌ ثانية في جسمٍ آخر، وما هي بكلمة صادقة... إن لم تصدق على صداقة سبعٍ وثلاثين سنة أو تزيد مع العقاد، تعاقبت فيها الحوادث بفتنها وأهوالها، بين الوالد وولده، وبين الزميل وزميله، ووقفت دون تلك الآصرة السماوية، لا تبلغ إليها بضربة من ضرباتها، ولا تسعى إليها بنفثةٍ من نفثاتها، ولا تسرع إلا لتزيدها قوةً على قوة، ومناعةً على مناعة، ثم تتركها نفساً واحدة تفترق بالرأي فتلتقي بالشعور، وتفترق بالشعور، فتلقى بالروح».

□ □ □

ـ ٧ ـ

- لو نُصبت محكمةٌ للنقد الأدبي، لكان المازني واحداً من المتهمين بسبب الإكثار من المقالات ذات الموضوعات المتشعبة التي أشار إليه أكثر من نقد، فكانت إجابته:

«إذا كان صدقاً أنني (قارفت) هذا الإثم، فقد أدت مقالاتي هدفها، لأنها مرآة يستطيع المرء أن يرى من خلالها الحياة

المصرية بمزاياها وعيوبها، وتشاؤمها، الحياة المصرية بكل ما فيها منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الثلث الأول من القرن العشرين.

إنني أعرف ما يقوله النقاد الذين أستطيع أن ألخص باختصار ما قالوه عني:

* كان المازني بالأمس خيراً من اليوم، وقد ترك زمرة الأدباء، وانضم إلى زمرة الصحفيين!

* المازني يكتب في كل مكان وفي كل شيء، حتى أصبح تاجر مقالات!!

* المازني لم يعد يهمه إلا ملاحقة السوق أكثر مما تهمه جودة البضاعة!!

حسناً، دعوني أرد على هذا كله بالآتي:

أليس الأديب في بلادنا، وفي بلاد كثيرة غير بلادنا مجبراً على أن يسلك هذا السبيل ليكسب عيشه وعيش أولاده، وليستطيع أن يحيا حياة شبه كريمة، تشعره بأنه مسجّل ضمن البشر؟!

ثم أرد على من يقولون: إن الصحافة قد جنت على أدبي!! ألم تجن الصحافة على أدب هيكل ؟! أو العقاد؟! أو طه حسين ؟!

الصحافة تغري بأمرين: «السطحية» أو بعبارة أخرى اجتناب الغوص والتعمق، والاكتفاء بأول وأسهل ما يرد على الخاطر،

ابتغاء التخفيف عن القارئ، واتقاء الإثقال عليه.

وقد يقول قائل: إن الصحافة تقود الأديب إلى الكسل العقلي، أجيب على ذلك بأن الأديب الصادق مع نفسه ألا يقع في تلك المصيدة، ألا يتوخى مرضاة القارئ العادي، ويحرص على استقلاله الذهني عن مثل هذا القارئ حرصاً شديداً، فلا يدعه يفسد عليه أدبه، ويضيع عليه فرديته، ويفقده قيمته. وإذا كان بعض النقاد هاجموني من هذه الناحية، فهم كرماء، وذوو نخوة، يردون الجميل بأحسن منه، فقد طالما أشبعتهم نقداً وسخريةً، ورويت منهم رمحي غير راحمِ كما يقول المتنبي».

□ □ □

ـ ٨ ـ

- وليس المازني وحده من دافع عن نفسه ليردّ على نقد النقاد ممن يأخذون عليه كثرة كتاباته، بل إن أديباً مشهوداً له بالجدية قد أوجد تبريراً لهذه الظاهرة في أدب المازني، وهو أحمد أمين، الذي كتب يقول:

«كان المازني مضطراً دائماً أن يكتب ليعيش وتعيش أسرته. يعاني المرض، ويعاني الألم، ويحس الحاجة القصوى إلى الراحة، ولكن أنى له الراحة، والعيشة لا ترحم؟! والحكومة لا ترحم؟! والأغنياء لا يرحمون؟!

وتتدفق الأموال على الراقصة الخليعة، وعلى المغني المهرّج،

بينما يعيش الأديب عيشة سوداء كحبر قلمه».

□ □ □

- ويبقى الجانب العاطفي في حياة المازني من الأسرار المغلقة التي يكتنفها الغموض، كما هي الحال مع صديقه العقاد، وإن كان النقاد قد اعتبروا عائشة بطلة قصته (إبراهيم الكاتب) هي حبه الأول والأخير.

وقد رثى المازني الذي وافاه الأجل في عام ١٩٤٩ عدد كبير من الأدباء والشعراء لا يتسع المجال للإتيان على البعض منها، لكنا سنورد أبياتاً لصديقه العقاد من قصيدة طويلة يقول فيها:

قالوا «المازني قضى»، فضلّت
مقاصد قولهم أو ضلّ رشدي
كأن حديث ما زعموا خيالٌ
بعيدٌ في الحقيقة أي بُعدِ
صحبنا العمر عاماً بعد عامٍ
على الحالين من ضنكٍ ورغدِ
وبين تعهدٍ منه ومنّي
وبين تبسطٍ منا وجدٍّ
نمينا شعرنا صنوين حيناً
فكيف رثاؤه بالشعر وحدي

□ □ □

وكثيرون هم من رثوا أنفسهم قبل أن يوافيهم الموت، لكن المازني تميز عنهم برثاء نفسه ساخراً كما ورد في بداية المقال:

أيـــهـــا الـــزائـــر قـــبـــري
اتـــلـــو مـــا خـــطّ أمـــامـــك
هـــا هـــنـــا فـــاعـــلـــم عـــظـــامـــي
لـــيـــتـــهـــا كـــانـــت عـــظـــامـــك

ليو تولستوي
يفر من زوجته وهو في الثانية والثمانين!!..

حين بلغ الثمانين من عمره، شيخاً وقوراً، تضرب شهرته آفاق الدنيا كأعظم روائي أنجبته الأرض الروسية الخصبة بالعبقريات، الوّلادة للكفاءات في كل مناحي النشاط البشري.

كان رغم سنه المتقدمة ممثلاً لكل طموحات الشباب، بل والمراهقين، فعندما سأله أحد تلامذته من الشباب عن سرّ تعايشه مع قضاياهم وهو في الثمانين، قال:

ليس في الأمر سر يا بني؛ فمنذ صباي الباكر وأنا أكره العنف وأدعو إلى السلام. العنف يسرع بكل شيء إلى التعفن والفساد!! مع العنف يصبح الشباب في حالة من الشيخوخة المروعة!! ولكن مع السلام تزدهر ورود الخريف في قلوب كبار السن بنفوس نضرة، وتغدو كالربيع في القلوب!! ولذلك أدعوكم أيها الشباب إلى نبذ العنف وكراهته. حاربوا دعاة الحرب حتى يغدو

العالم كله شباباً ولو بلغ أهله الثمانين مثلي هكذا.

□ □ □

ـ ١ ـ

● ولمناسبة بلوغ تولستوي الثمانين، جاءته إلى قريته بعثة سينمائية لتنتج فيلماً قصيراً عن حياته، فقال لابنته:

ـ أحسنوا ضيافتهم في إيزيانا/ بوليانا ـ وهذا هو اسم مزرعته وفيها قصره ـ ثم أوصاها:

بحق السماء، اذكروا لهم بوضوح أنني لا أريد أن أدخل في حوار حول حياتي الماضية وتفاصيل ظروف كتابة رواياتي!!

فتقول له ابنته:

ـ لماذا يا أبتِ؟! إن روسيا كلها تنتظر كلماتك في أكثر من موضوع يشغل بال الناس!! عن رأيك في الدين؟! في التقاليد القديمة؟!! في حال الفلاحين والحرفيين والعمال؟! في مشروعك الذي وضعت بعض بنوده موضع التنفيذ!! وتنازلت لفلاحي أرضك عن حقوقك؟!

فيجيبها بمرح:

ـ إنك تماماً كأمك العزيزة!! تسمّين تنازلي عن أرضي لمن يزرعونها، تنازلاً عن حقوقي!! ليس لي على الأرض حقوق يا ساشا!! لا على الأرض، ولا على الفلاحين الذين يزرعونها.

وليس هذا اعتناقاً لآراء من يسمونهم سراً البلشفيك. كلا، فهؤلاء يؤمنون بالعنف، وأنا أكره العنف! إنهم يشككون في وجود الله، وأنا أؤمن به إيماناً لا يتزعزع.

فتفاجئه ابنته بالقول:

ـ إن أسقف منطقة تولا جاء مع بعثة السينما ليكذّب من يقولون بأنك تحارب الأرثوذكسية.

فيعلق ساخراً:

ـ هذا الأسقف لديه رغبة كريمة لحماية الكنيسة الأرثوذكسية، ولكنه يحرّف عن غير قصد بعض كلماتي وأقوالي.

فتقول له ساشا بحماسة:

ـ إذاً فقُلها لرجال السينما. ستكون كلماتك هي التصحيح النهائي لأفكارك الدينية.

فيضع يده على كتف ابنته ويسيران معاً لبضع خطوات في حديقة القصر، مواصلاً معها الحوار:

ـ لماذا تسمينها أفكاراً يا ابنتي؟! إنها عقيدة ثابتة، هداني الله إليها منذ مرضت وأنا في الخامسة والأربعين، فصرت قريباً جداً من خالقي. إن الله الذي أحبه، وأعبده، وأتقيه يا ساشا هو ليس الله الذي تصوره الأفكار الجامدة، والثوابت القديمة.

وحين أسبغ الله عليَّ ثوب الصحة، أبيت أن أحيد عن طريقه

بالاستماع إلى تعاليم الأساقفة وما يصورونه عن الله في مخيلتهم، الذي جعلوا منه محققاً لمصالحهم.

لقد عرفت ربي، ولا أريد أن أناقش أحداً في كيف عرفته. أعتقد أنه سبحانه لا يريد أن يناقش الناس وجوده بالأساطير، والخرافات. إنه هو الدليل على وجوده.

□ □ □

ورفض أن يقابل رجال بعثة السينما، لكنهم صوروه خلسةً وهو في الحديقة، ومن المحزن أن يضيع ذلك الفيلم مع ما ضاع حين اقتحم البلشفيك في ثورتهم دار المحفوظات القيصرية. إلا أن ابنته تاتيانا في كتابها الرائع عن أبيها، زينته ببعض مناظر ذلك الفيلم التي صُوِّرَت خلسةً أثناء حديثه مع أختها ساشا خلال زيارة البعثة.

ومن أجمل فصول كتاب تاتيانا عن أبيها، تصوير ذلك الحب العنيف والصادق الذي دخل حياته واستقر في قلبه ووجدانه لوالدتها صوفيا، وهو لا يزال من أروع قصص الحب الصادق وأمتعها، رغم فراره منها وهو في الثانية والثمانين من عمره.

تُرى، لماذا فعل تولستوي ما فعل؟! لماذا خرج من قصره الأنيق في مزرعة إيزيانا / بوليانا في صقيع الشتاء، هارباً من ذلك الحب؟

□ □ □

ـ ٢ ـ

● ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر عام (١٩١٠)، وفي الساعة الثالثة قبل بزوغ الفجر، استيقظ تولستوي من نومه على حركة غامضة في غرفة مكتبه الملحقة بالمخدع، ومن وراء بابها كانت تأتيه أصوات أشبه بتقليب أوراق، وفتح أدراج وإغلاقها بحرص!!

كتب في صباح ذلك اليوم في دفتر مذكّراته:

«كانت تفتش في أوراقي!! لماذا يا صوفيا؟! لماذا؟ أيلزم أن تعرفي كل خلجات قلبي؟! وكل خطرات فكري؟! إننا كثيراً ما كنا نتناقش، نختلف في أشياء، ونتفق في أشياء أخرى، ولكن حبك في قلبي لا يزال مزدهراً، كما رأيتك لأول مرة، وأنت في السابعة عشرة!!

أعرف أنك تحبينني، وأنني أغلى وأثمن شيء في حياتك. لماذا إذن تصرين على التجسس، وتقرأين كل ورقة في مكتبي؟

وأغرب ما في حبيبتي صوفيا أنها بعد أن انتهت من تفتيش أدراج مكتبي، كانت تتسلل على أطراف أصابعها، خشية أن توقظني، ثم تفتح برفقٍ الباب المؤدي إلى مخدعي، وأنا أصطنع النوم، لتقول لي بهمسٍ: «هل أنت مستيقظ يا ليو؟! أتريد شيئاً يا عزيزي؟!»، ولم أرد عليها حتى لا أحرجها بعلمي بفعلتها.

وبعد خروجها اتجهتُ إلى مكتبي لأفحص دفتر مذكراتي اليومية

الذي وضعته في درج خاص لا تملك صوفيا مفاتيحه، رغم أنها لا تنتقل إلى أي مكان إلا وفي حزام وسطها سلسلة مفاتيح كل الدار، بل حتى مفاتيح المخازن، أبت أن تسلمها لرئيس الخدم، وحين لُمتها على ذلك، قالت:

«كانوا يسرقونك، والباب المفتوح يغري بسرقة ما فيه!!».

ومنذ أربعين سنة والمفاتيح لا تفارق حزامها أبداً».

□ □ □

● ثم أخذ تولستوي يقلّب كراسة يومياته التي لم يطلع عليها أحد إلا بعد وفاته، وتوقف عند تاريخ الثامن من يناير ١٨٦٩ يوم أخبره الناشر أن رائعته (الحرب والسلام) قد تُرجمت إلى الإيطالية، وأنه يستعد للطبعة رقم (٣٥) باللغة الروسية، ويومها كتب في دفتر تلك اليوميات:

«شيئان هما إكسير حياتي: حبي للتعبير عن أفكاري بالكتابة الروائية، وحبي لزوجتي الحبيبة صوفيا أندريفنا.

ماذا يريد المرء من حياته أكثر من ذلك؟! لقد سعدت بحبي لصوفيا!!

وسعدت بأبنائي!! وسعدت بهذه المزرعة الكبيرة، وبالشهرة، وبالثراء، وبالصحة، وبالسلامة البدنية والعقلية.

ولكنني أحسّ بأن حياتي قد توقفت فجأة!! لم تعد لدي رغبة

في شيء. والحقيقة أن الرجل العاقل لا يجب أن يرغب في شيء! إن الحياة نفسها وهم، وأنا قد بلغت الحافة التي لا أجد بعدها إلا الموت.

أجل، هذا صحيح. الحياة وهمٌ كبير!! وها أنذا المحسود على الثراء، وعلى السعادة والشهرة، وعلى حبي لزوجتي!! بتُّ أشعر بأنه لم يعد من حقي أن أعيش أكثر مما عشت!!».

□ □ □

● منذ ذلك اليوم، يوم الثامن من يناير عام ١٨٦٩ لم يفارقه هذا الهاجس قط! هاجس أنه عاش أكثر مما يجب أن يعيش! وها هو في هذه الليلة، بعد ٤١ عاماً مضت على ذلك الهاجس، يكتب في دفتر مذكراته:

«النهاية! باتت قريبة جداً! أشعر بأنني ذاهب للقاء ربي بعد أيام قليلة!! ربما بعد ساعات!!

لقد عشت طويلاً جداً!! أطول مما يجب!! اثنان وثمانون عاماً، ومن المحزن أن أضطر إلى الفرار من حبي الوحيد، من صوفيا أندريفنا، أمّ أولادي وحبيبة قلبي.

لم أعد أحتمل محاولاتها الدائبة للتجسس على كل خطرات فكري، وبات إحساسي بضرورة الفرار إلى المجهول يتزايد إلى الحدّ الذي يدفعني إلى التنفيذ السريع لهذا القرار. في الغد سوف أرحل!! أجل، يجب أن أرحل. أعرف أن صوفيا ستتألم

كثيراً! ولكنني أنا أتألم كذلك، وربما أكثر مما تتألم هي!! ويجب ألا يعلم بمشروعي هذا إلا ابنتي ساشا. إنها لا تعارضني، لأنها الوحيدة التي تدرك ما وصل إليه حنقي من هذا القفص الذهبي الذي سجنتني فيه أمها المحبوبة إلى قلبي».

● وعاد إلى فراشه محاولاً النوم، وفي الصباح كان يشارك صوفيا على مائدة الإفطار الفاكهة وشراباً من عصير بعض الأعشاب المهدئة لتقلصات المعدة، فصاحت به بلهجة الآمرة الناهية:

ـ إنك لم تشرب كل ما في القدح يا ليو؟! فأنت تشكو من المعدة منذ أيام، فلماذا لا تطيع أطباءك وتستمع إلى كلامي؟!

يتوقف عن الطعام والشراب ناظراً إليها:

ـ يا صوفي، يا عزيزتي، يا حبيبتي، أنا أدرى بحالتي من الأطباء. إنهم يقولون إن الداء في معدتي، وهذا كذب. الداءُ في هذا الضعف الذي أحالني حطاماً مهدماً، حتى بتُّ لا أقوى على إصلاح بابٍ قديم!

لأن العلم الطبي في روسيا ما زال متخلفاً، وكم دعوتُ إلى الانفتاح السريع على العلوم الطبية في كلٍّ من ألمانيا وإنجلترا وفرنسا!

فتجيبه صوفيا وكأنها لم تسمع ملاحظته:

ـ إنّ ما يستطيعه أي طبيب أجنبي يستطيعه الطبيب الروسي!

فيبتسم تولستوي ويقول لها:

ـ كيف تكونين يا صوفيا بعد هذه السنوات بهذا المستوى من التفكير، مع أنك اعتنقت بعض آرائي التي يسميها من يكتبون عني، أنها آراء وطنية؟!

تردّ عليه:

ـ أنا أعتنق بعض آرائك، ولا كل آرائك. وأنت تعلم يا ليو، أنني من أشد المؤمنين بتعاليمك، إلا ما يتعلق بالتنازل عن أملاكنا للفلاحين.

فاستثارت ملاحظتها هذه حفيظته، طالباً منها عدم مناقشته في هذا الأمر، فترفض الصمت وتستمر قائلةً:

ـ يجب أن نناقشه يا ليو تولستوي. لماذا تريد أن تدع أولادك للفقر؟!

فيخفف من لهجته وينظر إليها وعلى وجهه ابتسامة طافحة بالحب:

ـ يا صوفي، يا حبيبتي، لقد ناقشنا هذا الأمر مع أولادنا، وما اتخذته من قرار فلا رجوع فيه. وقال مواصلاً كأنه يخاطب نفسه: ولست أدري ماذا ستفعلون بعد أن أموت.

فارتفع صوت صوفيا محتجةً:

ـ لماذا تتكلم عن الموت هذه الأيام يا ليو؟! أنت في صحة جيدة! ليس بك إلا هذه الاضطرابات المعدية.

ـ كلا يا صوفيا. العلّة ليست في المعدة. إنها هنا!!.. في القلب.. لم يعد هذا العضو العجيب يدبر أمور جسدي ببراعته القديمة.

ـ ما هذا الهراء يا ليو؟! قلبك سليم مئة في المئة، ولا تكثر في الكلام عن الموت.

□ □ □

● وقضى بقية يومه على كرسيه في الحديقة، وكان يدّعي أنه بصدد كتابة روايةٍ جديدة، ولكنه في واقع الأمر كان يكتب مسوّدة الرسالة التي سيتركها لزوجته الحبيبة قبل أن ينفذ قراره بمغادرة إيزيانا/ بوليانا.

وحين عاد إلى مكتبه في المساء، جلس يخط الرسالة التي زعم أنها رواية جديدة، وكتب:

«حبيبتي صوفيا، أعلم أنك ستتألمين كثيراً لرحيلي، وأنه ليحزنني ذلك أشد الحزن، ولكنني آمل من كل قلبي أن تدركي الأسباب التي تدفع بي إلى ذلك الرحيل، الذي لم يكن أمامي من وسيلة سواه لتلافي مأساةٍ قد تكون مفجعة.

لقد غدا وضعي في هذا البيت غير محتمل يا صوفي. لم يعد

في قدرتي ممارسة الحياة اليومية في هذه الرفاهية التي تحيط بي، وبات الثراء يخنقني. وقد طال صبري على هذا، حتى انقطع رجائي في مزيد من الصبر يقيني شرّ اليأس من عالمٍ تشهيته كثيراً، كما يتشهاه كل عجوزٍ بلغ السن التي بلغت!

وما أنشده هو عالمٌ من السكون والوحدة، لا يفسده ضجيج المال، وأنانية الثراء ووحشية الرغبة في التملك!! أريد أن أقضي الأيام الباقية لي من العمر في سلام.

صوفي، ما أهدف إليه من رسالتي هذه أن أذكركِ كيف بلغ بكِ الولع بإدارة شؤون المزرعة لدرجة أنكِ صرتِ تقضين يومك كله وجزءاً من الليل، وأنتِ تتفقدين شؤونها، وتناقشين الفلاحين، وتحاسبين تجار الغلال، وتشرفين على مخازن المحصولات، وتراقبين الخدم، حتى صار منظركِ وأنتِ تسيرين متنقلة بين أرجاء المزرعة والقصر، وسلسلة مفاتيح كل الأبواب معلقة في وسط حزامكِ، وكأنكِ أشبه بسجانات العصور الوسطى! ولا تريدين أن تدركي أنني أحبك حباً صادقاً وحقيقياً وأريدك أن تكوني إلى جانبي ونحن في هذه المرحلة من العمر!

أرجوك يا صوفيا، لا تحاولي البحث عن مكاني الذي سأذهب إليه، من أجل إعادتي إلى إيزيانا/ بوليانا، فإن هذا لن يفيد أحد شيئاً، بل سيزيد من تعاستنا جميعاً، كما أنه لن يغير من عزمي عن الرحيل.

وإني لأشكرك كل الشكر على الثمانية والأربعين عاماً من الحياة الأمينة الكريمة التي أسعدِتني بها!

وأتوسل إليك أن تغفري لي كل ما ارتكبت من أخطاء في حقك! مثلما أغفر لك عن طيب خاطر غضبك ومعارضاتك الشديدة المتعلقة بقراري في التنازل عن أملاكي الشخصية للفلاحين!

وأنصحك يا حبيبتي بإخلاص، بأن تحاولي التعايش في سماحة مع الموقف الجديد الذي سينشأ برحيلي، وألا تحملي لي بسببه في قلبك أية ضغينة، أو كراهية، وإذا أردت أن تعرفي شيئاً عن أنبائي بعد أن استقرّ في المكان الذي سأرحل إليه، والذي لا أعرفه إلا بعد أن أصل إليه، فستجدين بغيتك عند ابنتنا العزيزة ساشا، فهي وحدها التي سأخصها بذكر مكان حياتي الجديدة، وقد وعدتني بألا تذكر لك أو لسواك عن موقع مكاني».

ووضع الرسالة مطويةً فوق مكتبه ليعطيها لساشا قبل رحيله، ثم ذهب إلى مخدعه ونام نوماً متقطعاً، إلى أن حانت ساعة الرحيل لتبدأ محنة الكاتب العظيم ليو تولستوي.

□ □ □

ـ ٣ ـ

● قال لطبيبه:

ـ دكتور ماكوفتسكي، لن نحمل معنا أشياء لا ضرورة لها.

هل فكرت يا ليو جيداً بالعواقب المترتبة على هذه الرحلة؟ أعني صحتك أنت لم تعد ذلك الرجل الذي كان يقضي الساعات في قطع الأخشاب بالغابة، وإنك معرّض لنوبات قلبية قد تصل إلى حد الخطورة.

ـ رداً عليك. حسناً، لنستعد في غضون نصف ساعة. ساشا أعدت كل شيء، وسوف أرتدي ثيابي ونرحل. . .

● في هدوء. . اقترب من غرفة ابنته، التي كانت في انتظاره، وكان واضحاً، أنها لم تنم ليلتها تلك، حيث بدت أمارات الإرهاق على ملامحها.

وما إن اقترب منها، حتى بادرته بالقول:

ـ أبتِ، أما زلت مصراً على ضرورة ما أنت مقدمٌ عليه؟!

ـ ساشا، لن نناقش هذا من جديد، يجب أن نسرع قبل أن تشعر أمك بما يحدث، تعالي ساعديني في حزم الأمتعة.

□ □ □

● وتمّ كل شيء، لرحيل الكاتب الكبير. . ابن الثانية والثمانين، الفنان، الإنسان، الذي يفرّ وهو في أيامه الأخيرة، يفرُّ من الثراء، والرفاهية، والرقابة المفرطة من الزوجة المحبة، يفرّ إلى المجهول.

إنها أعجب مغامرةٍ (طائشة) في تاريخ الأدب العالمي.

قبل أن تتحرك العربة قال تولستوي بانفعالٍ شديد لابنته:

ـ ساشا، لا تنسي، احتفظي بكل أوراقي، مسودات رواياتي، يومياتي، أوراق روايتي التي بدأتها منذ أسبوعين ولم أتمّ منها إلا الفصل الأول، إذ سأكتبها في ما بعد.

فتجيبه باكيةً:

ـ اطمئن يا أبتِ. أرجوك، لا تترك نفسك لهذا الانفعال المثير. إنه ضار بصحتك.

فيحتضنها معانقاً إياها ويقول:

ـ اطمئني يا ساشا، سنلتقي في أقرب مما تتصورين!!

□ □ □

انطلقت العربة نحو المجهول. كانت ساشا تظن أن أباها يعرف وجهته، ولكن الكاتب الكبير شُغل عن هذا برغبته الجامحة في الانطلاق بعيداً قدر الاستطاعة عن إيزيانا/ بوليانا، وعن صوفيا.

وبزغ أول نور للفجر وهم يسيرون في الطريق الوحيد الخارج من المزرعة إلى الجنوب، وبينما كانت العربة تسير بهم، توجه الدكتور بسؤال **تولستوي**:

ـ إلى أين نتجه؟

ـ إلى أبعد مكان عن إيزيانا/ بوليانا وعن صوفيا.

- هل تعني أنك لم تحدد وجهتك؟! أهذا معقول؟! أي خطة هرب هذه يا ليو؟

- لنتجه إلى محطة قطار شيتشكينو.

بعد أن فكر في عدم الاتجاه ناحية الجنوب، ابتعاداً عن منطقة شاماردينو حيث تقيم أخته ماريا، فيسهل على صوفي اللحاق به هناك. لكن مدير المحطة أخبره أن عليه أن ينتظر لأكثر من ساعتين إذا كان سيأخذ القطار المتجه إلى الشمال، فانتابه الرعب:

- ساعتين؟! هذا يزيد من فرص صوفي في العثور علينا!

ولما اقترح عليه الدكتور أن يقضي الوقت في مكتب مدير المحطة.. قال تولستوي:

- كلا كلا سيعرف من أنا على الفور، وقد يداخله الشك، فيتصل بصوفيا، فنفاجأ بها أمامنا قبل وصول القطار، يستحسن أن نبقى هنا.

لكن الدكتور ينصحه بعدم الوقوف في الريح المثلجة، لأن صحته لن تحتمل هذا الجو القارس.

فيجيبه:

- سأحتمل كل شيء.. كل شيء.

□ □ □

وفي القطار جلس الكاتب الكبير مع صديقه الدكتور ماكوفيتسكي في مقعدين بالدرجة الثانية، ورغم محاولته إخفاء وجهه بالياقة العريضة لمعطف الفراء السميك، فقد أخذ بعض الركاب يتفرسون فيه كأنما يريدون أن يعرفوا حقيقة هذا الشيخ الهرم الذي يشبه كاتبهم الكبير المحبوب **ليو تولستوي**. . .

ودرءاً لمخاوفه من اكتشاف شخصيته يطلب من صديقه الدكتور أن ينتقل إلى عربات الدرجة الثالثة، لكن ماكوفتسكي يبدي عدم موافقته على الفكرة؛ فالجو قارس، ونوافذ الزجاج في الدرجة الثالثة محطّمة، وإنه يخشى عليه من أن تتسلل الريح إلى جسده عبر النوافذ المفتوحة.

إلا أن تولستوي العنيد يصرّ على رأيه. فذلك أفضل من أن يعرفه أحد من ركاب الدرجة الثانية ويفتضح أمره، فتعرف صوفيا وجهته.

وما هو إلا وقت قليل، حتى وقع ما كان يخشاه؛ فكل ركاب عربة الدرجة الثالثة تعرفوا إلى كاتب روسيا الأشهر، الرجل الذي عبّر عن أحلام الفقراء وآمالهم في معظم أعماله الروائية، فمَن لم يقرأها منهم سمعوا بها أو استمعوا إلى فصول منها من الرواة والأدباء الشعبيين في المقاهي أو في عربات القطارات، التي تسري في كل أنحاء روسيا الشاسعة كما تسري الشرايين والأوردة في الجسم البشري؛ فالقطار كان بطلاً في الكثير من الأعمال الأدبية الروسية.

تحلقوا حول كاتبهم المحبوب، وهتفوا له، وأخذوا يتسابقون في إهدائه ما حملوه من أطعمة. وحاول الدكتور ماكوفيتسكي إقناعهم بإعطاء الأديب فرصةً للراحة، ولكنهم لم يستجيبوا لرجائه، فابتعدوا مسافة نصف متر عن مقعد محبوبهم الكبير، ثم شرعوا يمطرونه بأسئلتهم عن أفكاره، وآرائه، وأخذت الأسئلة تتلاحق.

- **كيف يمكن تطبيق مذهب اللاعنف وحكومة القيصر تصرّ على الحرب في الشرق الأقصى؟!**
- **أهناك من أمل أن يساهم كبار الملاك في إنشاء بعض المدارس الابتدائية لأولادنا في مزارعهم وقراهم؟!**
- **لقد قبضوا على زوجي، وألقوا به في السجن بعد أن جلدوه لأنه لم يستطع تقديم إيصال دفع ضريبة العام الماضي؟! أتوسل إليك أن تكتب طالباً الإفراج عنه.**
- **أيها الأب الكبير الرحيم إننا نحبك، ونقدرك، ولكننا على ثقة من أنه لا فائدة من كل ما تقول وتكتب، مع وجود النظام القيصري القهري، ولأننا نحبك ولا نريد أن نفسد**

حياتك بمشاكلنا، لا نرى لك إلا أن تعتزل هذه الحياة الفاسدة في أحد الأديرة.

أليس هذا هو السلام الذي تنشده؟!

كانت ابتسامته الوديعة هي الإجابة عن كل تساؤلاتهم، إلا أن

ملامحه بدت مرهقة!! ستُّ ساعات من الصخب وهو يستمع إلى هذه الآراء الثائرة المتناقضة، والحوارات الجانبية الغاضبة والساخطة أحياناً، حتى أوشك أن يغمى عليه من رائحة الدخان، فهمس الدكتور ماكوفيتسكي في أذنه:

ـ في المحطة القادمة سننتقل إلى الدرجة الثانية مرة أخرى.

فالتفت إليه باسماً:

ـ **المهم أن نبتعد عن صوفيا! أجل هذا هو المهم! ليس هناك يا سيرغي ماكوفيتسكي ما هو أغلى من الحرية.**

□ □ □

ـ ٤ ـ

● وبلغ القطار قرية كوزيلسك فقال له الدكتور:

ـ هذه آخر محطة للقطار يا ليو. سنضطر إلى البقاء فيها إحدى عشرة ساعة في انتظار القطار السريع.

فيصيح تولستوي:

ـ **كلا. كلا. كلا. لن أقيم في كوزيلسك كل هذه الساعات، ففيها مزرعة كبيرة لصديقي تورجنيف، وستعرف صوفيا على الفور بمكاني!**

ثم يسأل عن المحطة التالية، فيعلم أنها أوبتيينا، وفيها دير ونزل

صغير يستقبل الزوار، فيقترح الدكتور أن يستريحا فيه ليومين أو ثلاثة.

□ □ □

وبينما كان تولستوي مع صديقه الدكتور في غرفتهما الصغيرة في النزل الريفي الملحق بالدير، كتب في دفتر يومياته:

«**ما أجمل الشعور بالأمان والاطمئنان! ماذا يريد المرء من دنياه أجمل من هذا؟! القوت الضروري! والأمان! ما أسعدني!**

وتمدد على الفراش لينام، وكان يدرك أن صوفيا أندريفنا ستفعل المستحيل كي تلحق به لتعيده إلى إيزيانا/ بوليانا، وظل الهاجس يراوده بأن يفاجأ في أية لحظة يُطرق فيها باب الغرفة الصغيرة عليه ليجد نفسه وجهاً لوجه أمام صوفيا.

□ □ □

ـ ٥ ـ

- لا نكاد نرى في تاريخ الأدب العالمي فعلة غير محسوبة العواقب كتلك التي فعلها ليو تولستوي عبقري الرواية الطويلة، الذي عاش اثنتين وثمانين سنة في الرفاهية والثراء، وفي ظل شهرة عريضة لم يحظ بها أحدٌ في تاريخ الأدب العالمي، غير قلة قليلة من الكتاب والشعراء والأدباء. لم تحرمه الحياة شيئاً، وكانت كل مقومات الحياة السعيدة عند أطراف أصابعه، فإلى جانب الثراء كانت هناك الزوجة المحبة

والأبناء العطوفون، والشهرة المدوية المصحوبة بحب كل من عاصره على أرض روسيا، حتى الذين هاجمهم في رواياته وانتقد سلوكهم، أحبوه وعبّروا عن احترامهم لـه، وحصل عن جدارة، على لقب (أبو الشعب)، وأبو الشعب ـ في ذلك الزمن على أرض روسيا ـ لم يكن غير القيصر نيقولا الثاني، الذي كتب إلى تولستوي تحت ضغط أدبي من زوجته القيصرة ومن أبنائه، وخاصة من ولي عهده المريض الأمير أليكسيس:

«يسعدني أن أهنئكم بعيد ميلادكم الثمانين، وآمل أن يساعدني الله على تحقيق الكثير من مشروعاتكم البناءة لخير الشعب الروسي الذي يعتبركم أباً (ثانياً) له».

تهنئة القيصر هذه تتضمن معاني كثيرة، اعترافاً بمشروعات تولستوي التي اتخذها في شأن الأراضي الزراعية، وحق من يعمل فيها في شيء من خيراتها، وامتناناً لما ذكره **تولستوي** في روايته (الحرب والسلام) عن دور القيصر ألكسندر الأول، جدّ القيصر نيقولا الثاني في تحقيق النصر على جيوش نابليون بونابرت، وتتضمن رسالة القيصر قبل كل هذا وذاك، على غيرة قاتلة من اللقب الذي منحه الشعب لكاتبه المفكر الجريء ليو تولستوي، فكلمة: **(إنك الأب الثاني)** تحمل معنىً ضمنياً، بأنني أنا الأب الأول للشعب الروسي.

□ □ □

ويمرّ عامان على هذا التكريم العالمي للكاتب العظيم، ويبلغ العام الثاني والثمانين من عمره، وإذا به يسأم من كل شيء، ويضيق ذرعاً بكل شيء، فقد سئم الشيخوخة وأمراضها، سئم الثراء العريض وتكاليفه، وسئم خرافات الكنيسة وثوابتها التي يلحّ بها الأساقفة على الناس، وسئم التجسس اللصيق، وهذه الرقابة الخانقة على ساعات حياته، على أوراقه، وعلى أحاديثه مع أصدقائه وأنصاره، تجسسٌ مشين، وممن؟! من المرأة الوحيدة التي أحبته وأحبها منذ خطبها، من صوفيا أندريفنا زوجته التي لم يشرك سواها في قلبه على مدى أربعة وأربعين عاماً.

- ولعلّ من المناسب قبل أن نواصل الرحلة مع **تولستوي** الذي فرّ من عالمه وهو في الثانية والثمانين من عمره، أن نعود نصف قرن إلى الوراء لنقف على الأحداث التي جمعته بصوفيا أندريفنا، تلك الشابة الجميلة العاطفية وكيف وقعت في غرام ذلك الضابط الثري والكاتب المرموق (ليون **تولستوي**).

الفرق بينهما ١٦ عاماً، هي في السابعة عشرة لم تغادر قط منزل الأسرة ومزرعتها إلا لزيارة جدّها لأمها في مزرعته البعيدة، وهي لا تعرف شيئاً عن عالم الرجال.

أما هو، فصاحب تجارب ومغامرات! إذا نزل موسكو تهافتت عليه راقصات الباليه، فهو فوق قوته الهرقلية، وشبابه المتوثب، وشهرته كروائي، تعترف أوروبا كلها بتفوقه، نجده شديد

السخاء مع من يهفو إليها قلبه، لأسبوع أو لأسبوعين، ثم يدخلها غابة النسيان في فكره ويتفرغ لقلمه.

كانت تانيا شقيقة صوفيا، تخشى عليها من هذا الحب العارم الذي لا تؤمَن عواقبه مع رجل مثل تولستوي، فهو لم يبح لها قط بما في قلبه. فتانيا ترى أن أختها غرّة وساذجة، وتولستوي هذا إلى جانب علاقاته الواسعة مع النساء، فإنه يكبر صوفيا بـ ١٦ عاماً، حتى إنه ليشاع أن أسرة القيصرة تتحبب إليه، وتدعوه إلى مزارعها الكثيرة، أملاً في أن يطلب يد إحدى الأميرات. وقد عبّرت تانيا عن رعبها من نظرات تولستوي لشقيقتها الكبرى المخطوبة لأحد ضباط الجيش، وتساءلت:

ـ أهو يسعى إلى صوفيا الرقيقة التي قد لا تتردد في قتل نفسها إذا ما فاتها الزواج منه؟! أم أنه يريد إقامة علاقة مع ليزا المتكبرة والمغرورة؟!

وتولستوي لا يفصح عما يريد!! أو لعله يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى. أكان يفاضل بين ليزا وصوفيا؟، أم بينهما وبين الأميرة أولغا بنت أخت القيصرة؟

□ □ □

ـ ٦ ـ

● ذات يوم ذهب تولستوي إلى دار أسرة صوفيا، واستُقبل بما اعتاده من أفراد الأسرة كلها بحفاوة وإشراق ـ باستثناء ليزا ـ

التي تعمّدت تحيته ببرود، كأنما هي تختبر حقيقة مشاعره نحوها، ففاجأهم بما لم يتوقعوه بالقول:

ـ يسعدني أن تقبلوا دعوتي لزيارة مزرعتي إيزيانا/ بوليانا.

فعبّرت صوفيا عن فرحها باندفاع:

ـ أحقاً يا كونت؟! لقد سمعت عن مزرعتك الكثير، وطالما تمنيت أن أراها.

وقالت الأم:

ـ إنها أشهر المزارع القريبة من موسكو يا كونت تولستوي، ويقال إن الدار الكبيرة فيها أكثر من أربعين غرفة، ونشكرك على هذه الدعوة الكريمة، وسيكون من دواعي سعادتنا أن نقضي معك ومع السيدة الكريمة والدتك الكونتيسة (ليوبوفا) وقتاً ممتعاً.

□ □ □

وفي الموعد المحدد كان تولستوي في انتظارهم بالعربات التي ستقلّهم من محطة القطار إلى مزرعة إيزيانا/ بوليانا.

وتكتب تانيا شقيقة صوفيا في دفتر مذكراتها:

«كنا نحن البنات في مقدمة الركب، بينما كانت أمي في عربتها بين أبي وبين الكونت تولستوي. وبعد ساعات من المسيرة التي طوينا خلالها أكثر من ٤٦٠٠ هكتار من الأراضي الزراعية،

أمضينا أياماً ما بين المزارع والحقول التي شهدت صبا تولستوي الباكر وشبابه، وأقمنا في دارها الكبيرة التي كانت دائماً تمثل قيمة رائعة في فن العمارة، وقد سألت والدتي تولستوي في ما إذا كان هناك من يشاركه هذه الأملاك الواسعة، فأجابها بأنه الوريث الوحيد، لكن أمه هي المتصرفة في كل شيء، وفي كل مناسبة كانت تطالبه بأن يرفع عنها هذا العبء لأنها تعبت في إدارتها، وخاصةً بعد أن قام تولستوي بتمليك الفلاحين للأراضي فأصبحوا أحراراً. ومن أجمل ما قاله في ردّه على والدتي «أن والدته كانت سعيدة بسعادة ٣٥٠ أسرة تحررت من أبشع قيد على روح الإنسان، قيد العبودية».

- أما صوفيا، فقد كان هيامها وغرامها بتولستوي قد سربلها حتى باتت لا ترى منه فكاكاً. السعادة الغامرة التي عاشتها في تلك الأيام، أيام زيارتها لمزارع تولستوي.

ليو تولستوي، هذا الاسم الجميل. كانت تسرع الدموع إلى عينيها الجميلتين لمجرد ذكر اسم الحبيب الذي أشرف بنفسه على راحة ضيوفه. وقد كتبت صوفيا هي الأخرى في يومياتها:

«كانت الضيافة في قصر المزرعة من غاية الروعة. وتيسرت لنا القيام بزيارات لبساتينها اليانعة، فأكلنا من فواكهها التي جمعها لنا الكونت تولستوي بيديه في سلة كبيرة. كنت أرقب الكونت في كل حركاته. كان مثال القوة والنشاط والحيوية، تحدوه رغبةٌ صادقة في إسعادنا بلا تكلّف. في أثناء العودة سرتُ معه قليلاً.

ولولا أن والدتي وليزا كانتا ترقبانني، لأمسكت بيده. لم يكن هناك من هو أسعد مني وأنا أرمقه وهو يساعد في إعداد فراش أختي تانيا بوضع مزيدٍ من المخدّات. وكم فكرت فيه قبل النوم، وحلمت به أثناء النوم، وفتحت عينيَّ عليه بعد أن تيقظت».

□ □ □

وعادت أسرة أندريفنا إلى مزرعتها، ولم يكن أحد يتوقع أن يلحق بها الكونت ليو تولستوي بعد يومين اثنين فقط من زيارتهم له.

وكتبت تانيا شقيقة صوفيا في مذكراتها:

«أحسست بأن تولستوي لم يأت بهذه السرعة لزيارتنا إلا ليطلب الزواج بأختي (صوفيا)، ولكنه لم يفعل. وأدركت بعد ساعات من الزيارة أنه يتحين الفرص ليخلو بها. يريد أن يخلو بصوفيا، وأن يصارحها بحبه، ويسألها عما تكنه ناحيته من عاطفة. غريبٌ أمر تولستوي هذا. كيف لم يفهم مدى تعلق صوفيا وشغفها به وهو الذي يعالج في رواياته أشد العلاقات الإنسانية تعقيداً وخاصةً بين الرجل والمرأة؟! حاولت جهدي أن أمكنها من لقاءٍ بعيد عن رقابة أمي وشقيقتي ليزا!».

□ □ □

أما تولستوي نفسه، فقد كتب في يومياته عن تلك الليلة القدرية في حياته:

«كنت أريد أن أعرف حقيقة عواطف صوفيا نحوي. إنها لا تفارقني بنظراتها، ولكن هذا لا يعني الكثير؛ فالفتيات في مثل سنها يتخبطن عادةً في دوامة الانفعالات إذا أحسسن باهتمام رجل بعينه، وهذه هي طبيعة المراهقة. يا إلهي! ما أبعد الفرق في العمر بيني وبينها! إذا رفضتني فلن يكون ذلك إلا بسبب فارق السن. ولو كان في المزرعة القريبة من مزرعة أسرة أندريفنا شباب قريب منها في السن لما شغلت نفسها بي. ثم، ماذا يدفع شابة جميلة رقيقة مثل صوفيا نحو رجلٍ أجمع الناس على بشاعة أنفه، وليس فيه أي شيء من سمات الوسامة؟! كان يجب أن أسألها وأعرف إجاباتها بوضوح وصراحة».

□ □ □

● وما كتبته تانيا في مذكراتها عن الأحداث في ذلك اليوم:

«... كنت قد ذهبت إلى غرفة الموسيقى بالطابق الثاني حتى أفسح المجال للكونت تولستوي ليخلو بصوفيا، ومن عجبي أنهما لم يختارا للقائهما غير غرفة الموسيقى. وما إن دخلا معاً، حتى اختبأتُ خلف البيانو بحيث لا يريانني، وتوقعت أن يمسك بيدها أو يصارحها بمشاعره تجاهها، أن يكشف لها عن حقيقة عواطفه بأسلوبه الفني الذي اعتدناه منه في رواياته. ولكنه كان كالصبي المضطرب الذي يجلس لأول مرة في حياته مع صبيّة صغيرة! وقف أمام منضدةٍ كبيرة وسط القاعة وقال لها:

ـ آنسة صوفيا، هل تستطيعين تكوين جملةٍ كاملة إذا كتبت لك الحروف الأول من كل كلماتها؟

فأجابته بمرح:

ـ لعبة الحروف؟! إنني أجيدها يا كونت، فأنا أتفوق على كل أفراد أسرتي في هذه اللعبة. وها هو الورق والقلم أمامك. واكتب ما بدا لك. ولكن ما هو الرهان؟

أجابها بصوتٍ مضطرب:

ـ إن الرهان هو حياتي! وإليك حروف الكلمات.

فكتبها لها وقال:

ـ أتعرفين يا صوفيا أنك إذا توصلت إلى معرفة الكلمات التي تبدأ بهذه الحروف... اذكري أن حياتي هي الرهان.

وتضيف تانيا في مذكراتها:

«إن صوفيا كانت أبرعنا حقاً في هذه اللعبة، وبعد لحظات حلّت فيها لغز الحروف، قالت له بصوت مضطرب: إن بدايات كل جملة من جمل الحروف التي كتبتها هي: (شبابك، وحقك في السعادة، يذكرانني بقسوة بفارق السن. سعادة كهذه!! هل تتحقق لمثلي؟!)».

كان صوت صوفيا مخنوقاً بطوفان من الانفعالات العاطفية التي غمرتها. أمسكت بيده ولم تقل شيئاً.

وأخذ هو بناصية الكلام، فقال لها:

ـ صوفيا، إن أسرتك تخطئ في فهم السبب وراء زياراتي لكم، والدتك على وجه الخصوص تظن أنني أريد ليزا. في استطاعتك أن تصححي لها ما يدور خطأً في فكرها.

فدونت صوفيا في مذكراتها:

«أدركت أن تولستوي يحبني أنا وحدي! كان قلبي يدق بعنف، وفقدت القدرة على التفرقة بين الحقيقة والوهم. كان شيءٌ ما يصيح في داخلي:

«أيتها الغبية، إنه يحبك أنتِ، أنتِ وحدك، أنت وحدك، أنت ولا أحد سواك». وأوشكتُ أن ألقي بنفسي بين ذراعيه، لكن أمي دخلت فجأةً إلى القاعة، وأمرتني بالذهاب إلى غرفتي على الفور فقد حانت ساعة النوم، ولم أنم. وفي الصباح، صارحتُ أمي:

ـ أماه، أرجوك أن تستمعي إليّ باهتمام. هناك من يظن أنني لست المقصودة بزيارات نيكولايفيتش تولستوي. أماه، الحقيقة أنه لا يأتي إلا من أجلي، من أجلي أنا. إنه يريدني زوجةً له.

ـ صوفيا، لم أتوقع أن أسمع منك هذا الهراء! أنت واهمة يا صغيرتي، إن تولستوي يرغب بأختك ليزا، وهذه رغبتي أيضاً، كما هي رغبة والدك».

□ □ □

وعندما أتى تولستوي لزيارة أسرة أندريفنا، لم تحدثه صوفي عمّا دار بينها وبين أمها. وبينما كانوا جميعاً على مائدة الطعام، دس خلسةً رسالةً في يدها، فأسرعت إلى غرفتها، مزقت المظروف في عصبية مرتعدة وقرأت:

«أخبريني بكل أمانة ويدك فوق قلبك، ودون عجلة، أجل دون عجلة، بحق السماء أخبريني يا صوفي، هل تقبلين أن تكوني زوجتي؟! إذا كنت تقبلين هذا من كل قلبك بأمانة ودون تردد، وبعد تفكيرٍ عميق، فقولي (نعم). ولكن إذا داخلك أدنى شك في قدرتك على الحياة طول العمر مع شخص مثلي، فقولي (لا)، فالموت أحب إلي من الحياة مع إنسان أحبه كل هذا الحب الذي أحمله لك، ولا يحبني!».

وفوجئ الجالسون إلى مائدة الطعام بصوفيا تقبل لاهثةً من غرفتها، وبيدها الرسالة ومظروفها.

يقف تولستوي للقائها، يترامقان لحظة دون كلام، فيقول تولستوي في بطءٍ وهدوء:

ـ صوفيا أندريفنا، هل تقبلين أن تكوني زوجتي؟! نعم أم لا؟!

وبصوتٍ متحشرج مضطرب، مغسول بدموعها تردّ:

ـ نعم. نعم. نعم. هل سمعتم جميعاً؟ نعم، نعم، نعم.

□ □ □

ـ ٧ ـ

بعض مؤرخي الأدب اجتهدوا في تفسير ما قام به تولستوي: إن تصرفه بالفرار من مزرعته، وهو العجوز ابن الثانية والثمانين، في ليلة قارسة، من دون أن يكون قد حدد مكاناً لإقامته، لهو من بعض عوارض أمراض الشيخوخة وما يصطحبها من قرارات ارتجالية.

هذا ما قاله من لا يحبون تولستوي. أما صديقه تشيرتيكوف فقد كتب:

«لقد تحمل تولستوي الكثير من معارضات زوجته صوفيا أندريفنا ومشاكساتها، ما لا يتحمله القديسون! كانت سجّانته بكل ما في الكلمة من معنى! تريد أن تفرض عليه آراءها بشأن تنازله عن أملاكه للفلاحين، وبشأن علاقته بالقيصر وبالقيصرة.

كانت تحدد له من يجب أن يقابل أو لا يقابل من أصدقائه وتلامذته. بل كانت تريد أن تعرف أفكاره الروائية، وتطلب أن يكون لها حق إقرار ورفض ما لا يتناسب مع أفكارها. كانت تحبه، أجل، ولكن حب التملك، لا حب التضحية.

لست أوجه اللوم إلى صديقي تولستوي على فراره منها، ولولا أنه شديد الإيمان بالله، لقتل نفسه يأساً منها منذ زمنٍ بعيد».

□ □ □

وطلب تولستوي من رفيق رحلته الدكتور ماكوفيتسكي أن يستعد للرحيل من غرفة الدير، فيخبره الدكتور بأن نبضه غير مستقر، ولا يجوز أن يعرض نفسه للإرهاق.

ـ إنني بخير. ليس بي إلا التعب من قلة النوم، فالقطط كانت تموء طوال الليل. وفي الغرفة السفلية أيضاً امرأةٌ كانت تبكي وهي تناشد الله أن يغفر لها ما ارتكبت من خطايا. لقد ظننت أنني سأجد الهدوء هنا. لنغادر هذا الدير. لنغادره قبل أن تلحق بنا صوفيا.

ـ إلى أين يا ليو؟!

ـ سنسافر إلى مقاطعة شاماردينو، وهناك سنستأجر بيتاً ريفياً صغيراً بحديقةٍ مزهرة. إنني أعرف سيدة سبق لها أن عرضت عليَّ بيتها لأقيم فيه شهور الشتاء في أي يوم أقرره، وقد أخفيت ذلك العرض عن صوفيا، وفي عزمي أن أحققه في يومٍ ما وقد جاء هذا اليوم المناسب يا سيرغي!! هيا، هيا. لنرحل إلى شاماردينو؛ فهو المكان الوحيد الذي لن تبحث فيه عني صوفيا.

□ □ □

وما إن استقر، حتى كتب إلى ابنته الرسالة الآتية:

«عزيزتي ساشا، إن ما يحدث عندكم يلقي على كاهلي عبئاً ثقيلاً، ورغم هذا فإنني أثق في قدرتك، وقدرة أختك تانيا

وأخيك سيرغي على تهدئة والدتكم. المهم هو أن تُفهموها، وتُقنعوها بأنني لم أفعل ما فعلت إلا بسبب إصرارها على التجسس عليّ، وعلى رغبتها العنيدة في السيطرة على حياتي، وتحريكي في كل أموري الحياتية والفكرية حسب نظرتها الخاصة.

حاولوا أن تقنعوها بأنّ بغضها غير المنطقي لصديقي وجاري العزيز تشيرتيكوف، كان يسوّد كل لحظات حياتي؛ فهو مع إخلاصه الشديد لي، وتفهمه الذكي لكل أفكاري ومشروعاتي، لا يحمل لها إلا كل احترام وتقدير. أقنعوها بحق السماء بأنني أدرك الآن بوضوح أن الحب الذي تدّعي أنها تحمله لي، كذبةٌ كبيرةٌ، وخبثٌ خادعٌ، لم أعد قادراً على التسامح فيه لأن هدفه هو خنق حريتي وقهر إرادتي وإرغامي على التنازل عن أفكارٍ أؤمن بها، بقوة إيماني بالخالق العظيم. إنها لا تفهم أن هذا الأسلوب في معاملتي سيؤدي بي في النهاية إلى الموت. كأنما هي تهدف إلى قتلي. حسناً، أعتقد أنها ستنجح في الوصول إلى هذا الهدف قريباً؛ فقد أكد لي دكتور ماكوفيتسكي أنني إذا كنت قد نجوت من النوبة القلبية الثانية، فلن أنجو من الثالثة التي تسعى أمكم جاهدة إلى أن أصاب بها في أسرع وقت تتخيله. حسناً لتأتِ النوبة الثالثة لتخلصها مني وتخلصني في نفس الوقت من هذا الجو المأساوي المروع الذي تحملته لسنوات طويلة، والذي لا أريد أبداً مهما حدث أن أعود إليه».

ـ ٨ ـ

● وعندما نرجع إلى ذلك اليوم الذي غادر فيه تولستوي مزرعته، نتتبع خطوات زوجته صوفيا التي تيقظت في الحادية عشرة صباحاً، ودخلت إلى غرفة زوجها كالعادة بوجبة الإفطار، فلم تجده، فأحست بأن شيئاً ما قد حدث، فاتجهت إلى حيث كانت ابنتها ساشا:

ـ أين أبوك؟!

ـ لقد رحل!!

ـ رحل؟! رحل إلى أين؟!

ـ لا أعرف!

ـ كيف لا تعرفين؟ أهذا معقول؟! أنت الوحيدة التي لا يخفي عنها شيئاً.

● فأبرزت لها ساشا تلك الرسالة التي تركها لها زوجها. اختطفتها من يد ابنتها خطفاً، وما إن قرأت مضمونها حتى صاحت في حزنٍ وبؤسٍ وغضب:

ـ يا إلهي! ماذا فعلت بي يا ليو؟!

وفجأةً انطلقت كالقذيفة تعدو نحو البركة العميقة في أقصى حديقة إيزيانا/ بوليانا وهي تصيح:

ـ سأُغرق نفسي. سأموت. ما معنى الحياة بعدك يا ليو؟ سأموت. وليعلم أينما كان في هذه اللحظات أنه هو قاتلي!

● ويسرعون خلفها، وكانت قد سبقتهم إلى البركة، فألقت بنفسها في الماء دون أدنى تردد، وكانت على وشك الموت غرقاً، لولا رئيس الخدم بولجاكوف وساشا اللذان استطاعا إخراجها من الماء وهي تقاومهما. أعادوها بصعوبةٍ بالغة إلى مخدعها، وبعد أن ألبستها ابنتها ثياباً جديدة، صاحت فيها في ثورةٍ وغضب:

ـ أبرقي إلى أبيك أنني ألقيت بنفسي في البركة لأغرق. قولي له إنني سأفعل ذلك من جديد إذا لم يعد.

ـ أعطه وقتاً يا أمي. فأنت تعرفين أبي خيراً مني.

ـ (صارخةً) **بل سيعود إذا عرف أنني سأقتل نفسي إذا لم يعد. إنه يحبني.** (ببكاء) **لمَ فعلت ذلك يا ليو؟! أنت تعلم بأنني أفديك بروحي، وأنت تحبني أكثر مما تحب أحداً في الكون، تحبني أكثر ما تحب أبناءنا وبناتنا.**

(وتجهش متوسلة) **عُد يا حبيبي، عُد يا ليو إلى حبيبتك.**

● أغلقت عليها ابنتها ساشا باب المخدع، وذهبت لتعدّ لها شراباً ساخناً، فقد كانت ترتجف من البرد.

وبينما كانت في المطبخ، فوجئت ساشا برئيس الخدم بولجاكوف يصيح:

ـ أسرعي يا آنسة ساشا، لقد كسرت الباب وانطلقت تعدو نحو البركة مرة أخرى!

أعادوها هذه المرة قبل أن تلقي بنفسها في الماء، ولما وُضعت على سريرها أحيطت بكل من في المنزل، حتى لا تتكرر المحاولة، وعندما جاءها الطبيب، وجد أنها تعاني من نوبة هيستيرية، ما دفع ابنتها ساشا إلى الاعتقاد بأن والدتها تعاني من مرض عقلي، لأنها كانت تمارس هذه التصرفات الهوجاء مع زوجها. لكن الطبيب يطمئنها إلى أن ما تعانيه أمها ليس إلا نوبة هيستيرية خوفاً على مصير زوجها. وربما كان إحساسها بالذنب يدفعها إلى مثل هذه التصرفات.

وبينما كانت ساشا تتحدث إلى الطبيب، صاحت فيها من على سريرها في شدة:

ـ فيمَ تتهامسان؟! أبرقي يا ساشا إلى جميع أخوتك، وأخواتك، ليحضروا جميعاً، ليعرفوا ما فعل بي أبوكم. أبرقي لهم كلهم، كلهم.

وما إن انتهت أوامرها ونواهيها، حتى انخرطت في نوبة من البكاء، فاحتضنتها ساشا، فقامت هي بدورها باحتضانها وقالت:

ـ أتوسل إليك يا ابنتي اذكري لي مكانه لألحق به.

ـ أماه، لو كنت أعرف إلى أين رحل أبي، لما أخبرتك. لقد وعدته بذلك.

فأفلتت نفسها من حضن ابنتها.

ـ أتحسبين أنني لن أعرف أين هو الآن؟! سأعرف، سأعرف، وسأفرّ من هذا السجن الذي وضعتموني فيه لألحق به. سألقي بنفسي من النافذة.

ثم تخنقها العبرات وتتشنج في نوبة من البكاء:

ـ ليو، ليو، لماذا فعلت ذلك بي يا ليو؟! لماذا يا حبيبي؟!

● وكان أول من علم بفرار **تولستوي** من أهالي القرى المجاورة لمزرعة إيزيانا/ بوليانا، هو صديقه تشيرتيكوف، وكانت له وسائله في معرفة مكان صديقه الكبير. وما إن تأكد من مكانه، حتى أرسل إليه مساعده سيرجينكو بتفاصيل ما حدث في مزرعته منذ رحيله، فعقب **تولستوي** على ما سمع قائلاً:

ـ يا للسماوات! لم أكن أدري أنها على هذه الدرجة من الحماقة.

ثم سأل سيرجينكو:

ـ هل عرفت بمكاني؟!

ـ يا كونت، أنت تعرف أنها قادرة على أن تعرف مكانك، ودون شك أنها ستفعل!!

□ □ □

ـ ٩ ـ

● واجتمع الأخوة والأخوات أولاد تولستوي وبناته، وانقسموا على أنفسهم في أمر الخلاف بين أمهم وأبيهم، وكانت ساشا أكثرهم شجاعةً، حيث واجهت أمها بصراحة وقالت لها:

ـ إذا شئت أن يعود زوجك إليك، فعليك أن تقنعيه بأنه سيعود إلى الحرية، ولا إلى السجن، إلى الزوجة التي يحبها، لا إلى الزوجة التي يخشاها على أفكاره ومشروعاته. واذكري يا أماه أنك تتعاملين مع فنان كبير بلغ الثانية والثمانين من العمر.

أما الباقون من الأشقاء، فقد أيّدوا والدتهم التي اقترحت عليهم أن يرسلوا برقية جماعية إلى الأب الهارب. لكن ساشا قالت لهم إنها لن تخبرهم بمكانه.

إلا أن صوفيا أعلنت جازمةً أنها تعرف مكانه وطلبت من أولادها أن يرسلوا البرقية إلى قرية شاماردينو، فصعقت ساشا، وسألت أمها:

ـ ولماذا شماردينو تحديداً؟!

ـ حدثني مرة عن رغبته في استئجار بيتٍ ريفي هناك، ثم إنني اطلعت على أختام الرسالة التي بعث بها إليك وفيها كلمة شاماردينو، فأرسلوا إليه البرقية وناشدوه فيها العودة وقولوا له إنني سأموت كمداً إذا لم يعد. وسيدخل هو التاريخ ليس بلقب الكاتب الكبير، بل بلقب قاتل زوجته.

□ □ □

- بعض المؤرخين يزعم أن صوفيا عرفت بأن تولستوي سينتهي به المطاف إلى شاماردينو، ويزعمون أن الدكتور سيرغي ماكوفيتسكي طبيبه وصديقه ومرافقه، هو الذي أرسل إليها سراً ببرقية أطلعها فيها على خطط زوجها. لكن ماكوفيتسكي قد كذّب هذه المزاعم في حوارٍ له مع أحد الصحفيين في ما بعد.

- أما البرقية التي أُرسلت من مزرعة إيزيانا/ بوليانا إلى شاماردينو فلا يزال نصها الأصلي، بخط صديقة الأسرة (فارفارا فيوريتوفا) محفوظة حتى يومنا هذا في متحف آثار تولستوي في مزرعة إيزيانا / بوليانا، وقد جاء نصّها على لسان ابنه إيليا تولستوي نيابةً عن إخوته وأخواته.

«إننا نعرف يا أبي كم كانت الحياة قاسية عليك هنا في إيزيانا/ بوليانا، ولكن ألا تدرك يا والدي العزيز أنك جعلت من حياتنا بدونك جحيماً لا يرحم؟! فأنت تعرف كم نحبك، ونخشى عليك متابعة الرحيل في شهور الشتاء. كأنك يا أبتي قد نسيت أنك في الثانية والثمانين من عمرك. إن أمي حزينة من أجلك، وكما تعرف أنها في السابعة والستين من عمرها، وأن من واجبنا أن نحميك من عنادك وإصرارك على متابعة الهرب الذي سيسرع بأمنا العزيزة إلى قبرها.

واعلم يا أبتي أنه إذا حدث وماتت أمنا بسبب هذا العناد، فستغدو مسؤولاً أمامنا وأمام التاريخ، وقبل هذا وذاك أمام الله

عن هذا الخطأ الذي يصل إلى حد الجريمة!».

اعترض بعض الأخوة على ما كتب إيليا لأبيه بتحريضٍ من أمه، فتراجع عن بعض السطور خوفاً من حكمٍ قاس بالعقوق يصدره عليه التاريخ، وكتب:

«إنني لا أدينك يا أبي، ولكنني أتوسل إليك أن تكون رحيماً بأمنا، فإن حالتها بعد الذي فعلته لتدعو إلى الحزن والأسى.

التوقيع: أبناؤك المحبون»

وأصرّت صوفيا على أن تكتب، بخطٍّ مرتعش وفي صوت باكٍ، وهي تردد الكلمات التي تسطرها على الورق:

«حبيبي ليوفوتشكا، على صدر من تضع رأسك الأشيب المحبوب؟! على صدر غير صدر حبيبتك، التي تفتديك بروحها؟! على صدر غير صدر صوفيا؟!».

- وقد وجدت رسالةٌ ـ في متحف تولستوي ـ كتبتها صوفيا إلى زوجها نكتفي منها بالعبارات الآتية:

«ليوفوتشكا، حبيبي، عد إلى عشّك يا عصفوري الجميل. أنقذني من الانتحار، فهذا هو مصيري إذا لم تعد. لماذا تفرّ مني يا ليوفوتشكا؟! تفرُّ من رفيقة العمر كله؟! عُد. ستجدني دائماً كما كنت. سأكون طوع بنانك. سأتنازل عن كل مظاهر الثراء والرفاهية. أصدقاؤك سيصبحون أصدقائي، سأكفّ عن التدخل في عملك وسؤالك عن أفكارك السياسية والدينية. يا

حبيبي ليوفوتشكا. أعرف أن لك آراءك الخاصة في شأن التقاليد الأرثوذكسية، ومع هذا فأنت تؤمن مثلي بالأساسيات والثوابت. ألا يقول الإنجيل إنه يجب على الرجل ألا يهجر زوجته؟! عُد يا ليوفوتشكا، فلا حق لأحد غيري في إسبال جفنيك لحظة موتك، ولا حق لغيرك في إسبال جفني حين يأتي أجلي!! ليوفوتشكا، أين أنت؟؟! هل صحتك على ما يرام؟! بحق السماء ابعث لي ولو كلمة تدخل الطمأنينة إلى قلبي. أبناؤنا كلهم حولي، ولكنهم أعجز من أن يمنحوني لحظة واحدة من الطمأنينة والأمن وأنت بعيد عني. . . أنت وحدك قادر على ذلك. عُد يا حبيبي، فلن أكف أبداً في البحث عنك وإعادتك إلى إيزيانا / بوليانا».

□ □ □

● بعد أن أخذت ساشا عهداً من أمها، بعدم اللحاق بها في ما لو ذهبت إلى مدينة شاماردينو للوقوف على أحوال أبيها، وجدت صوفي أن في ذلك خطوة أولى تمهد لها الاتصال بعزيزها ليو.

وفي شاماردينو التقت ساشا بوالدها الذي كان قد تسلّم برقية ابنه إيليا، وكذلك قرأ خطاب زوجته. . ولأول مرة في تاريخ علاقتها بأبيها، تتحدث إليه في شيءٍ من التأنيب؛ إذ قالت له:

ـ أبتِ، كلهم يجمعون على أنك ترتكب خطأً كبيراً في حق

أُمنا، أيسعدك أن يحدث لها مكروه بسبب ما تفعل؟!

ـ بل يتعسني كثيراً يا ساشا!! ويتعسني أكثر أنك غيّرتِ من وجهة نظرك تجاهي!! ألم تكوني تباركين مشروعي هذا؟!

ـ بلى يا أبي، ولكن لم أتصور أن يكون رد فعل والدتي بهذا الشكل المأساوي!!

ـ كيفما كان الأمر يا ابنتي، فلم يعد في مقدوري أن أفعل غير ما فعلت!! وسأحزن كثيراً إذا أصاب صوفيا أي مكروه بسببي!!

ـ أبتِ، لو اتخذت القرار من تلقاء نفسك، وتعود إلى مزرعتك، فتقارير الأطباء كلها تؤكد حاجتك إلى رعاية صحية مكثفة في إيزيانا/ بوليانا وقد تكون عودتك مصدر سعادةٍ للجميع، بعد أن تعلّمت والدتي الدرس وأدركت حجم الكارثة في ما لو ظللت في الوضع الذي أنت عليه الآن.

ـ لعلك على حق في هذا يا ساشا، ولكن مجرد عودتي على أي وضع سيقتلني الإحساس القاسي بالهزيمة النفسية!! كلا يا ساشا، لن أعود حتى لو أجمع كل أطباء الدنيا بحاجتي إلى العودة إلى إيزيانا/ بوليانا!!

● وقبل أن يخلد إلى النوم وجد نفسه مدفوعاً إلى كتابة الخطاب الآتي:

«صوفيا حبيبتي، لن أعود، ولن أخبرك بالمكان الذي سأذهب إليه، وعليك يا رفيقة العمر أن تتعايشي مع الحقيقة الجديدة، وهي أن ليون تولستوي قد خرج من إيزيانا/ بوليانا إلى الأبد.

لا تظني أبداً أنني فعلت ذلك لنقصٍ في حبي إليك! كلا! يعلم الله أن زهرة حبك في قلبي لا تزال نضارتها منذ رأيتك لأول مرة! إنني لم أغادر إيزيانا/ بوليانا إلا للإبقاء على نضارة زهرة حبنا! بحق السماء ألا تفهمين هذا يا صوفيا؟!

وداعاً يا حبيبتي! وليرعَك الله، وليكن في عونك!».

□ □ □

ـ ١٠ ـ

- أدركت ساشا أن أباها مضطربٌ أشد الاضطراب، وأنه قد عزم على متابعة مسيرة فراره المأساوية، وأنه لا فائدة من أية محاولة لثنيه عن عزمه، عندما قال لها:

ـ ساشا، يجب أن أغادر شاماردينو، ولا أدري إلى أي مكان، ربما إلى القوقاز، فالحياة في الجبال تتناسب وصحتي، والجو هناك منعش وخال من الرطوبة. لقد عشت طفولتي في جبال القوقاز!!

لكن صديقه الطبيب، يسأله فيما إذا كان يقوى على مشاق الرحلة إلى القوقاز؟! فيجيبه:

ـ لم لا، وأنت معي؟! هيا!! هيا!! لننم مبكرين حتى نبدأ الرحلة غداً مع بزوغ ضوء الشمس.

□ □ □

● كان تولستوي سعيداً رغم رنة الحزن في صوته، ورغم إحساسه بما يشبه الأزمة الربوية!! حاول جهده أن يخفي السعال ويمزجه بضحكات خفيفة، ولم يغب ذلك عن فطنة الطبيب الذي اقترح عليه تأجيل الرحلة لأسبوع على الأقل، فانتابه الذعر.

ـ أسبوعاً؟! وهل تتركني صوفيا هنا أسبوعاً؟!

● وجاء الصباح.. ولم يكن يدور بخلد الدكتور ماكوفيتسكي أن الحمى قد أمسكت بالجسد الواهي للعجوز العنيد ابن الثانية والثمانين!!

وبينما هم في العربة، كان تولستوي يتحدث إلى ابنته عن القوقاز وكيف أنه سيقيم في الأيام الأولى عند صديقه العزيز دنيسنكو:

ـ إنه كاتب ممتاز يا ساشا! لا يعيبه إلا اهتمامه بالمحسّنات اللفظية. لو ترك قلمه على السجيّة، لاحتل مكانةً مرموقةً في قائمة كبار كُتّاب روسيا. لقد قلت له هذا مراراً، لكنه من مدرسة تورجنييف.

وبينما هو مسترسل في ما يشبه الهذيان، قالت له ساشا:

ـ أبتِ، لا تجهد قواك بالكلام الكثير، فإن أمامنا رحلة طويلة بالقطار.

لكن هزّات العربة الصغيرة قد أتعبت جسده جداً، وعندما بلغوا محطة القطار حتى كان الكاتب الكبيرقد بدأ يهذي.

ـ كم المسافة التي سنقطعها حتى نصل القوقاز يا عزيزتي ساشا؟!

ـ نحو ١٠٠٠ كيلومتر.

فقال الدكتور:

ـ يا إلهي!! ثلاثون ساعة؟! وليو على هذا المقعد الخشبي غير المريح؟!!

فأجابه تولستوي:

ـ وما في هذا؟! إنني في صحة جيدة!! وإن كنت استشعر صداعاً شديداً بعض الشيء، ولكن بمقدوري مواصلة الرحلة.

فيطلب الدكتور من تولستوي أن يعطيه يده ليقيس ضغط دمه، ومدّ له يده، وبعد ثوانٍ ظهرت ملامح القلق على وجه الدكتور، فقال بحزم:

ـ يجب أن نغادر هذا القطار اللعين في أقرب محطة. . . فالحمى ستكون لها عواقب وخيمة إذا لم نتلافَها!

□ □ □

● وكانت أول محطةٍ مجهولةً ولم يسمع بها أحدٌ من قبل. . ولكنها أصبحت من أشهر المحطات في روسيا بعد الأحداث التي وقعت فيها لكاتبهم الأشهر تولستوي، وهي محطة (أستابوفو).

نزل تولستوي من القطار يجر ساقيه مستنداً إلى كتفي ابنته وصديقه الطبيب، وحين علم ناظر المحطة بالضيف الكبير للقرية النائية والمنسية، جاء مسرعاً وهو يقول:

ـ إسمي أوزولين يا صاحب السعادة، يسعدني ويشرفني أن تقيم في داري المتواضعة إلى أن تستعيد صحتك وعافيتك.

ثم أعدّ سريراً مريحاً، وفراشاً ناعماً في أكبر غرفةٍ في بيته،

رقد تولستوي وهو في حالةٍ من الهذيان:

ـ ساشا، هاتي الشمعة وضعيها قرب فراشي. لماذا لا تأتي صوفيا؟! لا بأس لعلها تتفقد أحوال الخدم!! وأين كراسة مذكراتي يا ساشا؟!

كان يظن وهو في هذيانه أنه ـ كالعادة ـ يعيش في إيزيانا/ بوليانا.

ونام نوماً عميقاً بعد أن هبطت حرارته، وتناول شراباً من الشعير الساخن. في الصباح، وكأنما أحس بخطورة الموقف، فنادى على ابنته:

- **هاتي ورقة وقلماً واكتبي هذه البرقية إلى صديقي (تشيرتيكوف).**

وأخذ يملي عليها:

- **عزيزي، أصابتني وعكةٌ بينما كنت في القطار يوم أمس، أخشى أن تصل أخبار ذلك إلى الصحافة، وقد شاهدني الكثيرون أثناء نزولي من القطار، وسأتابع رحلتي إلى القوقاز. أرجو أن تفعل المستحيل كي لا يتسرب خبر مرضي للصحف، وبالتالي ينتشر خبر سفري. أبرق لي بكل ما يستجد. صديقك ليو تولستوي.**

أرسلت ساشا برقية أبيها إلى صديقه وعادت إلى دار ناظر المحطة لتفاجأ بالاضطراب الشديد الذي استولى على الطبيب ماكوفيتسكي، إذ فاجأها بقوله:

- لقد عادت الحمّى يا آنسة ساشا، عادت هذه المرة بعنف، ولا أحب أن أتحمل المسؤولية وحدي، فأبرقي إلى موسكو لاستدعاء الدكتور (نيكيتيين).

□ □ □

● وما هي إلا فترة وجيزة حتى أُذيع الخبر في العالم: أن الكاتب الروسي الأشهر **ليون تولستوي** يرقد ليموت في دار محطة مجهولة على الخريطة الروسية تُدعى استابوفو. وأمسك عشّاق **تولستوي** في العالم أنفاسهم وهم يسمعون تلك الأخبار.

في الغرفة البسيطة التي أعدها له على عجل في بيته ناظر محطة القطار، كان **تولستوي** يرقد بعد أن بلغ من الضعف أشدّه، ويسأل ابنته:

ـ **ساشا، أتحسبين أن أمك ستعرف مكاني؟!**

ـ أبتاه، لا تشغل نفسك الآن بأمي، من المؤكد أنها ستفهم، ولن تحاول البحث عنك. أرجوك يا أبي لا تكثر من الكلام، فأنت متعب!!

وتغادر ساشا غرفة أبيها لتقول للطبيب:

ـ إنها رحلة القطار. نوافذه كلها محطمة، والعاصفة الثلجية اللعينة!

ـ وعناد أبيك، فما كان يجب أن نغادر شماردينو، ولكن سنتمكن بعون الله من اتقاء خطر الالتهاب الرئوي، فالغرفة دافئة وهو بحاجة إلى الهدوء.

كتبت ساشا في دفتر يومياتها:

«لقد أجلى السيد أوزولين ناظر المحطة وصاحب البيت الذي

يرقد فيه والدي. أجلى زوجته وأولاده، ولم يُبق إلا خادمة للمطبخ لتلبية طلباتنا. وعندما حاولت أن أدفع له بعضاً من المال لمساعدته على التكاليف، مال الرجل على يدي ولثمها وهو يبكي ويقول:

بحق السماء!! دعوني أقدم ما أستطيع للرجل العظيم الذي أسعد المئات من البشر حينما أطلق سراحهم من عبودية المزارع».

□ □ □

ـ ١١ ـ

● وبعد أن انتشر خبر وجود تولستوي في تلك المحطة، وأصبح يحتل مكان الصدارة في معظم صحف العالم، ثارت ثائرة صوفيا مهددةً بكل الأسلحة التي تملكها، بالبكاء وبالتهديد بالانتحار، مستخدمة نفوذها في مقاطعة (تولا) إلى درجة أنها استطاعت أن ترغم مدير المحطة على إعداد قطارٍ خاص لينقلها إلى استابوفو.

وكان قد سبقها إلى تلك القرية، صديق تولستوي تشيرتيكوف، ومعه صديقه الثاني سيرجينكو، اللذان أدخلتهما ساشا على أبيها بإذن منه، بعد أن علم بوصولهما.

وبلهجةٍ تدل على وهنٍ وضعف قال تولستوي في ما يشبه البكاء:

ـ **آه يا صديقي تشيرتيكوف، لشد ما افتقدتك. أرجوك لا تقبّل يدي. فيشهق تشيرتيكوف بالبكاء.**

ـ صديقي أستاذي كان يجب أن تطلعني على مشروعك هذا!!

ـ **أرجوك يا تشيرتيكوف، من أجلي كفّ عن البكاء!! أنت أول من يعلم أنني لم أكن أستطيع المقاومة أكثر مما فعلت.**

□ □ □

● جاء ناظر المحطة السيد أوزولين مضطرباً، وانتحى بساشا جانباً، حيث قال لها هامساً:

ـ يا آنسة ساشا، علمت من برقية وصلتني منذ لحظات من زميلي ناظر محطة تشيشكينو، أن الكونتيسة صوفيا، أرغمت مدير المحطة في منطقة تولا، على أن يخصص لها قطاراً ينقلها إلى هنا!! وقد تحرك القطار منذ ساعة وسيصل إلى هنا في الليل.

وعلى الفور عقدت ساشا اجتماعاً ضم الدكتور ماكوفيتسكي وتشيرتيكوف، فقال الطبيب:

ـ إن وصول صوفيا في هذه الظروف سيحدث عاصفةً لن يحتملها قلبه الضعيف، فلا بد من منعها منعاً باتاً من الدخول عليه.

ـ هذه مهمتك إذن يا دكتور، فأنت صاحب القرار الأول

والأخير في هذا الأمر. إذا قلت لوالدتي إن مقابلتها له ستعجل بأجله، سنُسادك جميعاً مهما قالت أو فعلت.

ـ ولكنني أخشى أن تتغلب الكونتيسة علينا جميعاً، إنها حبه الأول وحبه الأخير، وأقترح يا ساشا أن تبرقوا إلى ولده سيرغي ليأتي حتى يكون إلى جانبنا في مواجهة الكونتيسة.

لكن ساشا لم تؤيد اقتراح تشيرتيكوف بالإبراق إلى سيرغي، لأنه يساند أمه دائماً في كل خلافاتها مع أبيه.

● إلا أن سيرغي كان أول من عرف مكان أبيه من الصحف، وسبق أمه الكونتيسة إلى استابوف، فتصدت له ساشا على الفور بألا يدخل على أبيه، فكان عنيفاً في رده.

ـ بل لا بد أن أدخل عليه على الفور. إنني لم آت كي أجلس في هذا البيت التعس، بينما أبي العظيم ليون تولستوي يموت في غرفة حقيرة تافهة.

ـ سيرغي أرجوك، سيغضب أبوك إذا عرف أن أحد أولاده قد عرف مكان عزلته، وجاء على غير إرادته.

ـ إذا لم تدخلوني على أبي في الحال. ناديته بأعلى صوتي.

ـ دعني أسبقك إليه لأمهد للمقابلة، إذ إن المفاجأة برؤيتك قد تزيد من متاعبه الصحية!

ـ بل سأدخل معك ومع ساشا يا دكتور!

ولم يكن هناك من مفرّ إلا النزول عند رغبة الابن الذي كان دائماً مصدر متاعب نفسية لأبيه.

مال الدكتور ماكوفيتسكي على فراش الرجل المريض، وهمس قرب أذنه:

ـ كونت، كونت. وفتح الرجل عينيه، وتابع الدكتور: ولدك سيرغي معي الآن في الغرفة!!

لمعت نظرة خوف بائسة تبدت في عين الرجل الكبير، ولكنه ابتسم رغم ذلك لولده، الذي أمسك بيد أبيه وقبّلها في احترام بعد أن انسابت دموعه ساخنة:

ـ أبتِ، أبتِ، لماذا؟!

فيتوجه إليه تولستوي بالسؤال مباشرةً:

ـ كيف عثرت على هذا البيت؟!

ـ مصادفة يا أبي!! كنت في القطار الذاهب إلى (غورباتشيفو)، فأخبرني أحد الركاب أنه كان معك في القطار القادم إلى هنا!!..

ـ ومن أين كنت قادماً في طريقك إلى غورباتشيفو؟!

ـ من موسكو يا أبي!

ـ وأمك؟!

ـ لم أرها، إنها في إيزيانا/ بوليانا. إنها لا تريد أن تغضبك بالحضور إلى هنا.

ـ وكيف عرفت أنها عرفت بمكاني، وقد كنت في موسكو؟!

ـ اتصلت بها برقياً قبل حضوري إلى هنا يا أبي، وعلمت من أختي تاتيانا في برقية لها أن معها ممرضتين تسهران عليها، وقالت لي أختي في البرقية: إن أمي تفهم تماماً دوافعك إلى ما فعلت، وإنها استكانت إلى الموقف.

وكان تولستوي، وهو الكاتب العبقري ذو الحوار الذكي البارع، الخبير كروائي بدوافع النفس البشرية، يعرف أن ولده سيرغي يكذب في كل ما قاله.. ومع هذا قال حينما أراد الطبيب أن يحكم الغطاء حوله:

ـ لقد سعدت جداً برؤية سيرغي يا ماكوفيتسكي. لقد، لقد قبّل يدي، ولم يكن يفعل ذلك أبداً. لكم أسعدني ذلك. رغم يقيني أنه كان يكذب.

□ □ □

ـ ١٢ ـ

● كان دخان القطار الذي يحمل صوفيا ينفث دون توقف. كأنه نذير شر. وكان على رصيف المحطة كل من سيرغي والطبيب ماكوفيتسكي الذي كان يدرك أن صوفيا ستصبّ

عليه جام غضبها، لكنه أصرّ على استقبالها بالتعليمات التي تساعد على استعادة عافية مريضه العجوز.

ونزلت الكونتيسة صوفيا أندريفنا.

ونقرأ عن تلك اللحظات، ما كتبته ابنتها ساشا في مذكراتها:

«كنت على ثقة من أنها ستتهمني بالتواطؤ مع أبي، وتدبير أمر فراره من القصر في غفلةٍ منها. وقفت من وراء النافذة أرقبها من خلال النور الخافت في المحطة وهي تعبر الطريق الحديدي نحو البيت. أشفقت عليها كل الإشفاق، وهي تسير مقوسة الظهر، مستندةً إلى ذراع أخي سيرغي، وكان خلفها كل إخوتي وأخواتي!! أحسست بأن الأسرة كلها ما جاءت لكي تعود برب البيت إلى قصره في إيزيانا/ بوليانا، وإنما لتشيعه من بيت ناظر محطة استابوفو إلى مثواه الأخير!!

أدركت أن ذبالة الحياة في جسد أبي لن تقوى على مقاومة عاصفة الغضب التي توشك أن تنطلق من صدر أمي، رغم حبها الجارف لأبي!! أحسست بسعادةٍ غامرة، حين هرع نحوي الدكتور ماكوفيتسكي ليزفّ لي خبراً:

ـ اطمئني يا ساشا، جميع أفراد الأسرة يدركون خطر دخول الكونتيسة على أبيك.

والغريب في هذا! أن أمي قد أقرّتهم جميعاً على ذلك ما دام هذا سيعجّل بشفاء ليوفوتشكا العزيز.

□ □ □

- أعلن ناظر المحطة لكل من ساشا والطبيب أن قطارات كثيرة تتجه الآن إلى محطته. ولم يعد أحد في روسيا كلها يجهل أن كاتبهم الكبير ليو تولستوي يرقد مريضاً في هذه القرية الصغيرة، فالصحف قد أبرزت هذا في صفحاتها الأولى!

ومرت الليلة الأولى لوصول الكونتيسة دون مفاجآت. ومع صباح اليوم الثاني جاء الدكتور نيكيتيين، وهو من أهم الاختصاصيين في الحميّات في موسكو، وبعد الفحص كتب:

«إن صديقنا الكاتب العظيم في حالة محزنة من الضعف الجسماني، النبض غير محسوس بسبب الالتهاب الرئوي، ولكن لن نفقد الأمل، فهناك علامات مشجعة، وهي أن الحرارة قد هبطت إلى (٣٧ درجة)».

دخلت ساشا على أبيها. أذهلتها حالته. رأته لأول مرة منذ أن رقد على هذا الفراش البسيط، وقد اعتدل في رقدته، يدوّن شيئاً في ورقة صغيرة بقلمٍ من الرصاص، ويدير زر ساعته الفضية الكبيرة ذات السلسلةً الطويلة. استقبلها في مرحٍ طافحٍ على محياه:

ـ ساشا، أعتقد يا ابنتي أنني في حاجة إلى كوبِ كبيرٍ من الحليب الساخن.

ـ ما أسعدني بما طلبت يا أبي. سأعده لك حالاً.

ـ لا، ليس الآن يا ساشا!! اجلسي بالقرب مني هنا على

الفراش، وخبريني ماذا قال دكتور نيكيتيين عن حالتي. أنت تعرفين دكتور نيكيتيين هذا، كان له رأي خاص في روايتي(آنا كارنينا)، وفي رأيه أن انتحار (آنا) كان... و...

ـ أبتِ أنت في حاجة إلى الراحة بعيداً عن التفكير الأدبي المرهق.

ـ كنت قبل أن أغادر القصر أفكر في رواية جديدة عن الشباب الرافض لتجاربنا. أعتقد أنكم معشر الشباب على حق، ولكن...

ـ أبتِ، هذه الانفعالات ضارة بقلبك.

ـ كفّي عن هذا الهراء! متى سأغادر هذا البيت؟!

ـ ليس قبل أسبوعين يا أبتِ.

ـ آه، ها أنت تتعسينني بما تقولين! أسبوعان؟!

ـ حتى تسترد قواك كاملةً أيها البطل.

ـ أنتِ على حق! الآن هاتي كوب الحليب الساخن.

□ □ □

● وغدا بيت السيد أوزولين ناظر محطة قطار استابوفو مقراً لمن يقومون على رعاية كاتب روسيا العظيم. ابنته الآنسة ساشا، وطبيبه دكتور ماكوفيستكي، والطبيب الكبير دكتور نيكيتيين

الذي جاء من موسكو، رغم أنه من مشاهير الأطباء في كلية موسكو الطبية.

فهو يرقد فوق خشبةٍ خشنة قريبة من الغرفة التي يرقد فيها الكاتب العظيم.

● أما زوجته الكونتيسة صوفيا والأولاد جميعاً، فإنها أجرت اتفاقاً مع مدير المحطة في منطقة تولا. يقضي بتحويل القطار الذي جاءت به لاستخدام عرباته لإيوائها وأفراد أسرتها، كما تستخدم بقية المقطورات!! . . للصحفيين والكتاب، وأعداد كبيرة ممن جاؤوا للاطمئنان إلى صحة كاتبهم.

وكانت الكونتيسة داخل مقصورتها لا تكف عن البكاء، يحيط بها أولادها وبعض أقاربها من أسرة أندريفنا، والكل ملتزمٌ الصمت احتراماً لحزنها، بينما هي تصيح في عصبية شديدة:

ـ من حق أي زوجة أن تكون مع زوجها المريض، وأنا لست أي زوجة، أنا الكونتيسة صوفيا أندريفنا، زوجة ليو تولستوي. ثم تشهق في البكاء وتقول:

أنا زوجته، وأخته، وأمه! بل أنا حبيبته! لماذا لا تدخلونني إليه؟!

أهو الذي أصدر هذا القرار القاسي؟! لا أظن. لا أظن. لقد كان رحيماً بي دائماً، حنوناً معي في كل وقت. إنه يتعذب الآن، لأنكم تمنعونني من الدخول عليه. أنا أعرف الناس بحبيبي ليو.

فتتدخل ابنتها (تاتيانا) مواسيةً أمها:

ـ إنها تعليمات الأطباء. إنهم يخشون على قلبه من الانفعالات الزائدة.

فتنظر إلى ابنتها كالنمرة الشرسة، وتصيح فيها بكل الحقد:

ـ بل قولي إنها تعليمات ودسائس تشيرتيكوف!! هو الذي يرغم دكتور ماكوفيستكي على قرار منعي من الدخول إلى حبيبي، وأنا بدوري سوف أُرغم ماكوفيستكي اللعين على اعتزال مهنة الطب إذا حدث مكروه لحبيبي ليوفوتشكا. هو الذي حرّضه على الفرار، وهو الآن الذي يحرمه مني، ويحرمني منه.

ـ أماه، إن عدم دخولك إليه قرار من الدكتور نيكيتيين.

فتنظر إلى ابنتها بعينين متوسلتين:

ـ تاتيانا، أرجوك يا ابنتي اذهبي إلى غرفة ناظر محطة القطار اللعين وانظري من زجاج النافذة المطلة على غرفته. انظري إلى أبيك، وعودي إليّ بأخباره. أهو بخير؟!! هل تناول الحليب الدافئ كما تعوّد؟! هل يقرأ؟! هل يكتب؟! بحق السماء!! بحق السماء!! ليذهب أحدكم وليأتيني بأخبار ليوفوتشكا.

□ □ □

● كان تولستوي بعد أن استرد شيئاً من قوته يرغب في رؤية صديقة تشيرتيكوف، وناشره (غوربونوف) الذي كان قد

طلب إليه أن يحضره معه من قبل، وبقي معه لحظات أراد لها تولستوي أن تطول، لكن الدكتور ماكوفيتسكي حذرهما من الحديث الطويل المجهد، إلا أن تولستوي تدخّل:

ـ دعهما يا ماكوفيتسكي. أريد أن أعرف ماذا أعد غوربونوف بشأن نشر كتابي الأخير (طريق الحياة).

ـ ليو، إنك تريد مغادرة هذا البيت أليس كذلك؟! حسناً، لن يحدث هذا إذا أنهكت قواك في حديث طويل. أرجوك أن تستبقي قوتك حتى تغادر استابوفو في الغد إن شاء الله.

فيفزع تولستوي كالمذعور:

ـ أغادر؟! إلى أين؟! إلى إيزيانا/ بوليانا؟!.. مستحيل؟!.. مستحيل! بل سأعود إلى شاماردينو.

كأنما فجأةً لاح له شيء:

ـ ماكوفيتسكي، يخيل إلي أنني رأيت وجه سيدتين تنظران إلى داخل الغرفة من النافذة. من هما يا ماكوفيتسكي؟!

ـ لا أحد ينظر إلى الغرفة يا ليو.

ـ لعلها ابنتي تاتيانا. أو لعلها الكونتيسة زوجتي.

ـ أؤكد لك أن أحداً لم يقترب من النافذة. وقد تكون انعكاسات المارة في الطريق المجاور للمحطة.

ـ ربما، ولكن من يدري؟ قد تأتي صوفيا لتنظر من زجاج

النافذة. يجب تغطية الزجاج بستارة ثقيلة. قل لي بصدق يا ماكوفيتسكي: أين صوفيا الآن؟

فلا يجيبه، فيواصل تولستوي حديثه:

ـ يجب أن تقنعوها بأن دخولها عليّ هنا يعني موتي، لن أحتمل الانفعال يا ماكوفيتسكي! وأنت تعرف هذا جيداً.

□ □ □

● رقد بعض الوقت، ثم استيقظ، ودون أن يحرك رأسه نادى ساشا، التي اتخذت لها مكاناً على الأرض بالقرب من أبيها.

ـ ساشا، يخيل إلي أن أختك تاتيانا في الخارج! هل جاءت إلى هنا؟! أيعني ذلك أن أمك أيضاً قد جاءت هي الأخرى؟!

ـ لم تأت غير تاتيانا يا أبتِ!!

ـ وهذه المخدّات الطرية تحت رأسي، من جاء بها؟! إن عليها شارة قصري إيزيانا/ بوليانا!!

ـ جاءت بها أختي بأمرٍ من والدتي!!

ـ (كأنما يحدّث نفسه): الكونتيسة!! كيف هي؟! ماذا تفعل؟! لا بد أنها مضطربة جداً، وخاصةً إذا علمت بحالتي. هل تتناول طعامها بانتظام؟!

ـ أبتِ، اطمئن. أمنا بخير.

ـ (بصوتٍ باكٍ) **ساشا، المهم أنها لن تحتمل رؤيتي وأنا على هذه الحال. وأنا أيضاً! قد أموت إذا بكت أمامي. تكلمي يا ساشا. أنت تعرفين أن لا شيء أهم عندي من صوفيا!**

ـ أرجوك يا أبتِ! إنك تؤذي نفسك بهذه الانفعالات. أمنا بخير، وهي تدرك سبب مغادرتك القصر.

□ □ □

ـ ١٣ ـ

● ما نشرته الصحف يكذّب كل ما قالته ساشا لأبيها عن أمها، حيث نشرت تفاصيل قصة فرار الكاتب الأشهر من مزرعته، وقصة مغادرته قرية شاماردينو في قطار محطم النوافذ، وعن إصابته بالالتهاب الرئوي الحاد، وعن أحزان الأسرة كلها، وما أصابها في هذا الحادث! وتصدرت الصفحات الأولى صورة الكونتيسة وهي تبكي، وتحت تلك الصورة وضِع عنوان: **(سأتبع حبيبي ليوفوتشكا ولو إلى الجحيم!! معه دائماً في الحياة وفي الممات)**.

□ □ □

● وبعد أن وصلت إلى محطة استابوفو، وفودٌ من الصحف المجلات وشركات السينما، وكانت الكاميرات كلها مركّزة على بيت أوزولين ناظر المحطة، على الأبواب والنوافذ، بانتظار اللحظة الحاسمة لخروج الكاتب الكبير.

وصارت قرية استابوفو الصغيرة مهبط الآلاف من محبّي الكاتب الكبير.

آلاف البرقيات من الروس المقيمين في مختلف عواصم أوروبا، من باريس، من لندن، من برلين، من ميونيخ، تنهال على آلة البرق الصغيرة المتهالكة على مكتب ناظر محطة استابوفو. ورغم البرد الشديد والريح المثلجة القارسة، توافد الفلاحون من مختلف القرى والمزارع يحملون على عربات الجر الأغطية والبطانيات، ونصبوا خياماً في كل مكان حول بيت ناظر المحطة.

قساوسة ورهبان يركعون في الطين والجليد، يصلّون من أجل كاتبهم الكبير العجوز المريض. والناس من كافة المناطق والقرى القريبة باتت ترسل مئات الأغطية ومطابخ الحساء لخدمة القادمين إلى استابوفو من مختلف الجهات.

- لكن اللافت للنظر أن الحكومة القيصرية لم تتحرك مع كل هذا الفيض العاطفي للشعب الروسي تجاه كاتبهم العظيم، لسببٍ واضح، لأن القيصر والقيصرة يبغضان تولستوي أشد البغض، فهو كان يطالب في كل مقالاته وكتبه ورواياته بإطلاق حرية العبادة للمسلمين الموجودين في نطاق الدولة الروسية، وخاصةً مسلمي المناطق التي احتلت بالقوة، كما كان تولستوي يسلّط في كتاباته الضوء على الظلم الذي كان يتعرض له المسلمون.

أما القيصرة، فإنها كانت تكره كاتب روسيا الكبير تبعاً لكراهية الأفّاق المشعوذ راسبوتين له!! من هنا، لم نجد الحكومة القيصرية قد تحركت في ما يجري في تلك القرية التي يرقد فيها ليو تولستوي، اللهم إلا تلك البرقية التي أرسلها وزير الداخلية إلى عمدة استابوفو وجاء فيها:

«اتخذ إجراءات مناسبة في القرية والقرى المجاورة بالتنسيق مع من سنرسل من ضباط الوزارة. تحسباً للتظاهرات التي قد يقودها الفلاحون والأجراء أنصار تولستوي والداعون مثله إلى توزيع أراضي النبلاء على الفلاحين والعاملين فيها. اقبضوا فوراً على أية عناصر شغب!!».

□ □ □

- والرجل المريض لاهٍ عن كل هذا الذي يدور خارج غرفته! تدور أفكاره كلها حول هموم مرضه، والهموم الأدبية، فيكتب بيدٍ مرتجفة:

«تركت لصديقي تشيرتيكوف الإشراف على نشر كتابي الأخير(طريق الحياة). لا تزال فكرة روايتي الجديدة عن الشباب غير مكتملة في رأسي. قضيت ليلةً سيئة أمس. ها أنذا منذ ثلاثة أيام والحمّى تفتك بي!! تفترسني افتراساً!! أعتقد أن صوفيا وأولادي جميعاً قد جاؤوا إلى قرية استابوفو، وإن كان الجميع يخفون عني ذلك. لا أستطيع أن

أكتب أكثر من هذا!!. فالقلم يرتعد في يدي من فرط إحساسي بالحرارة».

□ □ □

● في اليوم الرابع، أسفرت النهاية الحتمية عن وجهها!!

وهذا آخر ما كتبه تولستوي في كراسته: «**أليس هكذا يموت الفلاح الروسي؟!**».

وشرع يهذي حين أمسك دكتور ماكوفيتسكي بيده، قال له هامساً:

ـ يا صديقي، أعتقد أنني سأموت؟! وهذا أمر طبيعي، ولكن من يدري؟ لعل الموت شيء غير هذا الذي أشعر به يقترب مني...

ثم أخذ يهذي: **ابحث!! ابحث!! هذا ما يجب أن يفعله كل إنسان عاقل، أن يبحث، ويفكّر. أبحث دائماً يا دكتور ماكوفيتسكي.**

● حينما علمت صوفيا أنه بدأ يهذي، غادرت عربة القطار وهي في حالةٍ أشبه ما تكون بالجنون، فمنعوها من الدخول إليه، فأسرعت إلى النافذة المجاورة للسور، فرأته من خلال الزجاج راقداً ووجهه إلى سقف الغرفة. طرقت الزجاج بأصابعها في عصبية، فلم يتحرك! أسرع ماكوفيتسكي وأرخى الستارة من الداخل، فشرعت تصرخ مناديةً: ليوفوتشكا،

ليوفوتشكا، ليوفوتشكا. . . فهرع أبناؤها إليها وحملوها بعيداً عن البيت. التقط المصورون ورجال السينما صوراً كثيرة لها وهي تصبّ اللعنات عليهم.

أعادوها إلى عربة القطار التي كانت محاطة بالكثير من رجال الصحافة والإعلام ممن امتلأت بهم الطرق والحقول القريبة من المحطة، وعلى طول الشريط الحديدي الذي افترشه الفلاحون.

□ □ □

● الصحفيون يتشممون الأخبار عن صحة الكاتب الكبير، ويترقبون لحظات موته. شائعات كثيرة عن تظاهرات قامت في القرى المجاورة، وعن إطلاق النار على المتظاهرين من قبل الشرطة! المئات من رجال الاستخبارات القيصرية يندسون وسط الجموع، برقياتٌ مشبوهة تصل إلى جهاز البرق في المحطة، كُتب في بعضها الآتي:

● **اطلبوا إلى تولستوي أن يتوب عن أخطائه.**

● **تُب إلى خالقك يا تولستوي قبل أن تمثل أمام المحكمة الربانية.**

والعشرات من هذه النماذج التي ثبت في ما بعد أنها قد أُرسلت من عملاء القيصر، ولم يجسر أحد على ذكرها أمام الرجل المسجّى في غرفة الموت.

□ □ □

ـ ١٤ ـ

● في صباح اليوم التالي يقدم إلى استابوفو الأب فارسونوفي رئيس القساوسة، ومعه تكليف من القيصر بالدخول إلى الكونت ليتلقى اعترافاته في ساعاته الأخيرة. وما إن سمعت صوفيا بذلك حتى تركت مقصورتها متجهةً نحو مكتب ناظر المحطة.

ـ لن أسمح لأحد بأن يدخل على زوجي ليزوّر عليه في ما بعد ما لم يقُل. اطردوا هذا القسيس من استابوفو.

ولولا حماية الشرطة القيصرية، لما نجا القسيس القيصري من الشنق بأيدي الفلاحين على شجرة من أشجار الطريق، لكن محافظ منطقة تولا، جاء محاطاً بحماية الشرطة ومعه القسيس الذي طلب أن يدخل ليتلقى اعترافات تولستوي قبل موته.

لكن ساشا خرجت بكراسة أبيها وهي تصيح في وجه الجميع:

ـ اللعنة على من يريد أن يرغم أبي على ما لا يريد. إليك أيها المحافظ ما كتب أبي عن ذلك حين اشتد به المرض، واسمع أنت أيها القس المأجور. اسمعوا ماذا كتب أبي لتريحوا أنفسكم من تلقي اعترافاته.

ثم أخذت تقرأ أمام الحشود التي صمتت احتراماً لكلمات الكاتب الكبير.

«حين يحوم الموت حول رأسي، فلا أريد أن يقتحم لقائي مع

ربي أحدٌ من رجال الدين... أريد أن أقترب من خالقي في فيضٍ من نور المحبة، وليس مع ثرثرة كهنوتية...».

ثم رفعت رأسها من على الكراسة وقالت:

ـ أسمعت أيها المحافظ؟! أسمعت أيها القس المأجور؟! والآن عودا من حيث جئتما قبل أن يندم من أرسلكما بسبب ما سيحدث في هذه القرية من مذابح!

□ □ □

- في الحادية عشرة مساءً، ظن مَن حول سرير تولستوي أن الحياة قد فارقت الجسد، ولكنه تحرك قرب الفجر!!.. سمعته ابنته يهمس:

ـ ساشا، الآن أود أن تكون صوفيا بجانبي.

هرعت ساشا لأمها:

ـ أماه أرجوك لا تبكي أمامه. لقد كان يهذي باسمك بأرقّ صوت سمعته من أبي.

- كان مغمض العينين. ما إن شعر بوجودها، حتى علت البسمة وجهه. مدّ يده نحوها. أسرعت تجثو إلى جانب فراشه. قبّلت يده، لثمتها، أغرقتها بالدموع الصامتة، أخذت تناغيه وتناديه.

ـ حبيبي، ليون تولستوي، ليوفوتشكا، أحبك.

أحست فجأةً ببرودة الموت في اليد المحبوبة، وإذا بساشا في صوتها ضراعة باكية:

ــ أماه، إن أبي الآن مع خالقه.

□ □ □

رامبو.. وفيرلين!!.. إبداعٌ وشذوذ

الثنائيات في عالم الشعر والفن والإبداع كثيرةٌ لا تكاد تحصى: (شيللي وبايرون)، (فان غوغ وجوجان)، (فاغنر وليست)، (غوته وبيتهوفن)، (العقاد والمازني)، (حافظ وشوقي)، الخ...

صداقاتٌ وطيدة أثرت إيجاباً بشكلٍ أو بآخر في مسيرة الفن والأدب والإبداع، غير أنه ما من صداقةٍ أثرت سلباً من الناحية الإنسانية والأدبية كتلك التي كانت بين الشاعر آرثر رامبو والشاعر بول فيرلين!!

□ □ □

كان فيرلين بعد أن التحق بكلية الحقوق يكتب البيت أو البيتين من الشعر ويعرض ما كتبه على أحد مدرسيه القدامى ويسمع منه الإطراء.

ـ هذا شعرٌ جميل يا فيرلين، ولكن لماذا لا تكتب قصيدةً كاملة؟!

ـ لأنني أخشى ألا أُوفّق. ثم إنني لم أقرأ كثيراً.

ـ نصيحتي إليك ألا تقرأ شعر المحدثين أبداً.. وأقلل أيضاً من قراءة شعر القدامى؛ لأن لك أسلوبك الخاص. المقاطع الصغيرة والقوافي ذات الطبيعة المُمَوسقة درامياً، هذا شيٌ جديد. ثق بأنك إذا ثابرت ستغدو متميزاً بين الشعراء المعاصرين.

ونشرت له صحيفةٌ أدبية أول قصيدةٍ بعنوان (**أغاني الخريف**):

آهات الخريف الطويلة

تمزّق قلبي

تدميه

فتكتنف حياتي

آلام البؤسِ

الحافلِ بالملل

□ □ □

ـ ١ ـ

● ابتدأ فيرلين يرتاد مقاهي باريس وحاناتها، وصار يطاول الفنانين والشعراء والكتاب من ذوي الشهرة الثابتة في عالم

الشعر، وبات لا يعود إلى بيته إلا في ساعاتٍ متأخرة من الليل، فيجد أمه قلقة عليه:

ـ إنك تقتل نفسك يا بني!! استحلفك بالله أن تفعل ما تريد ولكن بحق السماء لا تُسرف في الخمر!!

ـ **وماذا يبقى لي إذا تركت الخمر؟!!**

ـ تزوج يا ولدي!!

ـ **ومَن تلك التي ترضى بي؟! ألا ترين دمامتي وقبح وجهي؟!!**

ـ لا تقل ذلك يا فيرلين. إنك لست قبيحاً، وستجد مَن تُحبّك.

□ □ □

● وبينما كان فيرلين وأمه في زيارةٍ لأحد أقربائهم الذي كانت له أخت في السادسة عشرة من عمرها وكانت تعشق الشعر بجنون، وجدت أمه أن الفرصة مناسبة للتعارف بين الفتاة وفيرلين، وهذا ما حدث بالفعل حيث صار يكثر من التردد على أقربائه بصحبة أمه، وانفرد يوماً بماتيلدا.

ـ لقد قرأت لك كثيراً يا فيرلين!!

ـ **كثيراً؟! إنني لم أنشر غير ست قصائد!**

ـ قرأتها كلها.

ـ أيروقك وجهي يا ماتيلدا؟!

ـ كله ذكاء. إني أتأمله بسعادة وأرى أن من له مثل هذا الوجه الذكي لا بد أن يكون موهوباً.

ـ تأمليني جيداً يا ماتيلدا ودعكِ بحق السماء من الذكاء!!

ـ لا أعرف كيف أصفك ولكنك تروقني جداً!!

ـ هل تعرفين يا ترى أني أحبك يا ماتيلدا؟!

ـ وأنا أحبكَ!!

ـ لأني شاعر؟!!

ـ لأني أحب الموسيقى، وأنت تكتب الموسيقى بالكلمات!!

□ □ □

● وتشبّث بـ ماتيلدا حيث كتب في يومياته:

«فتاةٌ جميلة تُحبّني؟!! يجب أن أتزوجها. يجب».

وتم الزواج بعد فترةٍ وجيزة، ولكن لم يدم شهر العسل أكثر من ثلاثة أيام، كتب بعدها في يومياته:

«كان يجب أن لا أتزوجها. لقد خيبت ظنّي، وخيّبتُ ظنّها».

وصار يقضي الليالي في الحانات. وعندما أرسل قصيدةً كان قد كتبها إلى فيكتور هوغو في منفاه، رد عليه الكاتب الكبير:

«إنها باقةُ عطرٍ بين دخان القنابل الخانق».

(يشير هوغو بذلك إلى الهزيمة المذلة التي لحقت بالجيش الفرنسي بعد أن احتل فون مولتكه قائد الجيش الألماني باريس ومدن شرق فرنسا كلها).

ـ ٢ ـ

● لكن قصائده لم تتوقف برغم المعاناة التي سبّبتها الحروب، وكان فيرلين يتلقى بعض الرسائل من قراء شعره، فلفتت نظره رسالة جاء فيها:

«أستاذي العظيم الشاعر الأعظم بول فيرلين، أعبّر لك عن إعجابي الغامر؛ فأنت يا سيدي الأول في هذا الميدان، ولا شاعر سواك، ولا أحد يقف بجانبك على قمة المجد. لقد قرأت لك قصيدة (أعياد الحب)، فحفظتها عن ظهر قلب لأول قراءة. إنها أكثر من سماوية. لا أعرف لها وأنا الشاعر الذي يجرّب حظه في الشعر وصفاً يفيها حقها!!

كلمة صغيرة عن نفسي. اسمي آرثر رامبو، شاعرٌ مبتدئ، لكن روحي توّاقة إلى الارتواء من رحيق فنك. أحاول أن أُقلّدك ولكن دون جدوى!! أعيش في قرية شارليفيل وأكاد أن أختنق فيها. أود لو أعيش في باريس، ولكنني فقير. ولكي أكون صريحاً معك، فأنا لا أملك حتى قوت يومي. «آرثر رامبو»

ملحوظة: أرفق مع هذه الرسالة آخر قصيدةٍ كتبتُها».

□ □ □

● فيذهب فيرلين إلى الناشر ليميير عارضاً عليه القصيدة التي وصلته في البريد وهو في أشد حالات الحماسة.

ـ باريس يا فيرلين مليئة بالشعراء، فماذا يفعل شاعرٌ ريفي في وسط هؤلاء؟!!

ـ لكن قصيدته رائعة يا ليميير.. مثل هذا الشاعر يجب أن يأتي إلى باريس!!

ـ وكيف يعيش هنا؟!!

ـ انشر له قصائده.

ـ لا يا عزيزي فيرلين هذه المجلة ليست ملجأً للعجزة!!

ـ إذن سأستضيفه في بيتي.

ـ هذا هو الجنون بأم عينه يا فيرلين. وماذا ستقول لزوجتك؟!

ـ المهم أن يحضر.

□ □ □

ـ ٣ ـ

● وكتب إليه ووضع له في الرسالة مالاً حتى يتمكن من الحضور إلى باريس.

وجاء رامبو إلى العاصمة الفرنسية بأسرع مما توقع فيرلين!!

ـ إنه رائع يا ماتيلدا.

ـ ولكنه يا فيرلين صبيٌّ لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره!!

ـ ومع ذلك فهو شاعرٌ كبير ومُجدد، وسوف يبزّ كل شعراء فرنسا.

ـ أنت شاعر وتعرف، أما أنا فمجرد قارئة متذوقة للشعر.

ـ خذي يا ماتيلدا قصيدته هذه بعنوان (الزورق المخمور). كم تمنيت لو أني كتبتُ شيئاً كهذا!!

ـ وأين سيقيم شاعرك يا فيرلين؟!!

ـ معنا هنا!!

ـ هنا؟!! . . في منزلي؟!

ـ فقط لأيام، إلى أن نجد له مكاناً يسكن فيه. ثم إنه مجرد صبي يا عزيزتي.

□ □ □

● ولم يكن رامبو غير شيطانٍ خرج من أنتن حُفر جهنم، فما هي إلا أسابيع مكثها في باريس مارس فيها أبشع أنواع الموبقات، بل إنه تطاول على الكُتّاب والمفكرين والشعراء في منتدياتهم، متهماً إياهم بالتخلف وعدم التجديد. ولم تسلم ماتيلدا من سخافاته وقلة أدبه حيث صاح فيها يوماً:

«ومَن تكونين غير امرأة رجلٍ لا يمتّ إلى الرجولة بصلة».

ولـم يبالي فيرلين بما سمع، وقال لصاحبه وهما في طريقهما إلى مقهى الشعراء في مونبارناس:

«هيئتها وهي حامل مقززة. ربما ستهبني طفلاً لا يُحسن تذوّق الشعر».

□ □ □

وفي المقاهي صار رامبو يتجاسر وينتقد أشعار فيكتور هوغو الذي كان في تلك الأيام منفياً بإنكلترا، فإذا ما حاولوا مناقشته صاح فيهم:

أيها التافهون، إنكم تكتبون الشعر كأنكم تؤدون واجباتٍ وظيفية مكتبية!! أنا وفيرلين ولا أحد بعدنا. وربما لا أحد قبْلَنا أيضاً.

□ □ □

وما يعزز موقف هذا الشيطان رامبو أنه كتب شعراً جميلاً أخّاذاً، فلا أحد ينكر جمال شعر هذا الشيطان الخارج من الجحيم، ولا حتى جمال شعر فيرلين، **ولكن الحياة التي اندمج فيها بكل قبحها والتي جرّ إليها صديقه فيرلين** كانت بشعة، قذرة، ملوثة!!

□ □ □

وضاقت الزوجة ماتيلدا بالضيف الوقح، وضاقت أكثر بهذه الحياة الزوجية التي لا تشبه في أي شكلٍ من أشكالها العلاقات الزوجية المعتادة، بعد أن أمعن رامبو بالإساءة إلى استغلال

علاقته بفيرلين الذي غدا لا يكتب الشعر إلا إذا عكف وصديقه على الشراب وجلس كلٌّ على منضدةٍ يكتبان القصيدة تلو القصيدة، ويذهبان إلى مقاهي المونبارناس.

وذات ليلة يشتطّ رامبو في نقد أحد شعراء المجموعة، وهو جان إيكار فتصدى له مَن ينهاه عن ذلك الفُحش الذي يتطاول به على الشاعر

ـ كُفّ عن هذا السُخف يا رامبو أو غادر المقهى!!

ـ ليس قبل أن أُحطّم شعرك السخيف أو أحطّم رأسك!!

ـ ما هذا التصرف العجيب؟! لم يحدث أن اعتدى أحدٌ على الشعراء في هذا المقهى من قبل، فما بالنا بهذا الشقي الذي يهدد بالضرب أيضاً!!

ـ إنني لا أهدد عبثاً وسأضربك حتى تكف عن قول الشعر.

ـ يا فيرلين، إننا نرحب بك في أي وقتٍ معنا، ولكن صديقك هذا لا يحسن الأدب!!

ـ إني أتضامن معه في كل ما يفعل، ولن نأتي إلى مقهاكم القميء بعد الآن!!

□ □ □

وأصرت ماتيلدا على أن يغادر رامبو المنزل وإلا غادرتهُ هي؛ فلم يمانع فيرلين، وظل يعيش مع رامبو حيث اندمجا معاً في

حياةٍ تحتوي على كل أنماط الإباحية، وأشكالها، ومعانيها!!!

وفي يومٍ حضرت والدة فيرلين وهي تحمل مسدساً تهدد به رامبو إذاً لم يخرج من حياة ولدها!

ففرَّ الشاعران الشاذّان معاً إلى لندن، حيث عاشا حياة الفاقة والتشرّد والشذوذ.

وكتب فيرلين في تلك الفترة أروع أشعاره كلها: (أصوات وأضواء) و(عشق بلا كلمات) و(شهور في الجحيم).

ولأن فيرلين كان يقوم بأعباء المنزل، فقد أطلق عليه رامبو لقب (ربة البيت الصغيرة)، فتخاصما إثر ذلك واشتبكا في معركةٍ كانت نتيجتها أن أُودِعا السجن.

□ □ □

ثم اختفى رامبو من حياة فيرلين الذي عاد إلى باريس، فوجد أن المحافل الأدبية ترفضه، وكان يقول لكل من يسأله عن صديقه الشيطان رامبو فيجيب:

ــ إنه شيطان. لا شك في هذا، لكنني عوّلت أن أجعل منه ملاكاً!!

وعاش فيرلين حياةً هادئة، لكنه في كل ما كتبه من مذكرات، نجد فيها حنيناً واشتياقاً لرامبو.

□ □ □

ـ ٤ ـ

دار الزمان دورته برامبو، وإذا به يترك الشعر ليمتهن مهناً ما أنزل الله بها من سلطان. فمرةً نجده تاجر سلاح في أفريقيا، ومرةً أخرى يكون تاجراً للرقيق والنخاسة، وقد تسربل في متاهات الغابات الأفريقية في مثل هذه المهن وغيرها إلى أن حطّ الرحال في محطته الأخيرة في عدن. واكتنفت حياته الأمراض، فاصطحب معه صبياً رافقه إلى رحلة الموت في مرسيليا.

ومع كل هذا، فإن النقاد يُجمعون على أن رامبو قد ترك قصائد لا مثيل لها من الروعة في تاريخ الشعر الفرنسي.

□ □ □

غـوتــه
تجاوز السبعين.. ويعشق مراهقة!!

يعتبـره الشـعب الجرماني أنه شاعر الدنيا الأوحد، وبعضهم يرى أنه إذا كان ويليـام شيكسبير أعظم شـاعر أنجبته البشرية، فـلا ريب أن الذي يليه في المرتبـة ولفغانغ غوتـه، شاعر ألمانيا الفذ.

● لن نبحث في ماضيه الأدبي والفكري والثقافي، فالأمر في هذا قد يطول بنا، لكننا سنقف على جزئية عجيبة من حياته، يرفض منطق الطبيعة تصديقها. عندما بلغ الثالثة والسبعين من عمره وهام عشقاً بشابةٍ لم يتجاوز عمرها السابعة عشرة!! فتاريخ الأدب العالمي لم ينسَ ذلك الوهج الأخير للشمعة الباهرة النور، كان الغذاء الروحي الذي دفع غوته إلى كتابة أعظم أعماله قاطبةً، مسرحية «**فاوست**».

ويجمع النقاد على أن شخصية (مارغريت) في فاوست هي

صورة طبق الأصل من حبيبة القلب (أولريك) الحسناء، تلك المراهقة التي عشقها.

□ □ □

● لغوته مغامرات نسائية متعددة، بدأها في لايبزيك عام ١٧٧٠ بعد أن غرر بأكثر من فتاة من أجمل فتيات المدينة. آخرهن «شارلوت»، التي خلّدها بروايته الرائعة «آلام فارتر»، وهو بارع الهروب من ضحاياه، فقد عُثر على مذكرات فتاة اسمها ليلى شونمان كتبتها في عام ١٧٨٠ تقول فيها:

«أغراني غوته كما فعل مع العديدات من بنات المدينة، إذ أقنعني بأنني الوحيدة من بينهن التي كان يحلم بالزواج منها، ولهذا سوف يخطبني، ولكنه غادر ستراسبورغ منذ خمس سنوات، ولست ألومه، فنحن اللاتي كنا نلقي بأنفسنا عليه، وهو طموحٌ جداً، لا يهتم بغير شِعره، وبغير أمله في أن يغدو سياسياً كبيراً. لهذا ما إن علم أن أمير فيمار معجبٌ بشِعره، حتى تركني وسافر إليه، لكن قصائده الجميلة التي يعبر فيها عن حبه لي، ستبقى منقوشة على صدري بدم قلبي الذي يقدسه!!».

□ □ □

● نختزل الزمن، ونقف عند محطة غوته الأخيرة فيمار، وهو في الثالثة والسبعين من عمره.

في تلك المدينة كان الدوق الأكبر حاكم مقاطعة ساكس فيمار،

قد احتضن غوته، وأكرمه أيّما إكرام عندما قدّم له المال، وأشاد له قصراً لكي يقيم فيه، بل وجعله مستشاراً له، حتى يتفرغ لإبداعاته الفنية ويحفّه برعايةٍ لا حدود لها.

وعندما تسلم الدوق رسالة من أحد أصدقائه الأمراء يتساءل فيها عن حقيقة شائعة أن غوته الذي تجاوز الثالثة والسبعين يطلب الزواج بشابةٍ صغيرة، فيردّ الدوق على صديقه الأمير:

«من المؤسف أنها ليست مجرد شائعة، إنها حقيقة!! أليس هكذا يفعل الحب بالناس يا صديقي الأمير؟!»

ثم يتوافد الناس على قصر الدوق، ليستطلعوا منه حقيقة أمر شائعة زواج غوته بفتاة في السابعة عشرة من عمرها، فتكون إجابته لزوّاره المتسائلين:

«آسف جداً. هذا سرُّ غوته الخاص، لا أملك أن أخوض فيه دون إذنٍ منه، فأنا لا أتدخل في شؤونه، رغم أنه من أعزّ أصدقائي».

□ □ □

- وقد كتب سكرتير غوته جان ستادلمان، وهو خادمه الذي لا يفارقه أبداً، كتب في دفتره الخاص:

«إن غوته منذ أن عشق الآنسة الصغيرة، أصبح يكثر الإطراق والصمت مع جنّيات أحلامه اللاتي يوحين إليه بالشعر، وقد

بدأت قصته مع الآنسة أولريك في وقتٍ لا يتناسب أبداً مع سنه ومقامه الكبير في أوروبا، فهو في الثالثة والسبعين، ويعتبر من أكبر أدباء ألمانيا منزلةً ومقاماً، وأشهر شخصيةٍ أدبية في أوروبا كلها، إضافة إلى أنه يشغل منصباً سياسياً هاماً كمستشار لأمير مقاطعة ساكس فيمار. وفجأةً يقع في غرام فتاةٍ في سنّ حفيدته. أما كيف حدث ذلك، فالمصادفة وحدها قد أدّت دورها لتربط بين الأديب العجوز بالآنسة الصغيرة.

كان غوته يستجمّ في ضواحي كارلسباد، وبينما هو راكب على جواده، فقد التوازن فحملوه إلى أقرب بيت. وهنا لعبت المقادير لعبتها، فقد كان ذلك بيت الكونت فون لفتزوف، والد الآنسة أولريك وظلّ مريضاً لمدة أسبوع يصارع الألم، وقد أدّت أولريك الصغيرة، التي كانت معجبة بأشعاره وتحفظها عن ظهر قلب، أدّت دوراً كبيراً في أن يستردّ غوته عافيته. والعجيب أنه استردَ أيضاً شبابه وفحولته.

فبعد أن شُفي من مرضه، عاوده الإحساس المرهف، والشعور العاطفي المتأجج. وأستطيع القول إنه بدا لي كمراهق كبير في السن، ولكني أؤكد أن كل تصرفاته تدلّ على أنه الحب، أجل حبّ الحسناء الصغيرة، كأنما استيقظ في عروق غوته من جديد بطل قصته المشهورة «آلام فارتر». إنه حبٌّ جارف، وما أراه من تصرفاته أنه عاشقٌ حتى النخاع. أما أولريك وما هي مشاعرها تجاه الشيخ الهرم، فالذي يبدو لي أنها كانت تسايره لكي يعيش

هذه الحالة من العشق، ولا شك أنها حالةٌ كانت تُشعره بالسعادة».

□ □ □

● ولما طلب الدوق من إحدى العاملات في قصره أن تستطلع وضع الفتاة أولريك، لترى ما هي مشاعرها حيال حب الشاعر الكبير الجارف لها، جاءه بعد فترةٍ وجيزة تقرير فحواه:

«إن تصرفات الفتاة مع غوته مسؤولة إلى حدٍّ كبير عن الانقلاب الذي حدث للرجل الكبير والذي يبدو أنها شجّعته حينما كان يداعبها كعادته حينما يلتقي بالنساء الجميلات، ثم فجأة نبتت في ذهنه الفكرة الجنونية التي فاجأت الجميع».

□ □ □

● على أثر ذلك زاره الدوق في قصره، متسائلاً عن أحواله، فبادره غوته الشاعر الكبير بالقول:

ـ إنني أحب الفتاة حباً جماً، ولا مفرّ لي إلا بالزواج بها.

ـ ماذا؟! أفق من ضربة السحر يا عزيزي غوته. . . إنها في سنّ حفيدتك! هل تتخيل كيف سينظر لك الناس إذا ما حدث ذلك؟!

ـ إني قادر على إسعادها، وهي الوحيدة القادرة على إسعادي،

ولا يهمني كيف سينظر إلينا الناس أو ما سيقولونه عنا!!

ـ أيها الشاعر الكبير، اسمح لي بالقول إنك واهم. هذا زواجٌ غير متكافئ. لا ترتكب ـ تحت وطأة عواطفك الجيّاشة ـ ما يجعلك موضع استهجان لرجلٍ تعتبره أوروبا أحكم حُكمائها، وأذكى أدباء عصرها. فكّر يا صديقي، وراجع نفسك.

ـ لقد فكّرت طويلاً، واستقرّ رأيي ولا مجال لتغييره!!

ـ هل فاتحتها في ذلك؟!

ـ كلا. كلما هممت بمفاتحتها حالت بيني وبينها تلك الأفكار التي تجول في ذهنك الآن!. لذلك، أرجو يا صديق العمر أن تقوم نيابةً عنّي بهذه المهمة.

ـ ولكن يا عزيزي غوته، إنها ووالدها الكونت فون لفتزوف، قد يعتقدان أن طلبها للزواج بك، أمرٌ صادرٌ لهما، حينئذٍ لن يكون قبولهما صافياً نابعاً من حبٍّ حقيقي!!

ـ يا صديقي الدوق، إنك أقدر الناس على صياغة طلبك دون أن يكون له صفة الأمر.

ـ حسناً، سأكلم والدها في الأمر.

ـ كلا. كلا. كلّمها هي.

□ □ □

● وأخذ غوته يكتب معبّراً عن قلقه:

«أهو أملٌ في لقاء؟!

أم هو الوداع؟!

قلبي يحدثني

إنه لقاء

توحيه أكمام هذا الزهر

ولمّا تفتح بعد

ها أنت ترى الجنة والجحيم أمامك مفتوحان

فأيّ أفكارٍ تتأرجح بين جوانحك؟!»

□ □ □

● وكان جواب أولريك ابنة السابعة عشرة ربيعاً:

ـ يا صاحب الفخامة الدوق، لا أحد في الدنيا كلّها يقدّر الكونت غوته كما أقدّره أنا وأحبه، ولكني مترددة في موضوع الزواج به.

ـ سأنعم على والدك بلقبٍ كبير، وأهبك قصراً ومزرعةً في أي مكانٍ تريدين من المقاطعة، ولكن بالله عليك لا تكسري قلب شاعرنا العظيم!!

ـ سيدي، إني على استعدادٍ لأن أخدمه طوال حياتي، أما

الزواج به، فهو أمرٌ لا طاقة لي على القبول به فوراً، فأنا بحاجةٍ إلى التفكير.

● ولم تحسم الأمر بالقبول أو الرفض. أما غوته، فقد كان في أشد حالات التيه والانتظار المعذب:

«اتركوني هنا يا رفاق حياتي..

وحيداً على الصخر.. وحيداً بين السماء والأرض..

أبحث وأنقّب بعيني الحائرتين..

لعل الطبيعة تبوح بسرّها الغامض لي..

إنني ضائع يا رفاقي.. تضنيني اللهفة..

إلى تينك الشفتين.. لكنهما تهجرانني وتمضيان..

فأسقط إعياءً على الأرض».

□ □ □

● وبينما كان سكرتيره جان ستادلمان يكتب ما تجود قريحة غوته به من أشعار وهو يملي عليه، يفاجئه بقوله:

ـ لا، لا. لننسَ الأمر كله يا جان، لننسَ هذه الوعكة المرضية النفسية!! ولنبدأ بالرواية التي كانت مشروعاً مؤجلاً منذ سنوات، رغم أنني كتبت أجزاءً كبيرة منها. يا صديقي، لنركز على فاوست بعد أن توافرت في ذهني كل ملامحها وكأني أراها رأيَ العين.

همنغواي أنّبه ضميره، فانتحر!!

● بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية، أخذ همنغواي يبحث عن أغنيس فون كورفيسكي التي أحبها في معظم مدن أوروبا.. ولما يئس عاد حزيناً إلى نيويورك.. وحين نُشرت روايته الشهيرة (وداعاً للسلاح)، جاءته هذه الرسالة على عنوان الناشر:

«صباح الخير يا وسيم، روايتك عظيمة، ولكنك لم تفِ بوعدك!! لماذا ذكرت فيها أشياء كثيرة هي كنزي وكنزك وحدنا؟! لعلك الآن تعيش قصة غرام؟! هل اخترتها في مثل سنّك يا وسيم؟! دعني أصارحك يا (أرني) أنا لست الفتاة الطيبة الرقيقة التي تظنها، فلكل إنسانٍ عيوبه يا (وسيم). لم أكن أريد أن تُشوّه صورتي في عينيك إذا تزوجتني. فمن المؤكد أنك كنت ستعرف كل شيء، وكنت ستكرهني، وهذا ما لم أكن أستطيع تصوره. (أرني) يكرهني؟! الموت أهون علي من

ذلك. حبيبتك ذات الفم الرطب (أجي)».

لم يكن همنغواي يعبأ بما كتبته عن نفسها، فهو يحبها رغم كل تجاربها السابقة وكان على معرفة بها. ولم يحب من قبل كما أحبها.

□ □ □

ـ ١ ـ

● في ٢ يوليو عام ١٩٦١ استيقظ أرنست همنغواي مبكراً، منادياً خادمه:

ـ ألفريد. ألفريد.

ـ نعم يا سيدي. لقد استيقظتَ مبكراً وليس هذا موعدك المعتاد. هل تنوي السفر يا سيدي؟!!

ـ كلا. كلا ألفريد. هل السيدة في الحديقة؟

ـ لا يا سيدي. لقد ذهبت إلى السوق.

ـ في السابعة والنصف صباحاً؟!

ـ قالت إنها ستمر على منزل صديقتها السيدة ويلكوت، وستتناول معها طعام الإفطار ثم تذهبان معاً إلى السوق. أظن أن السيدة أخبرتك بذلك مساء أمس وأنتما على العشاء!

ـ من المؤكد أنني لم أكن منتبهاً إلى ما قالت.

ـ هل أُعِدّ لك الإفطار يا سيدي؟!

ـ كلا. اذهب إلى حظيرة الخيول، وجهّز لي الجواد نستراداموس. سأخرج إلى جولة في الغابة القريبة.

ـ كما تشاء يا سيدي.

وذهب الخادم إلى الحديقة الملحقة بالبيت الأنيق الذي شيّده همنغواي عند أطراف سلسلةٍ من الجبال الصخرية المحاطة بالغابات الكثيفة في ولاية أيداهو.

واتجه إلى خزانة الأسلحة وفتح بابها الزجاجي وأخرج بندقيته الأثيرة (كورونا ٣).

مسح كعبها الخشبي كما يمسح رأس طفلٍ محبوب، وعاد بها إلى المنضدة وسط الغرفة. وفي هدوءٍ وضع في مخزن البندقية رصاصةً واحدة.

ثم أخرج قلماً من جيب قميصه وكتب على ورقةٍ صودفَ وجودها على المنضدة، كانت فاتورة حساب البقالة القريبة للبيت. لم يعبأ بمحتواها، وأخذ يكتب خلفها:

«لم أعد أحتمل!! إنها تلاحقني ليل نهار في عينيها الجميلتين نظرة عتابٍ مروعة. لم تكن خائفةً مني. كم كنت نذلاً. لكنني لم أكن أقصد يا (آجي)!! أنتِ تعرفين أنني لم أكن أقصد».

ألقى بالقلم وأمسك بالبندقية ثم وضع الفوهة في حلقه وضغط على الزناد.

□ □ □

ـ ٢ ـ

كتب المحقق الأدبي مايكل موهر:

«هذه الورقة كانت تحمل تاريخ اليوم السابق لانتحار همنغواي، وكان من المفترض أن تكون تحت نظر المحقق القضائي الذي استدعته زوجة همنغواي والخادم ألفريد عقب اكتشاف انتحاره. ولكني لم أجد في محاضر الشرطة ولا في تقارير الطبيب الشرعي أية إشارة إلى وجود هذه الورقة، حتى عثر عليها مصادفةً الفتى الصغير جاك هولدن بين صفحات كتابٍ استعاره من المكتبة العامة في مدينة هيوستن.

تُرى لماذا اختفت تلك الورقة منذ ذلك التاريخ ؟! ومَن أخفاها ؟! أهو الخادم ألفريد الذي كان أول من هرع إلى البيت فور سماعه الطلقة وهو في حظيرة الجياد؟! أم هي الزوجة حين عادت على أثر مكالمة ألفريد التلفونية؟!

الثلاثة الآن بين يدي الله. فلا أمل في معرفة الحقيقة منهم، ولم يبقَ إلا أن نتحرى الحقيقة وفقاً لتسلسل الأحداث التي أسفرت عنها التحقيقات في هذه القضية».

□ □ □

● إن النتائج التي توصل إليها المحقق الأدبي موهر مثيرةٌ للدهشة، وهي تشير إلى صفحاتٍ منسية من حياة همنغواي!! صفحاتٍ قديمة!! تقوم أحداثها على صورة فتاةٍ جميلة رشيقة اسمها أغنيس فون كورفيسكي، أو آجي كما كان يدعوها همنغواي. . أو فون كما كان يدعوها زملاؤها في مستشفى الميدان قرب مدينة ميلانو الإيطالية. وهي ممرضةٌ تبلغ السابعة والعشرين من عمرها، مرحة محبة للحياة.

● وبينما كانت تسير في ردهة المستشفى سمعت صديقتها زيلدا تناديها:

ـ فون. فون.

ـ ماذا هناك يا زيلدا؟! العمل اليوم كثير جداً. فلا وقت عندي للحديث عن مغامراتك العاطفية مع الضباط الجرحى!!

ـ هل تذكرين مواطنك الأميركي الشاب الوسيم ؟!

ـ كثيرون هم الذين جاؤوا من أميركا ليشتركوا في هذه الحرب التعسة. فمن تعنين؟!

ـ سائق عربة الإسعاف. أرنست.

ـ آه. هذا الذي لا يكف عن الكتابة!! تصوري أنه يكتب حتى وهو يقود السيارة. ولكن، ماذا عنه؟!

ـ إنه يرقد الآن في الجناح الذي تعملين فيه.

ـ (بلهفة) هل هو مصاب؟!!

ـ انفجرت قرب سيارة الإسعاف التي يقودها قنبلة ونجا من الموت بأعجوبة. اذهبي إليه، فهو لا يكف عن السؤال عنك.

□ □ □

ـ ٣ ـ

● كان أرنست همنغواي في العشرين من عمره حين تطوع في الحرب، فاختاروه ليقود سيارة إسعاف في منطقة ميلانو، وأعجب بمواطنته الأميركية الشابة أغنيس فون كورفيسكي وكان يشعر نحوها بميلٍ عجيب. قالت له يوماً:

ـ ألا تكف عن الكتابة يا وسيم؟! هل أنت كاتب؟!

ـ **أحب أن أكون كاتباً، ولكن يبدو أنني لن أفلح في ذلك. لماذا لا تقرأي هذه القصة التي انتهيت من كتابتها أمس؟!**

ـ أنت خالي القلب يا وسيم. تكتب قصصاً والموت يحوم فوق رؤوس الناس في كل لحظة؟!

ـ **أنت التي تقولين هذا!! وضحكتك ترنّ في كل أجنحة المستشفى؟!**

ـ أتعرف، إذا لم نضحك في هذه الأيام الدموية سنموت كمداً بدلاً من أن نموت برصاص الألمان.

ـ هناك يا عزيزتي ما هو أفضل من الموت. أن نموت حباً.

ـ ألم أقُل لك إنك خالي القلب يا وسيم.

□ □ □

منذ أن رقد في فراش المرض كانت أغنيس فون كورفيسكي توليه كل عناية ورعاية، وقد كتب عن هذه المرحلة في يومياته:

«أعرف أنها على علاقة ببعض الضباط، ولكنني أحبها وأظنها ستكون حبي الأول والأخير. سأتزوجها إذا قبلت ذلك. ولماذا لا تقبل وهي معي كل أوقات راحتها؟! بل هي كثيراً ما تقضي جزءاً من الليل على مقعدٍ بجوار فراشي. لا يحزنني إلا أنها تقول لي في بعض الليالي:

ـ لن أقضي معك الليلة وقتاً طويلاً يا أرني. لقد اتفقت مع الدكتور هارلي على قضاء السهرة في مرقص المعسكر. هل يحزنك ذلك؟!!

وكان ذلك يحزنني منها جداً. كنت أريدها أن تبقى بجانبي ليل نهار. كنت أغار غيرةً شديدة من دكتور هارلي رغم أنها تؤكد لي في كل مناسبة.

ـ لا تكن غبياً. لست أحب هارلي. كل ما هنالك أنه ظريف

وكثير الفكاهة، وأنا أحب أن أضحك. الحياة قصيرة يا أرني. يجب أن ينتهز الإنسان كل لحظة ليضحك ويمرح ويسعد. ثم، ثم إنني أشعر شعوراً غريباً بأن حياتي قصيرة.

ـ ما هذا الهراء؟ أنت صغيرة، وستتزوجينني يا آجي.

ـ سأتزوجك عندما تنتهي الحرب يا مجنون، ولكن يجب أن تعرف من الآن أنني شديدة الغيرة، وخصوصاً أنك وسيم، وأنا أكبرك بتسع سنوات.

ـ أنتِ في عيني أجمل وأصغر فتاة في العالم كله يا آجي.

ـ يجب أن تعطي فارق السن اهتماماً أكبر يا أرني، فأنا في التاسعة والعشرين وأنت في العشرين، ومع هذا فسأتزوج بك لو كان الفرق بيننا مئة عام. إذا قبلتني زوجةً لك.

ـ لنتزوج الليلة إذاً!!

ـ (ضاحكةً) وكيف تقف أمام القس؟! بعكازين؟

□ □ □

ـ ٤ ـ

● إلى أين حملهما جواد هذا الحب الجامح المجنون؟!

إشاراتٌ كثيرة إلى انفلاتاتٍ عاطفية في روايته الشهيرة (وداعاً للسلاح)؛ فثلاثة أرباع الرواية هي عبارة عن انطباعات همنغواي عما كان يحدث في مستشفى الميدان في ميلانو، والباقي كتبه

وهو على فراش المرض في ذلك المستشفى.

● ونُقلت أغنيس فجأةً إلى مستشفى فلورنسا، حيث انتشر وباء التيفوئيد فيها ليفتك بأهالي المدينة التاريخية، ومن هناك كتبت إلى صديقها الراقد في مستشفى ميلانو:

«سأكتب إليك أكثر مما تكتب لي، مع أنك كاتب وأنا مجرد ممرضة بسيطة. هل تعرف ماذا كنت أعمل في نيويورك قبل أن أتطوع للعمل في مستشفيات إيطاليا؟! كنتُ بائعة زهور يا وسيم.

لك كل حبي وعواطفي.

ملحوظة: لا تكتب في مذكراتك أي شيء عن آخر ليلة قضيناها معاً!!».

كان يكتب إليها كل يوم دون أن ينتظر رداً. المهم أن يكتب لها بصفةٍ مستمرة. . ويبدأ كل رسائله بهذه الكلمات:

يا نور حياتي، يا صغيرتي الجميلة، يا ذات الفم الرطب، يا حبي الأول والنهائي.

□ □ □

ـ ٥ ـ

توقفت رسائل أغنيس فجأةً!! وكان أرنست همنغواي قد شُفي، ولا بد من عودته إلى أميركا.

كتب في مذكرته الخاصة:

ـ سأبحث عنها في كل مكان وأحملها إلى المذبح لنتزوج. لا أصدق ما سمعت عن أنها سافرت فجأةً إلى لندن. لماذا؟! هل لتتزوج الدكتور هارلي؟! لكن زميلتها زيلدا قالت لي إنها لم تحب دكتور هارلي قط. إنها لا تحب سواك. إذاً لماذا تختفي عني فجأةً ولم تخبر أحداً عن مكانها؟!!

□ □ □

● وهداه ختم بريد الرسالة التي بعثت بها إليه، والتي تعاتبه فيها على ما نشره في قصته (وداعاً للسلاح) من ذكرياتٍ تخصهما فقط.. هداه إلى المدينة التي تقيم فيها، وسافر إلى ميلانو لمقابلة صديقتها زيلدا، التي بادرته بالقول:

ـ أجل إنها في نابولي. ولكن بحق السماء دعها في سلام يا أرنست. إنها متزوجة. تزوجت فتىً طيباً وثرياً وهو يحبها حباً كبيراً.

ـ من هو؟!

ـ دوقٌ إيطالي اسمه دومينيكو كراتشيوللو.

□ □ □

استقبله الدوق بسماحةٍ وحفاوة، وبادره بالقول:

ـ إنها لم تخفِ عني شيئاً عن علاقتكما السابقة يا سيد

همنغواي، وصدقني إذا قلت لك إنني مثلها شديد الإعجاب بروايتك الأخيرة!! ولكن لي رجاءٌ عندك. دع حبنا في سلام، وأتمنى أن تعدني بذلك!!

ـ هل تسمح لي بمقابلتها؟!..

ـ بالطبع يا سيد همنغواي. أنت ضيفي في القصر، وغداً سأقيم حفلاً على شرفك. وإنه ليُشرّفني حقاً أن أستقبل في قصري كاتباً مرموقاً بحجم أرنست همنغواي.

كان حفلاً رائعاً. همنغواي مع أغنيس في قاعة الموسيقى بالقصر، بينما كان الدوق مع أصدقائه في حديقة القصر.

فجأةً دوى طلقٌ ناري. توقفت على أثره فرقة الموسيقى عن العزف، وبعد أن سادت الفوضى في الحفل شاهدوا همنغواي مقبلاً يعدو من الباب المؤدي إلى الحديقة، وهو يخاطب نفسه:

ـ لماذا؟! لماذا؟! (صارخاً) ربّاه، لماذا؟!

□ □ □

ـ ٦ ـ

وجدوا في رأس أغنيس فون كورفيسكي رصاصةً سلبتها الحياة، ولم يجدوا المسدس!! ومن الغريب أن الدوق كراتشيوللو استطاع بنفوذه أن يوقف التحقيق الذي بدأته شرطة نابولي.

وبعد الجنازة عاد أرنست همنغواي إلى نيويورك.

□ □ □

ويختتم المحقق الأدبي موهر:

«ليس هناك من يجسر على اتهام همنغواي بقتل من أحبها، أغنيس فون كورفيسكي التي أصبحت الدوقة كراتشيوللو في ما بعد، ولكنني أستطيع أن أربط الأحداث التي قرأتموها بتلك الورقة التي كتبها همنغواي قبل انتحاره، الورقة التي أخفتها زوجته وخادمه، وعثر عليها أحد القراء مصادفةً في كتابٍ استعاره من المكتبة العامة.

وقد ثبت معملياً أن الورقة كُتبت بخط يد الكاتب الأميركي الأشهر أرنست همنغواي، فأسلوبها ومفردات ما جاء فيها تتطابق تماماً مع مفرداته».

□ □ □

«لم أعد أحتمل. إنها تلاحقني ليل نهار. في عينيها الجميلتين نظرة عتابٍ مروعة. لم تكن خائفةً مني. كم كنت نذلاً! لم أكن أقصد يا آجي. أنتِ تعرفين أنني لم أكن أقصد».

لامارتين
قصيدة البحيــرة

أشهر قصيدة رومانسية في الأدب العالمي كله. كل لفظة من ألفاظها، كل صورة من صورها، وكل معنىً من معانيها قصة عذاب قلب الشاعر. قصة عذابه مع المرأة الوحيدة التي أحبها. قصة (ألڤيرا)!!

لم يكن أسمها (ألڤيرا)، هو أعطاها هذا الاسم الأسطوري الشاعري. اسمها الحقيقي (جوليان شارل). بهذا الاسم نعوها له يوم ماتت.

كان حينها في قريته التي اعتاد أن يلجأ إليها كلما اشتدت به علة صدره، وعلة نكران عبقريته. نعوها له فاستمع إلى الناعي كأنه كان يتوقع لها تلك النهاية. لم يبكِ، بل لم تترقرق في عينيه دمعة واحدة.

وخرج إلى الغابة القريبة. وهناك بكى، ونشج، وتمرغ في

أرض الغابة. بقي هناك أربعاً وعشرين ساعة دون طعام، دون ثياب مناسبة تقيه سيل المطر، ثم عاد. عاد كالشبح الهائم، يسعل بأشد مما كان يسعل.. وكتب إلى صديقه فينييه:

«انتهى كل شيء يا فينييه.. لم تعد صديقتنا من أهل هذه الدنيا.

لماذا لا أعبر؟.. لماذا لا تُحلَّ قيودي كي ألحق بها؟

مما يعزيني يا فينييه أنها لم تعد تتألم، وأنني وحدي الذي يتألم. لقد فارق عالمنا يا فينييه ملكٌ علَّمنا الرقة والوفاء والأمن والحب، في عالمٍ يكره الحب!».

□ □ □

ـ ١ ـ

ما هي حقيقة الفيرا؟

أتستحق هذه الباقة العطرة التي تُعد من أجمل إحساسات البشر، نثر الشاعر ببراعته زهورها النضرة على ذكرياتها؟

كيف عرفها؟ وكيف استطاعت في أقل من شهر أن تحرك وجدان الشاعر فيهدي للبشرية أروع قصائد الحب العذري؟!

□ □ □

البداية كانت في اكتوبر عام ١٨١٦ في قرية أكس ليبان المصح الشهير في فرنسا. كان يستشفي في ذلك المصح من آلام الكبد فتىً في الخامسة والعشرين، جميل الصورة، رشيق العود، ولكن في العينين أبداً نظرة حالمة حزينة لا تعبر عن فورة الشباب وانطلاقه. في غرفته ذات ليلة جافاه النوم. في أول الأمر ظن أن هذا الصوت الذي يتناهى إلى سمعه هو صوت المطر على النافذة المغلقة..

ـ لا، ليس هذا صوت المطر. كأنما هو صوت مصراع نافذة يُغلق. لا، الصوت آتٍ من ناحية جدار الغرفة. ربما كان ساكن الغرفة المجاورة يُغلق دولاباً، أو، أو لعله ينقل مقعداً من مكانه. هذا الذي أسمعه هو دون شك حفيف ثوبٍ. تُرى أرجلٌ هو أم امرأة؟. أغلب الظن أنها امرأة، وإلا لما أغلقت الباب بالمفتاح مثلما سمعت. هكذا هنَّ النساء، أشد منا نحن الرجال حرصاً. لعلها عجوز شمطاء، جاءت تستشفي في أكس ليبان. لأنام إذاً ولأنسَ الأمل في وجود شابة حسناء في الغرفة الملاصقة لغرفتي.

□ □ □

● لم يكن في ذلك المشفى البسيط الذي يديره دكتور بيريه، لم يكن فيه غير أربعة رجالٍ يُستشفون من أوجاع مألوفة. بعضهم يسعل، وبعضهم يشكو الكبد، وآخر يكثر الحديث

عن ثقلٍ في ساقيه، والرابع عجوز في السبعين قال إنه جاء إلى اكس ليبان ليشفى من حب قديم!

من إذاً هذا الذي يختفي في الغرفة المجاورة، أو من هي؟

وفي المساء وجه السؤال في مرح خافت للدكتور بيريه:

ـ إنها سيدة أنيقة يا عزيزي لامارتين. جاءت مثلك شغفاً بمياه اكس ليبان.

ـ ولكني لم أرها؟ أجاءت قبلي أم بعدي؟

ـ بعدك بيومين. وهي تتناول طعامها في الغرفة.

ـ ألا تنزل؟

ـ نادراً جداً. ليس قبل أن تغادروا المشفى جميعاً إلى الينابيع المعدنية على أي حال!

ـ لماذا تختفي هكذا؟ أجاءت لتسجن نفسها في مشفاك يا عزيزي دكتور بيريه؟

ـ إذا كان المرض سجناً، وإنك يا عزيزي لامارتين لتعرف أنه كذلك، فإن الغربة أيضاً سجنٌ من نوع آخر. ربما أشد قسوةً!

ـ هي غريبة إذاً؟

ـ أجل.

ـ من أين ؟

ـ يا عزيزي لامارتين، لا أستطيع أن أبوح لك ما أوصتني بكتمانه.

□ □ □

ـ ٢ ـ

● وصعد الفتى إلى غرفته. وضع أذنيه على الجدار الفاصل. الصمت يسود في الناحية الأخرى.

ـ لعلها نامت. ولكن لا، لا، أعتقد أنها لم تنم بعد. هذا الصوت الذي يتكرر على هيئات منتظمة، كأني أعرف هذا الصوت. أجل أجل هذا صوت تقليب صفحات كتاب. إنها إذاً تقرأ. تُرى ماذا تقرأ؟ ليتني أعرف، وليتها تكون فنانة.

● لازمه الأرق طويلاً تلك الليلة. كل ذرةٍ من ذرات جسده في توتر دائم يحول بينه وبين النوم. إنه يتمنى أشياء كثيرة في وقت واحد. يتمنى أن تكون جارته تلك شابة جميلة، عاطفية، يتمنى أن تكون مثقفة. ويقول:

ـ ما أسعدني لو أنها تعشق الشعر أيضاً، أو تكتبه.

● وتمنى أن تكون ذات طبيعة دائمة التعطش إلى الحب والحنان. مثله!! أن تكون هاربةً من حب خائب يائس مثله!! أن ترتمي في لُجة أول حب جديد عارم، مثله!!

في الصباح نزل ليذهب إلى ينبوع من ينابيع المياه المعدنية في اكس ليبان، ورأى أن يستشير في هذا الدكتور بيريه الذي قال له ضاحكاً:

ـ إنك يا عزيزي لامارتين لست في حاجة إلى نصيحتي في هذا الباب، فأنت تعرف أنني أقمت ثلاثة حمامات، وقد جربتها كلها. أمس كنتَ في الحمام القريب من الحديقة، وأول أمس... (يصمت ثم يهمس) أنت تريد أن تعرف أين ذهبت الشابة الغريبة هذا الصباح؟

ـ أين؟

ـ لا أعرف. خرجت قبلك بساعة. أتريد نصيحة؟

ـ إذا قربتني من مكانها!

ـ آه من الأحلام! آه من الأحلام! لا أعتقد أنها تصلح لك يا عزيزي. ليست من طرازك.

ـ حقاً؟ إذاً ما بالي أسألك؟! أراك على الغداء.

ـ ومع هذا لابأس في أن تجرب مياه الينبوع القريب من البحيرة.

□ □ □

ـ ٣ ـ

● لم يجدها عند ينبوع البحيرة، ولو وجدها لما عرفها. عند

عودته دفع باب حديقة المشفى ثم وقف فجأةً؛ إذ رأى على مقعد الحديقة على بُعد خطوات من الباب، شابةً جالسةً في سهومٍ وقد ضمت كل نفسها في غلالةٍ كبيرة من الصوف الأبيض كأنها غلالة الأشباح، أو الكفن. لم يبق خارج الغلالة البيضاء غير يدين طويلتين أمسكت أصابع اليمنى بقرنفلة حمراء ووقف لحظةً لا يتحرك وتساءل: تُرى هل تشعر بوقع نظراته إليها؟ ثم تنحنح. رفعت رأسها، ورأى وجهها كاملاً، وأخذ يُحدث نفسه في همسٍ خائف:

ـ رباه! هذا الوجه، هذا الوجه، أين رأيته؟ أين؟

وأغلق باب الحديقة الحديدي خلفه. ولا يدري لماذا أسرع إلى غرفته عدواً. كان خائفاً، ويخاطب نفسه وهو يلهث:

ـ هذا الوجه لقد رأيته. في نهاري، في ليلي، في أحلامي، في يقظتي؟؟ هذا الوجه الشاحب وقد أحاط به الشعر الأسود الطويل. الخدان الشاحبان في بياض الشملة التي تلفها. النظرة الخابية العينين. في عتمة الحديقة كان الوجه مضيئاً. حتى هذا الضوء أعرفه. إنه... إنه... الموت!!

● في الصباح كان أول همه أن يسال دكتور بيريه عنها من جديد:

ـ كل الذي أعرفه أنها تدعى جوليان شارل.

ـ من باريس؟

ـ أرجوك. لقد وعدت ألا أذكر شيئاً.

ـ من السهل أن أذهب وأعرف منها كل ما أريد!

ـ لا تفعل، فإن هذا يُفسد العزلة التي جاءت من أجلها. أجل إنها من باريس زوجها معروف بأبحاثه الطبيعية. الدكتور جاك ألكسندر شارل. ألم تسمع به؟

ـ مجالي كما تعرف بعيد عن العلوم. كما أني أكره باريس. ولماذا تركت زوجها وجاءت إلى هنا؟ لتدفن حباً خاب؟

ـ لا أظن. الذي أعلمه أن علاقتها بزوجها الدكتور شارل مثالية. لون من الرقة الناعمة، والوداد الوفي يربطهما رغم فارق السن.

ـ فارق السن؟ إنها لا تزيد على الثلاثين في ما أعتقد.

ـ هو في السبعين!

ـ ماذا؟! في السبعين؟! لا غرو إذاً أنها فرَّت منه، الآن أفهم هذا الحزن على وجهها، الآن أدرك سر ريح الموت الذي يعول فوق رأسها، ماذا تعرف أيضاً عنها يا دكتور بيريه؟

ـ قلتُ لك كل ما أعرف. (مستدركاً) بل هناك شيء آخر، هو أنها لا تريد أن يفسد عزلتها أحد، كل ما تريد من ينابيع اكس ليبان هو الصمت. أرجوك من أجل صداقتنا ألا تُفسد عليها.

● وأطاع نصيحة الطبيب الصديق، وكأنه يُحدث نفسه عندما كان يجلس أمام الدكتور بيريه:

ـ ليست من طرازي. ثم، ثم إنها في ما يبدو تكبرني بكثير. جامعة أحزان، هي. ما لي أنا وهذه الجامعة؟!

□ □ □

ـ ٤ ـ

● وبعد أيام، وعلى وجه التحديد يوم العاشر من أكتوبر، فذلك يوم قدريٌّ في حياتهما، وفي تاريخ الأدب أيضاً، ذهب لامارتين نحو المرسى الصغير للبحيرة، وهناك يستأجر الناس القوارب للنزهة في بحيرة اكس ليبان الجميلة، أو للتنقل بين قُرى المنطقة الواقعة على ضفاف البحيرة.

وسأل لامارتين الملاّح:

ـ قل لي أيها الطيب، هل ترى أن الجو مناسب اليوم لنزهة قصيرة في البحيرة؟

ـ قصيرةٌ وطويلة أيضاً يا سيدي. انظر إلى السماء. أرأيت أصفى من سماء اكس ليبان في هذا الوقت من السنة؟!

ـ حسناً، خذني معك، أيمكن أن تذهب بي وحدي؟

ـ كلا يا سيدي، لا أستطيع أن أحرم العملاء القدامى الذين

اعتادوا التنزه في زورقي. أيُّ ضير في أن تجلس بينهم؟

ـ لا ضير على الإطلاق. إن ذلك يسعدني.

ـ ويسعدنا نحن أيضاً يا سيدي. يقال إنك شاعرٌ.

ـ (مرحاً) **لا تصدق يا سيدي كل ما يُقال.**

ـ ولِمَ لا أصدق لا يطلب النزهة وحده على سطح بحيرة اكس ليبان سوى شاعر!؟

ـ حسبتك قرأت لي شيئاً!

ـ هل تنشر الصحف لك شعراً؟

ـ قليلاً.

ـ إني على ثقة يا عزيزي من أن نزهة البحيرة اليوم ستوحي لك بأجمل قصائدك!

● لم يكن صاحب هذه الجملة الأخيرة يدري مدى ما في جملته تلك من صدق. لم يكن يدري أن بحيرة اكس ليبان وما سوف يجري فوق صفحتها، وعلى ضفافها، ستوحي إلى الشاعر بعذاباتها، ولوعة ذكرياتها، أروع وأجمل قصائد الشعر الفرنسي كله. فعندما يسير القارب بمن فيه على صفحة الماء ناعماً، هادئاً، ويسكت الجميع من هيبة الطبيعة الساحرة، ورأى هو عن بعد قارباً ليس به غير شخص

واحد، وإن ذلك القارب يتعرض لحركةٍ غير طبيعية، فقال للملاح:

ـ ذلك القارب هناك أراه يتأرجح!

ـ (مرحاً) لا تخشَ عليها من الوقوع في الماء يا سيدي!!

ـ عليها؟

ـ أجل. إنها سيدة من مصحّ الدكتور بيريه.

ـ ولكن قاربها يهتز!

ـ إنها لا تُحسن التجذيف. هذا كل ما في الأمر، ولكنها في كل مرة تصل إلى هدفها على كل حال. إنها تقصد الكنيسة الصغيرة القائمة على تل هون كومب.

ـ وحدها؟

ـ هكذا تفعل كل يوم تقريباً!

● وسكت لامارتين، ودار في ذهنه أن شيئاً ما يدفع هذه المرأة إلى العزلة النفسية والجسدية دفعاً شديداً.

ـ لعله حبٌ خاب!! لا يمكن أن مجرد زواجها برجلٍ عجوز هو وحده السبب في الفرار من الحياة... إلى الموت!

وفي هذه الأثناء تعكر الجو الهادئ في البحيرة فجأةً إلى عاصفة

وهطل المطر. وكأنما البحيرة قد غضبت، وهزّت ما عليها من قوارب هزات عنيفة، فصاح لامارتين على ملّاح قاربه:

ـ ألا يمكن أيها الملاح أن تتجه بقاربك نحو قارب السيدة؟ إن قاربها يهتز بعنف ؟!

ـ لا تخف أيها السيد. الشاطئ قريب، وكلنا متجهون إليه.

ـ إذاً، فبحق السماء اتجه إلى الشاطئ الذي يقربنا من قاربها، فإن المسكينة ستغرق في ما أظن.

□ □ □

● وبالفعل فإن قاربها قد انقلب، وأخذ الجميع يجذفون وليس الملاح وحده، ووصلوا إلى أقرب مسافة من زورقها. وإذا بثلاثة من الرجال يلقون بأنفسهم إلى الماء لإنقاذ السيدة، ولم يكن لامارتين يجيد السباحة فظلّ يعاني في قلق في مراقبة ما يحدث حوله، فحملوها إلى الشاطئ وكان هو أقربهم إليها. دفع الجميع وركع قرب المرأة التي كانت فاقدة لوعيها. نظر إليها متفحصاً.

ـ يا إلهي! لقد رأيت الموت من قبل في وجهها، والآن ها هي قد خطت الخطوة الحاسمة نحوه.

● حملها بمساعدة الآخرين لنقلها إلى أقرب منزلٍ في المنطقة،

فكان بيت الصياد جوكو. أعطوها شراباً منبهاً، وقد قامت زوجة الصياد بالطلب إلى الرجال بأن يخرجوا، إذ لا بد من تغيير ثيابها المبللة كي لا تُصاب بالتهاب رئوي فخرج الجميع وظلَّ لامارتين وقد استبدَّ به الخوف على أشده. ورحل الجميع وظلَّ هو فريسةً للهلع والخوف، وكان يخاطب نفسه:

ـ كيف لم أنتبه إلى جمالها الملائكي قبل هذا الحادث؟ ثم لماذا أنا منجذب إليها؟! أخاف عليها كل هذا الخوف. يا الله! كأنني أحبها، وأحبها بجنون وأريد أن أبقى بجانبها حتى الموت. لا، لا يجب أن أذكر الموت بعد الآن ستحيا، بل سنحيا أنا وهي، فالحياة أجمل من أن نعبر قنطرتها إلى الفناء. يا إلهي! إنني أحبها فعلاً أكثر من أي كائنٍ آخر في هذه الدنيا.

□ □ □

ـ ٥ ـ

● أذنت زوجة الصياد للامارتين بأن يدخل إلى الغرفة بعد أن قامت بتغيير ملابسها، فجلس على مقعد كسيح قرب فراشها. كان المصباح النحاسي المعلق وسط الغرفة البسيطة يلقي ضوءاً شاحباً ممزوجاً بالظلال المتوجه على وجهها. كانت مغمضة العينين، لكن أنفاسها تتردد في هدوء. كسرت زوجة الصياد الهدوء:

ـ دعها الآن أيها الفتى. إنها نائمة. أهي أختك ؟

ـ أختي ؟! أجل! أجل!! إنها أختي!!

ـ يحسن أن تبقى هنا الليلة. اذهبا في الصباح إذا شئتما. لا تخف، فلن أتقاضى منك شيئاً. إن هذا يحدث كثيراً في الخريف.

● في صباح اليوم التالي فتحت عينيها، رأته قربها يطيل النظر إلى وجهها، فتحركت شفتاها (في هدوء).

ـ ماذا جرى لي ؟

● وقصّ عليها ما حدث وعينه في عينها، شعر بالدم يتدفق إلى وجنتيها. للمرة الأولى يتوهج خداها بالحمرة، ومدّت كفها لتضغط على كفه وهمست:

ـ شكراً لك يا أخي. ألست أخي ؟!

● عادا وحدهما في قارب واحد. هو الذي كان يجذف ورأسها على ساقه، وعيناها قد تركزتا على وجهه. ثم قالت له هامسةً:

ـ يا له من مباغت هذا الحب. باغتني بشدةٍ وبعنف كما باغتك يا، يا، يا أخي!! لا أجدني إلا معك في قادم أيامي وحياتي، يا أخي!!

ـ قوليها مرةً أخرى يا حبيبتي، قوليها مراراً. لا تملي أبداً من

ذكرها. أجل، في قادم أيامي وأيامك. . إلى الأبد الى الأبد يا ألفيرا.

□ □ □

ـ ٦ ـ

● وكتب لامارتين إلى صديقه ينييه خطاباً:

«أول أمس أنقذت امرأة شابة من الغرق في بحيرة اكس ليبان. إنها تملأ الآن كل لحظةٍ من لحظات أيامي. العلاج؟ الينابيع؟ وصفات الدكتور بيريه؟ الشعر؟! لا تسألني عن هذا أبداً. فاذا سألت فعندي إجابة واحدة لكل أسئلتك. اني عاشقٌ، عاشقٌ كما لم أعشق من قبل!! ولن يحدث عشقٌ كعشقي هذا بعد».

● ولم يعد يفارقها إلا حين يذهب كلٌ منهما إلى غرفته. كانت تذهب على الفور إلى فراشها بعد أن تغلق عليها الباب. أما هو، فقد كان يقف قرب الحائط الذي يفصله عنها طوال الليل. يقف مرهفاً أذنيه لكل حركة، فاتحاً قلبه على مصراعيه، متلهفاً لالتقاط كل ما يصدر من وراء الحائط.

فإذا جاء الصباح هرع كلٌّ منهما إلى الآخر كعصفورين مذعورين.

وكتب الدكتور بيريه في دفتره الخاص:

(جاء ليشفى من حب خاب، ليقع لا محالة في حبٍّ سيخيب.

عجباً لك يا لامارتين! إنها جميلة أجل، رقيقة أجل، ولكنها ميتة بكل تأكيد!).

□ □ □

● في ركنٍ دافئ من زاوية القاعة جلسا ويدها في يده، وسألها عن حياتها، فسألته عن حياته، وطال بينهما السرد التاريخي لتفاصيل حياة كلٍّ منهما، فقال لها:

ـ حياتي كتاب مفتوح، لا أنكر أن مقدمته تتكلم على الحب، وفصله الأول يحكي غرامي بابنة الصياد، والفصل الثاني بابنة صاحب أول دار سكنتها وحدي، والثالث عن أنطوانيت الماكرة، وفصول أخرى لا يتسع المجال لذكرها. أما الفصل الأخير الذي لا فصل بعده وسوف أختتم به كتابي فهو فصل ألڤيرا!! أنتِ يا حبيبتي، وأنتِ يا ألڤيرا؟

ـ (في دهشة) ألڤيرا؟ اسمي جوليان، جوليان شارل.

ـ أعرف، ولكن كل من أحببت سمّيتهن ألڤيرا، وهو اسم أسطوري أحبه.

ـ كلهن خاب حبك لهن يا ألفونس.

ـ ولكني أحببتهنَّ جميعاً بصدقٍ. حبك أنتِ أصدق الصدق. سنغير الاسم اذا شئتِ.

ـ لا، سأبقى ألڤيرا، ولكني سأكون ألڤيرا الجديدة. والأخيرة يا ألفونس.

ـ لم تحدثيني عن زوجك ؟

ـ جاك شارل. ما أرق وأعذب حدبه عليَّ. إنه يحبني. وليس أعظم من قدرته على فهم عذابات نفسي، ورغبته الدائمة في التسرية عني.

ـ كيف تزوجته وهو في السبعين ؟

ـ لم يكن عندها في السبعين. كان في السابعة والخمسين.

ـ يا إلهي! تزوجك وأنت بنت السادسة عشرة؟

ـ وما في هذا؟ لم يرغمني أحد، لقد قبلته راضيةً. لن تصدق، لقد كان وقتها مطمح فتياتٍ كثيرات!

ـ لأنه ثري ؟

ـ ليس سحره في ثرائه وحده يا ألفونس، وهبته السماء نعمة جليلة. أن تحبه فور أن تجلس إليه!

ـ أحببته إذاً؟

ـ ليس في أول الأمر.

ـ فلم تتزوجيه إذاً عن حب ؟

ـ كنتُ في حاجةٍ إلى ما يمثله لي من أمنٍ؟ إنك لا تعرف كيف كنت أعيش قبل أن يدخل حياتي. كنتُ. . .

ـ لا تذكري شيئاً إذا كنتِ لا تريدين. . .

ـ بل لا بد أن تعرف كل شيء.

ـ **ولماذا ؟**

ـ لأننا لا نعرف الآن إلى أي مدى سنُصيب هذا الرجل الطيب بالأذى. إنني أحبك حباً نهائياً حاسماً لا أمل في الخلاص منه. وأنت كذلك على ما يبدو لي، وسيصيب عزيزنا جاك شارل الكثير من الحزن جراء هذه العاطفة التي جمحت بي دون أن أقدر على كبح جماحها. لهذا يجب أن تعرف كل شيء عن حياتي، كل شيء، كل شيء يا حبيبي.

□ □ □

ـ ٧ ـ

● وقصّت عليه قصتها، وكيف أنها ولدت لأمٍّ من جزر تاهيتي، ولأبٍ بحارٍ من مارسيليا، وكيف قضت أيامها في مغاني تلك الجزر، حتى ماتت أمها، واختفى أبوها، فأخذتها عمتها وعادت بها إلى باريس.

ـ أحسست في باريس بوطأة الغربة الحقيقية، وعشت في بيت عمتي حياة بؤسٍ، نأكل يوماً ونجوع أياماً، وأحلم وأنا في السادسة عشرة من عمري بفارس الأحلام.

ـ **إلى أن تقدم إليكِ جاك شارل؟**

ـ لا تظن أنني لا أحبه، ولا أكذب وأقول إنني تزوجته عن

حب. لا أدري أين رآني، ولكنه جاء ذات يوم وتحدث إلى عمتي، فلما خرج قالت لي:

ـ استعدي يا جوليا للزواج بالسيد جاك الكسندر شارل.

ـ ولم تعارضي رغم فارق السن ؟

ـ لم أعارض، بل لم تخطر المعارضة في بالي. كنتُ سعيدة لا أكتمك. كنتُ أرقص فرحاً، مودعةً أيام الجوع والبرد. ودخلت بيته، فلم أجد منه ما يدفعني إلى الثورة على فارق السن الذي بيننا. عاملني ولا يزال يعاملني برقةٍ وحدبٍ أعجز عن وصفهما. حين مرضت، عرضني على أشهر أطباء باريس، ورغم أنه أُصيب في ساقيه بمرض أعجزه عن السير، إلا أنه كان يمضي كل أيامه وهو مُقعد على كرسي متحرك معي، كان لا يذهب إلى فراشه حتى يطمئن إلى أني تناولت الدواء. يدور بمقعده حول فراشي، يُحكم حولي الغطاء، لا يفارق الغرفة حتى أغط في النوم. كيف أملك ألا أحبه؟

□ □ □

● ويشفق دكتور بيريه من ذلك الحب الجارف الذي ربط بين قلبيهما، وقرر أن يُفاتح لامارتين في الأمر:

ـ عزيزي لامارتين، إنك جئت إلى اكس ليبان لتشفى من

مرضٍ، فلا تُلقي بنفسك في براثن مرضٍ آخر. لا أعني الحب.

ـ ماذا تعني إذاً؟

ـ الدرن!! السيدة جوليا مريضة بالدرن. وفي طورٍ متقدم أيضاً!!

□ □ □

● ولكن السعادة أعمت الشاعر لامارتين عن كل ما سمعه من بيريه. حين أراد يوماً أن يقبلها وهما على شاطئ البحيرة:

ـ لا يا ألفونس. لتكن أخي، رغم هذا الحب العظيم، وهذا يكفيني، أن أكون أختاً لك، ويجب أن يكفيك. ألا تقنع بهذا؟

ـ أقنع؟ نعم!! سأقنع راغماً يا حبيبتي ألڤيرا

● وتقرأ عليه ذات يومٍ رسالةً وصلتها من زوجها.

ـ إذاً فهو يعرف؟

ـ لقد كتبت له. ذكرت له كل شيء، واستمع إلى ما كتبه في رسالته:

«انني لسعيدٌ حقاً يا عزيزتي أن وجدت لكِ أخاً حبيباً شاباً،

قريباً من سنكِ. أهنئك يا عزيزتي بالأخ الجديد، ولكن بالله عليكِ لا تنسِ صداقات أخرى قديمة وأشد متانةً».

ـ لم يكن من الحكمة أن تذكري له كل شيء.

ـ ولماذا؟ إننا لم نرتكب إثماً.

□ □ □

ـ ٨ ـ

وفاجأته يوماً بما ارتعد له قلبه:

ـ ألفونس، أعتقد أنني يجب أن أعود إلى باريس. لم يعد لبقائي في اكس ليبان من مبرر!

ـ لا تزال صحتك على غير ما يرام؟

ـ يكفيني أنك أنت لقيت الشفاء هنا. ثم، ثم إن الشتاء على الأبواب الآن يا حبيبي.

● وحددت يوم العودة. خرجا قبله يرتادان أماكن الذكريات: الحديقة التي رآها فيها لأول مرة، شاطئ البحيرة، تل هوب كومب، كوخ الصياد جوكو.

ـ كل شيء يذكرني بالموت يا ألفونس. لا أدري لماذا؟

ـ هو الفراق! ليتكِ تبقين فتغيب عنكِ هذه الصورة القاتمة، صورة الموت.

ـ لا، لا تغيب عني هذه الصورة أبداً. مهما حاولت أن أتذكر؟. ألم تقل لي إنك يوم رأيتني لأول مرة في حديقة المشفى ظننتني شبح الموت؟! ألم يكن ذلك الشبح يحوم حول رأسي أيضاً عند شاطئ هوب كومب؟

أنت أيضاً كان أول من رآه هناك. ثم في كوخ الصياد جوكو؟

ـ (بصوتٍ متأثر) **يا إلهي! لنمت معاً يا ألفيرا. الآن، الآن لنمت معاً.**

ـ لا. إن الحياة واسعةٌ عريضة أمامك يا ألفونس. احتفظ بقلبك لأخرى ستعيش معك أياماً كاملةً.

ـ (باكياً) **كفي عن هذا.** (منتحباً) **كُفي يا ألفيرا!!**

ـ ألفونس، أقسم أمام هذه البحيرة.

ـ **سأقْسم على كل ما تطلبين يا حبيبتي!..**

ـ أقسم على أن تُبقي في قلبك ما عشت، مكاناً لذكريات أيامنا هذه معاً. هذه السماء. وهذا الشاطئ، وهذه البحيرة.

ـ (باكياً) **أقسم، أقسم، أقسم.**

● يوم غادرت أكس ليبان دست في يده كراسة رمادية صغيرة.

ـ املأ صفحات هذه الكراسة بشعركَ، فإذا امتلأت فأرسلها إليَّ في باريس.

● وذهبت. أما هو فبقي ثلاثة أيام أخرى في أكس ليبان ثم غادرها إلى قريته مللي. ومرت الأيام ولم تصلها الكراسة الرمادية الصغيرة..

□ □ □

ــ هل نسيني؟

ولكن الكراسة تصل أخيراً مع صديقٍ قديم له، مع ينبيه المطّلع على سرهما.

وقد كتب إلى لامارتين بعد أن التقاها:

«إنها سيدةٌ عظيمة بقدر ما هي جميلة. لا أُنكر أن زوجها هو الآخر نبيل ورقيق، وقد طلب اليها بكل الحب أن تقرأ بعضاً مما جاء في كراستك، واستمع في احترام شديد وقال:

«كيف لا يلمع اسم شاعر كهذا؟ هذا أجمل ما سمعت في الأدب الفرنسي كله».

طوال الجلسة كنتَ أنتَ يا ألفونس محور حديثها. لم تتكلم إلا عنك، وحين ذهب زوجها إلى فراشه فتحت لي قلبها وأدركتُ مدى حبها لك. إنها مريضة يا ألفونس، مريضة جداً، ولكنها ــ وقد أكدت لي ذلك ــ لم تنزف دماً من صدرها حتى الآن. لهذا فهي ترجوك أن تزورها. تود أن تراك ولو مرة أخيرة».

□ □ □

ـ ٩ ـ

● دخل إلى بيتها خجلاً مضطرباً. لم يدُر حديث مثير بينه وبين زوجها،

ولا بينه وبينها، إلى أن كسر الصمت زوجها.

ـ لقد أُعجبت بشعرك يا سيد لامارتين!

ـ أشكرك يا سيدي.

ـ هل أفادتك مياه اكس ليبان ياعزيزي؟

ـ إلى حدٍّ ما يا سيدي.

ـ وأنت يا زوجتي العزيزة، هل استفدتِ؟

ـ أشعر الآن بأنني أفضل حالاً. سل السيد لامارتين يؤكد لك هذا.

ـ إنكِ فعلاً أفضل الآن يا سيدتي.

● حديثٌ باردٌ لا يتجاوز حدود المجاملات، بينما ما يعتلج في قلبيهما يكاد أن يتفجر كالبركان. لكنه الالتزام بالواجبات الاجتماعية. وبعد الانتهاء من احتساء الشاي قام مودعاً. دست في يده خلسةً ورقةً صغيرةً، ما إن انفرد بنفسه بعد أن خرج حتى أحسَّ بأن قَدر حياته كلها مرسومٌ بهذه الوريقة التي بين راحة يده. فتحها:

«اكتب اليّ أنك ما زلت تحبني!! أعد لي النعاس اللذيذ بما يُشعرني بأن مكاني في قلبك لا يزالُ دافئاً».

● ولم يردّ على رسالتها المتوسلة. بعد أيام قليلة رأى عربتها تمرّ تحت نافذة الفندق الذي أقام فيه. أرسلت مع السائق ورقةً.

«هل نسيت أختك بهذه السهولة؟ كأنك لا ترضى بغير المرأة المحبة العاشقة! حسناً!!. ألڤيرا تريدك بنفس الحماسة التي تريدها بها.. قابلني غداً في سان كلو، في العاشرة صباحاً».

□ □ □

● وتقابلا.. التقت بالفتى الملتهب الذي قابلته في قارب على موج البحيرة.

ـ متى نلتقي يا حبيبي مرةً أخرى؟

ـ إنني عائدٌ غداً إلى قريتي، وسنلتقي في اكس ليبان.

ـ (في ألم) الخريف مرةً أخرى؟!

ـ أجل، أجل. في سبتمبر في اكس ليبان لنستعيد من جديد أحلى ذكريات أيامنا!!.

ـ ذكريات؟

ـ كل لحظة تمر يا ألڤيرا تدخل رغم أنوفنا إلى خزانة الذكريات.

ـ عدني بأن أجدك في اكس ليبان إذا سافرت إليها في سبتمبر. ثق من أنني سأذهب. المهم أن تأتي أنتَ.

ـ **لن أتخلف يا حبيبتي.**

ـ ألفونس، شيءٌ لم أقله لك. هل قلت لك إنني أحبك؟

ـ **وقُلتها لكِ أنا آلاف المرات.**

ـ هذه المرة أريد أن أقول إنني أنتظرك زمناً طويلاً. منذ السادسة عشرة وأنا أنتظرك. جاء كثيرون وذهبوا. نظرت إليهم وقلتُ: لا، ليس هو. حتى كان يوم بحيرة اكس ليبان. عرفتك من أول نظرة. أتذكر؟ يوم رفعت وجهي إلى وجهك في حديقة المشفى، وانطلقت تجري وتقول لنفسك: «هذا شبح الموت» أتذكر؟!

ـ **(ساهماً) أجل. أجل.**

ـ أما أنا فقلت في أعماقي: ها هو. قد جاء أخيراً. ألفونس، حبيبي لا تتركني أبداً. أبداً. قد تغيب عني شهوراً. ولكن عدني بأن تأتي دائماً!

□ □ □

ـ ١٠ ـ

● في أواخر أغسطس ذهب لامارتين إلى اكس ليبان. استأجر نفس الغرفة التي سكنها في العام الماضي، الغرفة التي كان

يفصلها عن غرفة ألڤيرا حائط نمام، وألصق أذنه بالحائط.

ـ **ليس بها أحد. تُرى هل تأتي ؟ لقد وعدت. أهي مريضة؟ ولكن، ولكنها وعدت أن تأتي في سبتمبر، وسبتمبر لم يأتِ بعد؟!**

● وجاء سبتمبر على مهل. ولم تأتِ ألڤيرا.

ـ **لماذا ؟ ماذا جرى؟**

● لم يكن يدري أنها هذه المرة قد نزفت دماً من صدرها. كانت تتمتم باسمه في فراش المرض، والزوج يسمع ويلتزم الصمت.

أما هو فكان يخرج إلى أماكن الذكريات، إلى حديقة المشفى، إلى شاطئ البحيرة، إلى الغابة التي أنصتت في حب إلى همساتهما إلى تل هوب كومب الذي شهد مولد ذلك الغرام العنيف ويجلس على الصخرة التي طالما جلسا عليها معاً.

أيتها البحيرة الصديقة،

أوشك العام أن يسجن أيامه في خزانة الماضي.

وقُربَ أمواجكِ الحانية التي تمنت أن تراها من جديد

وعند شاطئك الذي لديه ألف قصةٍ وقصة.

جلستُ.

جلستُ كما جلست هي ذات يوم، وأنا قربها.

لن تنكري أيتها البحيرة الصديقة.

لن تنكري

ولقد رأيتنا معاً ولكنها اليوم ليست معي!

□ □ □

● ونعاها له صديقه ينبيه يوم الخامس والعشرين من ديسمبر.

تعالي، تعالي خلصيني من قيود الجسد

تعالي وافتحي باب السجن.

تعالي وأعيريني أجنحتك.

ماذا يؤخرك عني ؟ الجنة؟

إلى هذا المجهول تعالي واحمليني.

تعالي يا ألفيرا وقفي قرب فراش الموت،

موت فتىً أحببته

لماذا لا تردين؟ لماذا لا تأتين؟

هل قبـر فيكتور هوغو
يحتوي على جثّته؟!..

لا يزال الخلاف حول قيمته الأدبية الحقيقية مشتعلاً بين المدرسة الرومانسية التي تحاول من جديد، وسط عالم الحديد والنار والخديعة والتلوث الخلقي والبيئي أيضاً، أن تسفر بوجهٍ عليه قناع هوغو وشاتوبريان وبرناردان دى سان بيير، وبين عشرات المدارس الأدبية الجديدة التي اتخذت لها أيضاً عشرات الأسماء!!..

ولا يعنينا هذا الصراع بذاته، وإنما يلفت نظرنا إلى الحادث الذي مرّ عليه أكثر من مئة عام، قول أحد كبار الأدباء يوم تشييع الجنازة:

ــ ها هي فرنسا تؤدي واجبها اليوم تجاه الرجل العظيم. تُرى، ماذا سيفعل الفرنسيون بعد مئة عام؟! هل سيقيمون للرجل الكبير مهرجاناً فنياً كهذا الذي أقمناه اليوم في يوم رحيله؟!

وأطرف ما قيل هو ما كتبه بعدها ناقد صحيفة «الصدى» رداً على سؤال الكاتب المعجب بهوغو:

ـ كان الأفضل أن يكون سؤال صديقنا هو الآتي: هل سيظل هوغو «عظيماً» بعد مئة عام أم سيمر الناس أمام قبره في جبّانة «بير لاشيز» ويقولون: كان شاعراً مهرّجاً، وروائياً هزيلاً؟!

□ □ □

ـ ١ ـ

● بعد أكثر من مئة عام على وفاة هوغو، هناك من يقرأ «البؤساء» ويسخر من أحداثها المفتعلة وانفعالاتها البدائية، وتصرفات أبطالها التي لا تمت إلى المنطق بصلة، ويقولون: كيف يصبح من يكتب حواراً كهذا أشهر روائي في عصره؟! لو كتبه اليوم تلميذٌ في إحدى المدارس لمَزّقَ المُدرِّس كرّاسته وألقاها في وجهه.

فعلى سبيل المثال، لنأخذ له هذا الحوار:

ـ لم يحدث أبداً أيتها الأخت الراهبة أن دخل أحدٌ غرفة الموتى دون إذن.

ـ يحدث هذا كثيراً.

ـ ماذا؟!

ـ يحدث هذا كثيراً.

ـ ماذا قُلت؟!

ـ قُلت إن هذا يحدُث كثيراً.

ـ ما هذا الذي يحدث كثيراً؟

ـ أن يدخل أحد غرفة الموتى دون إذن.

ـ ولماذا قُلت إن هذا يحدث كثيراً؟

ـ لأنه يحدث كثيراً. أنت نفسك قُلت هذا أمس.

ـ أنا قلت إن هذا يحدث كثيراً؟

ـ قُلتَ شيئاً كهذا أيها الأخ الراهب.

ـ لا. أنا لم أقل أبداً إن هذا يحدث كثيراً. وما زلت أتساءل لماذا قلتِ هذا؟

ـ أيتها العذراء! كيف أُفهِمهُ أنه يحدث كثيراً أن يدخل أحدٌ غرفة الموتى دون إذن؟!

ـ إني أفهم أيتها الراهبة، ولكني لا أفهم لماذا قلتِ ذلك.

ـ (في غضب) لأني مجنونة، لأني لا أفهم!!

ـ (في برود) إذن لا تقولي إن هذا يحدث كثيراً. الناس لا يجب أن يعرفوا أن هذا يحدث كثيراً.

□ □ □

● وصدق الناقد إدمون سي؛ فلو كتب هذا كاتبٌ مبتدئ لمزّق الناشر أوراقه وقذف بها في وجهه، ولكن الذي كتبها هو فيكتور هوغو، وكان وقتها أستاذ الأساتذة، ورافع لواء الفن الروائي الرومانسي، فغفروا له هذا الهراء.

ونعود إلى الاحتفال بذكرى مرور مئة عام على وفاة فيكتور هوغو، حيث يقول الناقد إدمون سي:

ـ اعتادت الأسرة المالكة أن تشيّع جنازة الملك الراحل بكل مظاهر الأبهة والعظمة، ليس تعبيراً عن حبّها للراحل، ولكن زلفى للملك الجديد، وتكريساً للنفوذ الملكي.

نفس الشيء هو ما حدث لـ فيكتور هوغو. رغبة الباريسيين في تكريس النفوذ الأدبي له في أوروبا كلها، وكيداً في الألمان وفي الإنكليز، هي التي كانت وراء الإصرار على تشييع جنازة هوغو في مهرجانٍ شعبيٍ لا يغطي باريس وحدها، بل فرنسا كلها!!

● وصدق إدمون سي، فلم يكن في وصية هوغو عن جنازته غير هذه الكلمات:

«أريد أن أوضع في صندوق من صناديق موتى الفقراء، ولا يسير خلفه حتى مقبرة «بير لاشيز» سوى أقرب الأصدقاء، والسيدة الوحيدة التي أدين لها بكل شيء في حياتي».

لم يكن هوغو يعني زوجته أديل، كان يعني صاحبته جولييت دوريه، ولكن يداً خفيّة ضربت بالقلم الغليظ على الجملة

الأخيرة، لعلّه كان أحد أحفاده، أو لعلّها جولييت دوريه نفسها، فقد كانت سيرتها معه على كل لسان بالسوء!!

□ □ □

ـ ٢ ـ

● مات هوغو في الثاني والعشرين من أيار/ مايو عام ١٨٨٥ . . ما أن انتشر النبأ في فرنسا حتى أعلن الحداد، وصدرت طبعاتٌ سريعة من كل الصحف. كان لهوغو أعداءٌ وأصدقاء، ولكن النغم كان واحداً في كل الصحف رغم هذا.

١ ـ مات أعظم شعراء الدنيا.

● الهدف هو الطعن في شيكسبير وغوته.

٢ ـ مات المُدافع الأول عن حرية الإنسان!!

● الهدف هنا هو الكيد للحزب الملكي.

٣ ـ حقِّقوا للكاتب العظيم أُمنيته بأن يُدفن مع الفُقراء الذين أحبَّهم ودافع عنهم.

● الغرض من هذا العنوان هو تثبيط همّة من تقدّم إلى المجلس النيابي يطلب دفنه في البانتيون، مقبرة العظماء!

٤ ـ أقيموا للشاعر العظيم تمثالاً في كل ميدان!!

● الهدف هذه المرة هو التخلّص من تماثيل العصر البونابرتي وذيوله!!

الرأي مستقر على أي حال على إهمال وصية الكاتب بأن تكون جنازته بسيطة، ولا يسير خلف نعشه إلا فقراء باريس. في البرلمان أيضاً كان اللحن واحداً. على الأقل في اليوم الأول لموت الرجل.

□ □ □

● يجب أن تكون الجنازة «قومية» بكل ما للكلمة من معنى الشعب كله يريد أن يسير وراء النعش.

ـ إنه أعظم عُظماء فرنسا، ولقد استحق عن جدارة مكانه في البانتيون!

وتُسفر المعارضة للحزب الحاكم عن وجهها:

ـ لا تنسوا أيها الزملاء الأعزاء أننا بذلك لا نحقق الرغبة الأخيرة للشاعر الكبير. لقد طلبَ أن يُدفن في مقبرة «بير لاشيز»، ولقد اشترى قبل موته بثلاثة أعوام «مكاناً» له في تلك الجبّانة، كذلك لم يطلب سوى جنازة عادية. لماذا لا نحقق للرجل العظيم رغبته الأخيرة؟!

ـ (في تحدٍّ) إننا نفهم تماماً دوافع الزميل «بريسو». إنه وزمرته يريدون شيئاً، والشعب يريد خلاف ما يريدون. أطلب التصويت على الاقتراح على الفور!

□ □ □

● وانهزمت في ذلك اليوم المعارضة السياسية والأدبية. وأصدر المجلس النيابي بأغلبيةٍ كبيرة، قراراتٍ عاطفية، أرادت بها الحكومة تغطية فشلها السياسي والعسكري في المستعمرات.

ويقرر البرلمان ما يأتي:

١ ـ أن تكون جنازة الشاعر الروائي الأعظم هوغو قوميةً بكل ما في الكلمة من معنى.

٢ ـ أن تشكّل لجنة على الفور تكون مسؤولة عن إجراءات الجنازة وطريق سيرها وأسلوب عرض الجثمان على الجماهير.

٣ ـ تقوم اللجنة بالتنسيق مع لجنة «البانتيون» في شأن مكان الدفن.

٤ ـ يُكلَّف الفنّان «جارنيه» التوجه على الفور إلى بيت الفقيد لعمل تمثال بصمة من الجص لوجهه وهو على فراش الموت.

٥ ـ تُشكَّل لجنة لدراسة إقامة تماثيل مختلفة الأحجام والأشكال للشاعر الكبير في أكثر ميادين باريس وعواصم الأقاليم.

□ □ □

ـ ٣ ـ

● شقّ الفنان «جارنيه» طريقه بصعوبة إلى دار فيكتور هوغو. لم

يكن في غرفة الموت سوى حفيديه وصاحبته جولييت دوريه. شرع «جارنيه» وهو الذي شيّد أوبرا باريس، في عمل «بصمة» الوجه. فشل ثلاث مرات. في كل مرة يلتصق الجص بشعر لحية الفنان الكثّة. وفي غيظٍ تقول جولييت:

ـ بحق السماء، ارفع يديك عن وجه الرجل العظيم، ودعه يذهب إلى قبره في وقار!

ولكن «جارنيه» كان عنيداً، ورغم أنه فشل من قبل في أخذ «بصمة» وجه السياسي «جامبيتا»، إلا أنه عاود وضع الجص الساخن على وجه الشاعر الميّت!

ولم يقرر الأطباء بعد الأسلوب الأمثل لتحنيط الجثة، ويقولون إن الرائحة الكريهة تملأ غرفة الميت، والدنيا حر! وتم الاتفاق على أن يكون تشييع الجنازة في الأول من حزيران/ يونيو، أي بعد ستة أيام لأنها جنازة شعبية وقومية. وهناك مئات بل آلاف البرقيات من كل أنحاء العالم: عظماء وملوك ووزراء وأدباء يريدون أن يحظوا بشرف السير وراء جنازة «العظيم» هوغو، فكيف يتم ذلك قبل وصول هؤلاء؟! والنائب بريسو يثير النواب ويزعم أن الحكومة تريد أن تجعل من الجنازة مظاهرة تأييد لسياستها!

واستقر رأي اللجنة على أن الدفن سيكون في جبّانة «بير لاشيز» في البانتيون، وبرنامج الجنازة سيبدأ في نعشٍ بسيط حسب إرادة الشاعر من بيته حتى قوس النصر..

● وحين يصل النعش البسيط إلى قوس النصر سيكون النعش الرائع الذي يصنعه الفنان «جارنيه» في انتظاره ليوضع فيه. ارتفاعه أربعة أمتار كأنه عرش ملك. سيعرض في ميدان النجمة تحت فجوة قوس النصر ليستطيع الناس جميعاً أن يشاهدوه من أي مكان في الشانزليزيه أو في الميدان نفسه. على طول فترة العرض. ستعزف فرقة الفنان الكبير «كامي سان سانز» لحن هوغو الخاص، الذي ألّفه الموسيقار «سان سانز»، وهناك قائمة بأسماء من يريدون إلقاء كلماتهم وقصائدهم أمام النعش.

أما هل سيرى الناس وجه الشاعر بعد تحنيطه؟!

كان هذا موضوع نقاشٍ طويل، ثم استقرّ الرأي على عدم رفع الغطاء عن الصندوق الذي ترقد فيه الجثة.

بعد ثلاثة أيام سَرَت في باريس شائعةٌ مثيرة، مفادها الآتي:

«لقد أخرجت جولييت دوريه جثة الشاعر في سريةٍ كاملة ودفنتها حسب رغبته في المقبرة التي اشتراها في جبّانة «بير لاشيز»!!».

وامتلأت الشوارع والميادين المؤدية إلى البيت بالجماهير تطالب بمعرفة الحقيقة.

□ □ □

● **تُرى، ما هي الحقيقة؟!**

يقول جول كلاريتي المشرف على إعداد الجنازة:

ـ هذه كذبة حقيرة. الجثة على فراشها بعد أن تم تحنيطها! وتلك فعلة النائب بريسو وزملائه من المعارضة. إن بغضهم لفيكتور هوغو معروفٌ من زمن، ولن يتورعوا عن أي شيء لإفساد المناسبة القومية. وستظل الشائعة تعمل عملها الخطير إذا لم يَرَ الجثة على فراشها وفدٌ من الجماهير. وهذا ما يريده بريسو، أن يدفع أحد الذين سيصعدون لرؤية الجثة إلى إنكار وجودها. ولكننا لن نخضع لألاعيب بريسو!!

□ □ □

● في ميدان النجمة وتحت قوس النصر أقام الفنان «جارنيه» نعشاً بالغ الروعة. كأنه عرش إمبراطور. كانت خطة رئيس لجنة الإجراءات النائب كلاريتي هي أن تنقل الجثة بصندوقها من دار الشاعر إلى النعش الكبير الفخم ليلة السبت التاسع والعشرين من أيار/ مايو، ولكنه أجّل ذلك إلى الأول من يونيو، لأن الجثة في حاجة إلى تحنيط جديد. فمن المنتظر أن تبقى يومين آخرين في نعش قوس النصر.

وكثرت الشائعات، ومنها التي تقول إن شرطة باريس كلها تبحث الآن عن الجثّة، وإن الجثّة سُرقت، ولا شيء على فراش الراحل في هذه اللحظة.

□ □ □

ـ ٤ ـ

● في صباح الأول من حزيران/ يونيو عام ١٨٨٥ بدأت الجنازة من بيت الشاعر، وخرجت باريس كلها وراء النعش البسيط في رحلته نحو قوس النصر. الموسيقى النحاسية ترفع عقيرها لتغطي على صيحات الجماهير المختلطة بنداءات الباعة. إنهم اليوم يبيعون للناس كل شيء، من كتب الشاعر إلى المرطبات والتماثيل الصغيرة، إلى المقاعد المرتفعة لمن يريد أن يشهد الجنازة من فوق الطوار.

في شارع «سان جرمان» تجمّع أكثر من مئة رجل وامرأة في إحدى الشرفات المطلة على مسيرة الجنازة، فسقطت بهم ومات عشرة، وسمع الناس صراخ العالم المشهور «باستور» وهو يبكي ابنه الصغير الذي مات تحت أقدام الجماهير المندفعة لمشاهدة النعش.

وبلغ النعش البسيط إلى قوس النصر فوضع في الصندوق الكبير. النعش الرائع سيبقى يومين آخرين، كي يراه ملوك وأمراء وسفراء الدول كله، ثم ينقل ذلك النعش العظيم إلى البانتيون عند العصر.. حيث جرت بعض التعديلات في الإجراءات.

وظهرت شائعةٌ جديدة. إنهم هذه المرة لا يقولون فقط إن الصندوق خال من الجثة، بل يقولون ما هو أخطر من هذا!!

وما إن اخترقت الجنازة شارع الشانزليزيه في طريقها إلى

البانتيون حتى دوّت الصيحات بالشائعات الرهيبة:

ـ أين جثّة فيكتور هوغو؟! افتحوا الصندوق الفخم، فلن تجدوا فيه سوى قطة ميتة!!

وغطّت الموسيقى النحاسية على الهرج. في عجلةٍ أُنزلَ الصندوق كما هو في مكانه في البانتيون.

□ □ □

بعد أسبوعٍ من الدفن، وفي سريةٍ كاملة، تشكّلت لجنة لفتح الصندوق والتأكُّد من وجود الجثّة. ولم يُنشر شيءٌ عن تقرير اللجنة!!

تُرى هل يُنشر فحوى التقرير في هذا الزمان. في مناسبة الاحتفال بمرور الأعوام على دفن الشاعر الكبير فيكتور هوغو، أو دفن قطة جولييت دورييه؟!!

□ □ □

إدغار ألن بو
حياةٌ مأساوية لعبقري!!

كتب جورج برناردشو:

«لم يكن إدغار ألن بو يعيش في أميركا إلا بجسده، أما عقله ووجدانه وأحاسيسه الفنية، فقد شيّد لها قلعةً خاصة من خياله، ووقف خلف بابها يحرسها من الواغلين... ولو عاش بو في أوروبا لقَبّل الأدباء والفنانون مواطئ قدميه!! إدغار ألن بو أرق الشعراء إحساساً وأصدقهم تعبيراً».

وأضاف: «إدغار ألن بو هو ألطف شعراء الدنيا حساً، وأعلاهم فناً، وما أحسبني تعلمت في الأدب شيئاً ذا قيمة إلا من هذا الأستاذ الرائع».

□ □ □

● ويقول عنه برتراند راسل الفيلسوف والكاتب البريطاني:

«إذا أخذت أي قصة من قصص «إدغار ألن بو» لوجدت أنها تُشكل عالماً مستقلاً بذاته لا يقوم على التصوير المباشر للواقع التقليدي للحياة، بل يعتمد على التجسيد الرمزي الذي يبلور لنا صراع الجوهر الشعري الكامن داخل الفنان للتخلص من رواسب هذا العالم المتحلل والمتفتت والمتغيّر دوماً. وليس الأدب في نظر «بو» سوى محاولة الإنسان لاستعادة قدرته على إدراك هذا العالم من خلال الرؤى والأحلام والأطياف التي تصل به إلى كنه الجمال الأزلي الذي لا يخضع لمعايير الحياة اليومية المتقلبة».

□ □ □

ـ ١ ـ

بداية المأساة

- مدينة ريتشموند الأميركية، المدينة الضاحكة ذات الحدائق الكثيرة السابحة في الشمس المرحة الحانية، ذات البيوت البيضاء بأعمدة بواباتها العالية.

هذه هي المدينة التي نزلت بها الفرقة التمثيلية المتجولة التي تعمل فيها إليزابيث بو، والدة إدغار.

□ □ □

ـ هذا هو آخر المطاف بالنسبة إليّ يا جين، أعتقد أنني سأموت في هذه المدينة.

ـ ليزي، لا تقولي هذا.

ـ ولِمَ لا أقوله والجميع يعرفون أن الدرن ينهش صدري نهشاً!

ـ أما من وسيلة للاتصال بزوجك؟!

ـ وهل يعرف أحد أين ذهب؟! منذ هجرني وذهب لا أدري إلى أين، لم أسمع منه كلمة واحدة. هذا السكّير الذي لا يرحم.

ـ لا أدري كيف تتزوج فتاة رقيقة مثلك بمثله يا ليزي! كيف أوقعك في شراكه؟!

ـ كان ممثلاً في فرقة متجولة، وكنت أعمل في تلك الفرقة. تحاببنا ثم تزوجنا. كيف كان يمكنني أن أردَّ طلبه يا جين، وأنا الفقيرة اليتيمة؟! ثم إنه كان في منتهى الرقة في أيامنا الأولى، ولكنه أدمن الخمر فأفسد كل شيء.

ـ ستشفين من مرضك يا ليزي فلا تستسلمي لليأس!

ـ لشدّ ما أنا خائفة يا جين، ليلة أمس كنت أقوم بدور أوفيليا، وأوشكت الكلمات أن تفرَّ من حلقي. ضاعت من ذاكرتي وأنا أفكر في مصير طفلي وطفلتي إذا مت. ماذا يحدث لهما يا جين؟!

ـ لن يحدث إلا الخير؛ فستشفين وتعود إليك صحتك بفضل شمس ريتشموند وحدب الأهالي علينا. لقد حققنا هنا نجاحاً باهراً رغم أننا لم نقدّم حتى الآن غير مسرحية هاملت.

ـ أنا واثقة من أنني لن أعيش طويلاً يا جين، لقد أرهقتني الرحلات المتصلة والسفر الطويل عبر البراري المتربة والجبال الصخرية القاسية. هل نسيتِ أنني وضعت ولدي إدغار أثناء رحلة من تلك الرحلات القاتلة.

ـ إدغار هو محبوب الفرقة كلها. كم عمره الآن يا ليزي؟!

ـ سرعان ما نسيت يا جين! إنه في الثالثة. ماذا سيحدث للصغيرين بعد أن أذهب يا جين؟!. هذا هو عذابي الأكبر!!

□ □ □

● يوم التاسع والعشرين من نوفمبر عام ١٨١١، بعد أسبوعٍ واحد من رقدة الأم التي باتت لا تقوى على أداء دورها، نشرت صحيفة ريتشموند:

«هذه الليلة، ترقد السيدة «بو» التي أمتعتنا بأدائها الرائع لدور أوفيليا في مسرحية شكسبير، ترقد مريضةً تفترسها الحمّى يحيط بها ولدها الصغير إدغار وطفلتها الصغيرة روزالي. وإننا نهيب بذوي القلوب الرحيمة أن يهبّوا لنجدتها، ربما للمرة الأخيرة».

□ □ □

● ولم يُفارق الصبي فراش أمه. لم يكن يدري أن مأساة حياته قد بدأت، وأن الستار لن يلبث أن يرتفع عن أتعس حياةٍ

عاشها منذ وهبته السماء عبقريةً نادرة كعبقريته، ثم حُرم السعادة على هذه الأرض.

بعد يومٍ من هذا الذي نشرته الصحيفة، جاءت لزيارة الممثلة المريضة إحدى سيدات ريتشموند الثريات، مسز ألن.

ـ لا أصدق يا سيدتي أن إدغار سيجد بعدي قلباً رحيماً يحبه كما أحبه.

ـ ثقي يا مسز بو أنني سأرعاه كولدي، ولولا أن زوجي قد يضيق بالصغيرة روزالي لأخذتها هي الأخرى.

ـ مسز ألن، إنه صغير.

ـ لا تخشي عليه شيئاً، سيكون كولدي، بل إني أعتبره من الآن ولدي.

ـ هل شاهدتني في دور أوفيليا يا سيدتي؟!

ـ وكُنتِ رائعة. المدينة كلها تتحدث عن روعة أدائك.

ـ والليلة سأموت، ولكنها ليست مثل موتة أوفيليا يا مسز ألن. إن الموت نفسه يجب أن يخجل مما يفعل بي!! من إدغار المسكين؟!

ـ سأكون أمه يا عزيزتي.

ـ هل أنت واثقة من أن مستر ألن لن يعارض؟!

ـ لقد كلمته في هذا واتفقنا على تبني إدغار. أين هو؟!

ـ يلعب في فناء الدار. لا يشعر المسكين بما سوف يفقد. أرجوك. لا تأخذيه الآن أريد أن أشبع منه!!.

ـ كما تشائين يا مسز بو. أرسليه إليّ في الوقت الذي يناسبك!

□ □ □

● تلك كانت مسز جون ألن، زوجة التاجر الثري الذي لم ينجب من زوجته أطفالاً، فتاقا سوياً إلى تبنّي أحد الأطفال، ووقع اختيارهما على إدغار بعد أن عرفا بقصة أمه الحزينة، وشاهدا ما على وجه الطفل من علامات الذكاء المتّقد.

وظلّ الصبي بجانب فراش أمه حتى جاء الموت ليختطفها منه. لم يكن يدري ما هو الموت، لم يفهمه، وظلّ طوال حياته يحاول أن يفهم هذا السرّ المغلق، الموت!!

ظلّ يعبّر عنه في كل رواياته مُحوِّماً حوله في كل قصيدة، متحدياً له في كل قصة، ولكنه لم يفهمه قط.

ـ «أيها الموت الغريب،

حسب أنني لن أعرفك أبداً

إلا حين ألقاك وجهاً لوجه،

وإني في انتظارك!».

هذه إحدى عباراته، ولم يصدق قطّ أن أمه قد ماتت وأنه قد خرج إلى عُرى الفاقة والجوع والتشرُّد؛ فقد سافرت السيدة ألن قبل موت الأم إلى مدينةٍ قريبة لتمضي فيها بضعة أيام، وقالت له جين زميلة أمه الراحلة وصديقتها:

ـ إدغار ستبقى معي حتى تأتي السيدة ألن وتأخذك إلى بيتها.

ـ وأختي روزالي؟!

ـ ستبقى معي. لقد وعدتُ أمك بأن أرعاها حتى تكبر وتتزوج.

ـ ولماذا لا تبقينني معك يا جين؟!

ـ سترعاك السيدة ألن يا إدغار. ليتني أستطيع أن أنفق على طفلين، وإلا ما فارقتك أبداً، ولكن مسز ألن سوف ترعاك، وستجد في دارها كل ما تتوق إليه نفسك يا إدغار. هي القادرة على أن تُهيئ لك المستقبل المشرق يا ولدي

ـ فأين هي؟! لمَ لمْ تأت لتأخذني؟!

ـ إنها على سفر، ولن تلبث أن تعود لتأخذك حسب وعدها لأمك!

ـ ٢ ـ

● ودخل **إدغار** بيت والده بالتبنّي السيد جون ألن، وصار اسمه منذ ذلك الوقت **إدغار ألن بو**، وصارت السيدة فرانسيس ألن

منذ ذلك الوقت أمه الثانية التي وقفت حياتها على راحته وسهرت على طفولته وصباه. أحبته حباً كبيراً عميقاً أنساه فجيعته في أمه الحقيقية. يقول عنها:

ـ «الحب الوحيد الصادق في حياتي هو حبي لأمي فرانسيس. أحسب أنها أحبتني بأكثر مما أحبتني أمي التي ولدتني!!».

- وعاش كما يعيش أبناء الأثرياء المدللين. كل رغباته مجابة، وكل ما يأمل فيه يتحقق فور أن يعبّر عنه للأم الطيبة، أو للأب الذي كان لا يبقى طويلاً في ريتشموند، بل كثيراً ما كان يغادرها إلى أوروبا أو إلى أفريقيا في أعماله.

كتب عن أبيه بالتبني:

«إنني أحبه، ولكن حبي لأمي بالتبني هو المحرك الحقيقي لكل أفكاري، لأن والدي يريد أن يحيك لي ثوبي مفصلاً كما يريد هو!! إنه لا يرى السعادة الحقة إلا في الثراء، ويقول لي دائماً: «المال خادم أمين لا يخون، ولا يخدع، وأريدك أن تكون مثلي تاجراً، يُحسن جمع المال» ولكني أرى السعادة في غير هذا: لا أعرف أين هي، ولا أحسبني سأعثر عليها إلا لمامة، وربما لساعات قصيرة، ولكنها تكفيني. إنها سعادة لا يعرفها سواي، وقد يراها أبي حين ينظر إلى خزانته، ولكني أعرف أنها في خزانة أخرى، خزانة في جوف الظلام وفوقها غراب!!

لا أعرف من أين جاء

وإني قد لا أراه عاماً كاملاً

ولكني أحس بوجوده

دائماً قرب نافذتي

ينظر إليَّ كأنما يخترق جسدي بنظراته!!

لا تنطق أيها الغراب

أي قدرٍ يلقيك أبداً في طريق أوهامي

إنني أحبك رغم أنك تحمل لي الهلاك!!».

وكانت رغبات إدغار شاذة في أغلب الأحيان؛ فقد ورث مزاج الفنان المتقلّب عن أبيه وأمه معاً، ويكتب بهذا الصدد قائلاً:

ـ «لم أشعر بالسعادة رغم ذلك إلا لفتراتٍ محدودة. حين كنت أترك العنان لنزواتي، وكانت أمي تلومني، ولكن في ضعف المُحبة، فيزداد شغفي بما تلومني عليه، وتلحّ عليّ الرغبة في تنفيذ ما يمنعوني منه».

ـ افعل ما تريد يا ولدي، عدا شيئين!

ـ وما هما يا أماه؟!

ـ لا تقرب الخمر، ولا تجلس أبداً على مائدة قمار!

ـ ولماذا؟

ـ لأن أباك أدمن الشراب فأفسد عليه حياته وحياة أمك، وما جلب عليه الفقر غير هذين: الخمر والمقامرة!

ـ من أخبرك بهذا يا أماه؟!

ـ أمك قالت لي هذا وهي على فراش الموت. تلك هي رغبتها كما هي رغبتي يا إدغار!!

ولكنه لم يحقق لهذه أو تلك أمنيتهما بالكفّ عن الخمر ومباعدة مائدة الميسر.

ـ «كنتُ أريد دائماً أن أعيش في واقعٍ يخلقه خيالي، غير الواقع الذي أعيشه!!».

وأراد له أبوه بالتبني السيد جون ألن أن يدخل الجامعة.

ـ ولكني لا أريد ذلك يا أبت!!

ـ ماذا تريد إذن يا ولدي؟! التسكع مع رفقاء السوء؟! السهر في الحانات أمام موائد الميسر؟! لابد من أن تدخل الجامعة. كيف تأمل في مستقبل مرموق دون أن تستعد له بالعلم؟! ستدرس الهندسة.

ـ ولكني لا أحب الهندسة، لا أريد أن أغدو مهندساً.

ـ ماذا تريد أن تغدو إذن؟!

ـ أريد أن أصبح شاعراً!

ـ أنت وشعرك!!

ـ أي عيب في شعري؟! إن صحيفة ريتشموند تنشره أحياناً.

ـ أحياناً، وربما إكراماً لي باعتبارك ولدي. ولكني لن أقف ساكتاً وأنا أرى ولدي يحطم كل ما بنيته من آمال!

ـ يا أبت إنها حياتي أنا. دعني أبنيها بالطريقة التي تناسبني.

ـ أنت لا تدري من أمور الحياة شيئاً. ستدخل الجامعة، وستغدو مهندساً مرموقاً، وفي يوم من الأيام سترث أموالي وتجارتي. ألا يكفيك هذا أيها الفتى المتمرد؟!

□ □ □

● وكانت ألميرا الشابة الحسناء الجميلة تسكن بجوار أسرته، وكانا متحابين. . كتب يقول عنها:

«ألميرا أول حبٍّ غزا قلبي. لم تحدثني قط عن الخمر، ولم تنهني عن المقامرة. كنت أحبها لأنها تحقق لي كل رغباتي!». قلتُ لها يوماً:

ـ ألميرا، غداً أسافر. سأبقى على العهد يا ألميرا.

ـ وأنا كذلك يا إدغار.

ـ لن أتزوج سواكِ.

ـ إدغار، لا تتركني يا حبيبي.

ـ يجب أن أبني مستقبلي. هكذا يقول أبي. يريد أن أصبح مهندساً، ولكنني سأبني مستقبلي بالطريقة التي أرتضيها لنفسي، سأصبح شاعراً.

ـ ولكنك بهذا تخالف إرادة والدك! قد يحرمك الميراث!

ـ لا يهمني ما يريد أبي، ولا يكربني أن يحرمني الميراث. ما أريده أنا هو المهم، وأنا أريد أن أصبح شاعراً. وسأكون شاعراً. المهم أيضاً أن تبقي على عهدي يا ألميرا.

ـ سأكون لك دائماً يا إدغار.

ـ وداعاً يا حبيبتي، وداعاً يا ألميرا.

□ □ □

ـ ٣ ـ

● والتحق إدغار بالجامعة، وكان ما يبعثه له أبوه لا يكفي لنفقاته الشخصية. لم يكن أمامه إلا أن يستدين، وظن أن طاولة القمار قد تعاونه في تسديد ديونه بما سوف يكسب، ولكنه لم يكسب، ومتى كسب مقامرٌ؟! وتكاثرت ديونه وزادت همومه، فأراد أن يغرق تلك الهموم في الشراب، فأدمن الخمر.

سلسلةٌ خبيثةٌ محكمة الحلقات. وكان صديقه الوفي «غراهام»

كثيراً ما يحاول أن يبعده عن الخمر، وينأى به عن مائدة الميسر.

ـ غراهام، إنني خائف. أبي لا يرسل إلي ما أطلب من نقود. كل خطاباته مليئة بالشتائم والتأنيب.

ـ لا تلمه يا إدغار، إنه يسمع عنك ما لا يرضاه أب عن ولده. لا غرو أن يغضب.

ـ لا. كل ما يُغضبه هو أنني أنشر الأشعار في صحيفة ريتشموند. هذا الرجل يبغض الشعر والشعراء.

ـ بل هو يحبك، ويريد لك مستقبلاً زاهراً كمهندس. يا عزيزي لا تضيّع هذه الفرصة من بين يديك من أجل الشعر!

ـ الشعر هو كل حياتي، وإن بغضه للشعر لا يبرر التقتير عليّ. أنا واثق من أنه لولا أمي لما أرسل إليّ حتى بمصروفات الجامعة.

ـ اكتب إليه مستعطفاً!

ـ أتحسبني لم أفعل ذلك؟!

ـ فماذا قال؟!

ـ ردّ بأنه قادم إلى هنا في نهاية العام الدراسي. يا إلهي! أبقى هكذا غارقاً في الديون حتى نهاية العام الدراسي؟! ماذا أفعل؟! سأفقد احترامي بين زملائي يا غراهام. إنني خائف يا

غراهام، خائف، ولولا خطابات أمي لمتُّ فزعاً. كل شيءٍ يتنكر لي. حتى ألميرا. ألميرا لم تعد تكتب لي. لعلها غادرت ريتشموند لسبب من الأسباب. لو أنها غادرت ريتشموند لكتبت إليّ بعنوانها الجديد. لا. لا. أشك في أن شيئاً ما قد حدث لها. غراهام، أيمكن أن تكون قد تنكَّرَت لحبي؟! تزوجت سواي؟!

□ □ □

● وحضر والده إلى الجامعة.

ـ لن أدفع سنتاً واحداً من ديونك!.

ـ أبتِ، أرجوك. إنها ديون.

ـ ديون خمر وميسر، ولا شرف في أمثال هذه الديون. ولن أدفعها كي يكون هذا درساً مفيداً لك.

ـ أستحلفك بكل عزيز أن تنقذ ماء وجهي. أستحلفك بأمي.

ـ لا تنطق باسم من لم ترع لها كرامة. لا تنطق به بشفتيك المتمرغتين بالإثم!

ـ سأُسجن إذا لم أدفعها. إنه مبلغ تافه وأنت ثري.

ـ ولماذا لا تكسب هذا المبلغ التافه بعرق جبينك بدل كتابة الشعر؟

ـ إنك تعرف أنني أريد أن أغدو شاعراً.

ـ بل يجب أن تصبح مهندساً. لقد جئت بك إلى هنا من أجل هذا. هيا احزم متاعك. سنعود إلى ريتشموند!

□ □ □

● وعاد إلى ريتشموند، وهو يخشى أن يقرر الأب إبعاده عن الجامعة. وفي ريتشموند تلقى عدة ضرباتٍ قاضية، أولاها عندما ذهب لزيارة أخته روزالي عند الممثلة التي احتضنتها.

ـ لا يجب أن تراها يا إدغار!!

ـ ولماذا لا تريدين أن أراها؟!

ـ لن يسرّك ما ترى!

ـ ماذا حدث لها؟

ـ لم تعد تنمو كبقية الفتيات في مثل سنها؛ فأول الأمر ظننت المرض لحق بها لسوء التغذية. أنت تعرف كم نحن فقراء. كرّست نفسي لخدمتها ورعايتها وإطعامها بأحسن الطعام دون جدوى، ثم بدأ الجنون يزحف الى عقلها، حتى، حتى اضطررت إلى إدخالها المصحة!!

ـ يجب أن أذهب لأراها!

ـ لن تعرفك يا إدغار أرجوك، جنِّب، نفسك هذه الأحزان!

□ □ □

● ولكنه ذهب لزيارة أخته الصغيرة في المصحة. لم تعرفه. رآها أشبه بالطفلة التي كفّت عن النمو، وجه امرأة على جسم طفلة، ثم تفوهت بألفاظٍ شوهاء لا معنى لها. عاد إلى داره يبكي!!

ـ «الموت والمرض والفناء!! كل هذه أشياء كتبت على أسرتي، وعن قريب ألحق بأختي. ولكن هل أُصاب أنا الآخر بالجنون قبل أن أموت (باكياً). جنّبني يا رب الجنون. جنّبني فقدان العقل».

● ويذهب إلى بيت حبيبته ألميرا. طرده أهلها دون تفسير. ولما أصرّ على أن يستجدي نظرة من وجهها، ألقوا بالحقيقة في وجهه:

ـ لقد تزوجت ألميرا!!

وعاد إلى البيت يبكي على صدر أمه بالتبنّي السيدة «فرانسيس ألن».

ـ تزوجت يا أماه. خانت عهدي. ماذا بقي لي؟!. لماذا خانت؟! هل ظنت أنني سأجنّ يوماً كما جنّت أختي؟! لقد غدرت بي. غدرت بي!!

□ □ □

● وعرّفه أحد أصدقائه بأفراد أسرته. كان في الأسرة فتياتٌ

جميلات ناضجات، ولكن الفتى المضطرب النفس لم يقع إلا في غرام الأم. كتب قصيدةً ثم دسّها في يد السيدة الجميلة. لامته أمه كثيراً على هذه العلاقة غير الطبيعية.

ـ إدغار، إنها تكبرك بعشرين عاماً. كن عاقلاً يا بني!!

ـ لا أحب سواها. إنها ألميرا الجديدة يا أماه.

ـ لا أدري كيف جنّت امرأة كهذه وبادلتك الهوى. إنكما تأثمان يا ولدي.

ـ لا. لا. إننا لم نأثم قطّ. إنه حبٌّ نظيفٌ طاهر.

ـ إنه حبٌّ غير طبيعي.

ـ سأحبها حتى الموت!

● ولكنها ـ أي الحبيبة الجديدة ـ هي التي ماتت. أصيبت بالتهابٍ رئويٍ أسرع بها إلى القبر.

فقد إدغار رشده تماماً، ولم يعد يغادر الجبّانة ليل نهار، وحين أرغمته أمه على العودة، كتب قصيدةً ثم علّقها على المقبرة.

« غريباً كان شحوب وجهك!!

غريباً كان أسلوبك في الزينة!!

غريباً وجميل!!

والأغرب أن ينتهي هذا كله، بموت

وأن تغلقي عينيك الجميلتين إلى الأبد
بينما أشباح الأحياء الذين أحبّوك
تهيم في ظلام الجبّانة
وتنعى الحب الوحيد الصادق
الحب الوحيد الذي قضى عليه الموت».

□ □ □

ـ ٤ ـ

● وعاد إلى الجامعة بفضل أمه. كان قد تغير تماماً. صار لا يقابل أحداً ولا يصاحب أحداً. عاش وحيداً ولم يره أحد مبتسماً قط. وبدأت أطواره الغريبة بين الناس تثير عجبهم وتساؤلاتهم. يقرأون شعره في مجلة الجامعة والصحيفة الأسبوعية ويعجبون كيف يصدر هذا الفن الرفيع عن هذا الإنسان الغريب الأطوار. وبدأت علامات المرض الذي أدى به في النهاية، في الإعلان عن حاله في تصرفاتٍ صغيرة مثيرة. في ليلةٍ باردة، وحين أوشكت نيران المدفأة في غرفته على الخمود، حطّم أثاث الغرفة ليطعمها للنيران!!

وعاد إلى الخمر بعد أن كان قد وعد أمه بتركها. عاد إليها بشراهة والده الأصلي «بو» الممثل البوهيمي الذي قتله الخمر وأذلّه الميسر. وأتى الجنون على كل ما بقي من حُطامه. صار ابن السكّير سكّيراً.

فصلوه من الجامعة، وأخذ يُسائل نفسه:

ـ «إلى أين ستذهب الآن يا إدغار؟! إلى بيت الأسرة؟! لا. ما فائدة؟ العودة؟ أبي لا يريد إلا أن يراني مهندساً. إنه يبغض أي صورة لي لا تتبدى لعينيه وأنا فيها ممسك بمسطرة المهندس وأقلامه».

ويقول له صديقه:

ـ لماذا لا تقنعه بأنك صرت شاعراً مرموقاً؟! الناس يقرأون لك في إعجاب؟!

ـ إنه يحتقر الشعر والشعراء.

ـ ستعاونك أمك!

ـ لا أريد أن أسبب لهذه السيدة الرقيقة العظيمة أية متاعب. إن أبي رجل مقيت ولن يتورع عن إسماعها أغلظ الكلمات إذا دافعت عني. لا، لقد انتهى ما بيني وبين ألن!

□ □ □

● وسافر إلى بوسطن، وهناك تعرّف بصاحب مطبعةٍ شاب، تكفّل بطبع أول مجموعةٍ من أشعاره، ولعل أشهرها جميعاً تحت اسم: **«تيمورلنك وأشعار أخرى»**.

في أسبوعٍ واحد التهمت معدته الخاوية المبلغ التافه الذي كسبه

من هذه المجموعة الشعرية، وتضور جوعاً أياماً كثيرة، واستدان من كل إنسان، وتشرد في الشوارع دون مأوى، ينام في الحدائق، ويأكل من جذور الأرض الجافة، أو من الثمار التي تسقط عفواً من عربات الفلاحين في الحقول، وتحت تأثير البرد والجوع كتب إلى أبيه:

«والدي العزيز،

لا شك أنك لن تتردد في مساعدتي إذا عرفت حقيقة الحال التي ترديت فيها. لا أجسر غير أن أطلب عفوك بعد الذي كان مني، ولكني باسم كل المقدسات أتوسل إليك أن تنقذني من المحنة التي أنا فيها. لا أقوى على التصور أنك ستدعني أهلك من أجل مبلغٍ تافه تصرفه على كلبٍ من كلابك!

إن كان هدفك يا أبي هو أن تحقّرني وتذلني وتضع أنفي في الأرض، فها أنذا أجثو أمامك ذليلاً حقيراً خاضعاً وأضع رأسي على الأرض، وأقول لك: دُس خدي. ولكن بحق السماء لا تدع الفقر والمرض يسلباني الحياة بعد أن سلباني كل ذرةٍ من كبرياء..»

- ولم يردّ الأب القاسي. لم يعد هناك ما يربطه بذلك الولد الذي تبنّاه يوماً ليرضي زوجته العزيزة فرانسيس.

□ □ □

ـ ٥ ـ

● وقد كتب صديقه «هنري غراهام» كيف فسدت العلاقة بين الفنان الشاعر وأبيه بالتبني، التاجر الثري «ألن».

«أسرف إدغار ألن بو في الشرب والاستدانة ليفقد كل ما يقترضه على موائد القمار في بيوت ريتشموند المشبوهة. طلب العون من أبيه الذي رفض تماماً أن يمدّه بدولارٍ واحد. بل أمره بأن لا يعود إلى منزل الأسرة».

ـ (غاضباً) إنك حقّرتني أمام زملائي في الجامعة. أهنتني أمام العميد، ورفضت أن تدفع ديوني. لماذا تفعل هذا بي؟!

ـ أتعرف لماذا فعلت هذا بك؟! لأنك تنحدر إلى نفس الهوة التي انحدر إليها أبوك. هل فهمت الآن؟ كان سكّيراً حقيراً. هجر أمك بعد. . .

ـ (صائحاً) كفى كفى لا تسبّ أبي بهذا الشكل. لقد كنتُ قد نسيته. لم يكن له مكان في قلبي. كنت أنت وحدك. أبي رغم أني لم أنحدر من صلبك، وكانت زوجتك هي أمي، ولا تزال؛ فهي الوحيدة التي أحببتها وأحبتني في صدق. لماذا تحطم هذا كله؟! لماذا تصرّ على أن تلقيني في جحيم حياة أبي الذي لم أعرفه؟!

ـ لأني لا أريد لك مصيراً كمصيره. لماذا لا تفهم يا إدغار؟! إني أريدك أن تتعلم الهندسة، ولكنك بدلاً من ذلك تقرض

الشعر وتتباهى بذلك في كل مكان. ماذا تأمل؟! أن تغدو شاعراً؟! أن ترث أموالي بعد موتي فتبددها هباءً. لن أسمح لك بأنْ تهدر حياتك وحياتي وحياة أمك. أعني حياة زوجتي!

ـ هي أمي، أردت أو لم ترد.

ـ أمك ممثلة تافهة ماتت بالدرن، وأبوك كما سمعت مات مجنوناً في مصحةٍ عقلية. هل تريد أن تعرف أيضاً ماذا حدث لأختك روزالي؟!

ـ كفى. كفى. إنك تكرهني، وإلا لما عذّبتني بهذا الشكل الشيطاني.

ـ وأخوك وليم، إنه الآن في السجن بتهمة التشرد والإدمان. هذا هو مصيرك إذا لم تقبل نصائحي وتنفذ دون أدنى اعتراض كل ما آمرك به، وأولى هذه النصائح هي أن تترك الشعر تماماً.

ـ لن أفعل هذا أبداً. لن أهدر عبقريتي إرضاءً لبغضك للفن والثقافة!!

ـ حسناً، عليك أن تغادر هذه الدار اليوم. لا أريد أن أراك.

ـ سأنتظر حتى عودة أمي من نيويورك.

ـ لن تبقى هنا يوماً واحداً إلا إذا كتبت لي وثيقة تقسم فيها على مباعدة الخمر والميسر والشعر.

ـ لن أفعل هذا أبداً.

ـ حسناً، إذا لم تحزم حقائبك وتغادر الدار اليوم أمرت الخدم بأن يلقوا بها في الشارع!

□ □ □

● كان إدغار فريسة نوبات الغضب الجامحة. حين بلغ مدينة بوسطن وليس معه سوى عشرة دولارات، وأدرك ما سوف يلاقيه من فاقة وعوز في مدينةٍ غريبة ليس له فيها صديق، كتب في يومياته كأنه يعتذر لنفسه عما قال لأبيه بالتبنّي:

«إنني لست عاقاً ولا جحوداً، وأعرف تماماً أنني سأحطم قلب أمي الطيبة برفض ما طلب مني أبي، ولكني لا أستطيع أن أهجر الشعر. إن هذا معناه أن أفقد حياتي نفسها. قد أتعرض لما تعرضت له أمي المسكينة إليزابيث. من الفقر والتشرد والجوع، وربما الدرن أيضاً، ولكن عندها سأحتفظ بكبريائي، بشعري»

● أرسل إلى صديقه هنري يطلب قرضاً، فسارع بإمداده، ولكنه بدد المال على الخمر والميسر. أرسل له بعد ذلك يسوق له نبأً هاماً وكان سعيداً حيث قال في رسالته:

«لا تبتئس يا هنري. صديقك لن يموت جوعاً. لن يثقل عليك بعد ذلك بأي طلب مالي. لن تصدّق ما فعلت؟! لقد التحقت بالجيش. أجل بالجيش. قد تقول إنني خلقت من جبلة لا تحب الخضوع للأوامر، وتتمرد على كل نظام. هذا كله

صحيح، لكن لقد آن الأوان لأن أروّض طبيعتي على أسلوبٍ جديد من الحياة، النظام وإطاعة الأوامر الذكية. أليسوا يقولون إن العسكرية تصنع الرجال؟! حسناً، ها أنذا أنتظر من الجيش أن يصنع مني رجلاً حقيقياً. من الآن تركت موائد القمار، ولا أكاد أحتسي الخمر. أليس هذا تقدماً مثيراً؟! ثم لا تنسَ أنني أجد في الجيش الطعام والثياب الأنيقة والمرتب المناسب. لا أحد هنا يرغمني على أن أهجر الشعر. ما رأيك في القصيدة المرفقة بهذه الرسالة؟! أعكف الآن على كتابة قصة. أول قصة أكتبها يا هنري. ترى هل أنجح؟!».

□ □ □

● ولم يبق في الجيش أكثر من ستين يوماً. كان سجلّه في تلك الأيام القليلة يحوي عدداً مروعاً من المخالفات:

١ ـ ثلاثة وعشرون تغيّباً عن المعسكر دون إذن.

٢ ـ أربع مرات رفض إطاعة الأوامر.

٣ ـ ست مشاجرات مع الضباط.

٤ ـ احتساء الخمر إلى حد السكر في حانات المدينة!

وقُدّم إلى المحاكمة العسكرية، وصدر الحكم بطرده من الجيش!!

□ □ □

ـ ٦ ـ

● وعاد إلى ريتشموند. وجد كل شيء قد تغيّر. أمه بالتبنّي ماتت ففصمت بموتها كل علاقة له بأسرة «جون ألن». «ألميرا» الحبيبة الأولى، حاول الاتصال بها مرة أخرى. رفضت حتى أن تقابله.

وحين أرسل إليها إحدى قصائده، أعادتها إليه في مظروف مغلق ممزق. عاد من فوره إلى بوسطن. كتب إلى هنري:

ـ أعلنت إحدى الصحف يا هنري عن مسابقة للقصة. تقدمت بقصة لي عنوانها «سقوط منزل آشر» فزتُ بالجائزة الأولى، بل أكثر من هذا استدعاني رئيس تحرير الصحيفة».

ـ (مُرحّباً) عزيزي أستاذ بو، إنني لم أقرأ في حياتي الصحفية أروع من قصتك التي فازت بالجائزة الأولى بإجماع أعضاء هيئة التحكيم.

ـ سيدي، إنني لا أعرف ماذا أقول. إنني...

ـ دعنا من تواضع الفنانين! أريد قصة كل شهر. ما رأيك؟!

ـ كما تريد يا سيدي، ولكن...

ـ الأجر؟!، حسناً، ما رأيك في مئتي دولار للقصة الواحدة؟!

ـ سيدي، هذا أكثر مما قدّرت.

ـ أنت إذن لا تعرف قيمة ما تكتب. هل تعرف مثلاً أن هيئة

التحكيم تدرس الآن إمكانية إسناد رئاسة تحرير مجلة أدبية ملحقة بالصحيفة، إليك يا بو؟!

ـ أنا؟! أنا رئيس تحرير مجلة أدبية؟!!

ـ هل أنقل إليهم موافقتك؟

ـ سيدي، أنا لا أصدق نفسي. أتعرف كم كان في جيبي ساعة دخلت عليك؟! نصف دولار.

ـ هل أنقل إليهم موافقتك كي نتكلم في تحديد الأجر؟

«إني الآن يا عزيزي هنري سعيد من كل الوجوه: مالياً وأدبياً، وأحاول أن أضع خطةً متكاملة للمستقبل. عشرات الأفكار في ذهني، أريد أن أصوغها قصصاً للمجلة الجديدة».

□ □ □

● تلك كانت فترة من أخصب فترات حياته الأدبية. كتب مجموعةً من أروع قصصه:

«السقوط في الدوامة»، «القطة السوداء»، «البقة الذهبية»، «الخطاب المسروق».

وقصة **«البقة الذهبية»** على وجه التحديد أثارت عاصفةً من الإعجاب بالفنان الجديد الشاب، وامتلأت الصحف الأميركية والمجلات الأدبية بمقالات الإشادة بهذا اللون من المعالجات

الفنية والإطارات التي تضم العمل الفني المثير الجديد، ومما كُتب عنه:

- «إن أعمال بو التي ينهض مضمونها على جرائم القتل في شكلٍ فني قوي ومتدفق ولاهث، تدل على قدرته الفذة على التوغل في أعماق الطبيعة الإنسانية عندما يتقمصها الشذوذ والإغراب».

- «إن مصدر الرعب في أعمال ألن بو ينبع من قابلية العقل البشري للوقوع في براثن الإجرام، والوصول بها إلى أقصى درجات العنف والقسوة الوحشية.

وباستقراء أعمال هذا الفنان الرائع نرى أنه يعتقد أن القوة اللاعقلانية غالباً ما تؤدي إلى إلغاء الحدود في النفس البشرية بين الإنسان والوحش الكامن في داخله!».

- «لعلّ الإغراب الكامن في أعمال بو يرجع إلى أنه يقوم بتحديد كل عناصر الشر داخل الإنسان ووضعها تحت أضواء حادة وبرّاقة».

- «إن عبقرية بو المتدفقة لا تقف عند حد كتابة الرواية البوليسية، بل تعدت هذا اللون الذي لا يجيده سواه إلى أعمال أخرى فخرج فيها روح الدعابة والتهكم بالخيال وبالأحلام».

- «إن الدراسة المتأنية لقصص ما وراء الطبيعة لهذا الفنان

العظيم لتوضح براعته في استغلال كل حيل الخيال وألاعيب المنطق والعقل في وقتٍ واحد. في هذه القصص ذات الطابع العلمي نجد الدليل الصادق على مهارته الحرفية وبصيرته النافذة إلى كل أغوار البشرية المظلمة!».

- **«لن تجد في أعمال «إدغار» كلمة لا ضرورة لها. في الشكل العام لأعماله الأدبية لا توجد كلمة واحدة ليس لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالبناء الذي قرر الفنان أن يقيمه لعمله».**

هذا قليل من الكثير من الدراسات والبحوث التي كُتبت عن إدغار ألن بو.

□ □ □

- رغم هذه الشهرة المدوية كان إدغار ينفق ما يحصل عليه من مال في سرعةٍ مذهلة. عاد إلى الشراب، وأرسل إلى هنري يبرر إسرافه في احتساء الخمر:

«إني خائف يا هنري. أتذكر أيامنا في بيوت الطلبة بالجامعة حين كنت أشكو إليك الخوف والفزع؟! كنت في تلك الأيام لا أدري مصدر هذه المخاوف، ولكنني الآن أعرف تماماً. هناك من يتربص بي ليأخذني إلى عالمٍ مظلم بشع: أهو عالم الموت الذي نادى أمي المسكينة إليزابيث بو، وأمي الحبيبة فرانسيس ألن؟! أم هو الجنون الذي سحب أبي وأختي إلى هوّته

الخرساء؟! أم أنني وحيد يا هنري؟

منذ أيام زارتني في المجلة «ألميرا» هل تذكرها؟! إنها حبيبة المراهقة والصبا. قالت إن زوجها تُوفي وترك لها طفلة صغيرة، شكت لي الوحدة، وذكّرتني بأيام الصبا».

ـ لقد ترك لي زوجي الراحل ثروة مناسبة يا إدغار. لن تضطر بعد الآن إلى إرهاق نفسك بالعمل من أجل حياة مرفهة سعيدة.

ـ ألميرا، هل قرأت قصصي الأخيرة؟!

ـ الحق يا إدغار أنني لا أميل كثيراً إلى القراءة. أنت تعرف. لقد كنت دائماً تلميذة فاشلة. إدغار، ألا تراني أجمل مما كنت في الماضي؟!

ـ إنك جميلة يا ألميرا. لا شك في هذا.

ـ يسعدني أنك ما زلت تحبني. أما أنا يا إدغار فلم أنسك لحظةً واحدة. كنت دائماً أقول لزوجي الراحل إنك. . .

ـ ألميرا، أرجوك، لا ضرورة لأن تحكي لي ما كان يدور بينك وبين زوجك عني. لقد أخبرتني أمي السيدة فرانسيس ألن أنك زرتها ذات يوم وقلت ساخرةً: «أكان إدغار يتصور أن أعيش معه وهو لا يجد ما يأكله. إنني أعيش مع شارلي ملكة متوجة؟!».

ـ أنا لم أقل هذا. لقد كذبت السيدة فرانسيس؛ لأنها لم تكن تحبني.

ـ تذكري يا ألميرا أنك تتكلمين عن أمي!

ـ أمك لم تكن سوى أمك بالتبني يا إدغار، وأقسم إنها قالت عنك ما هو أقسى مما ذكرت. قالت إنك فاشل و...

ـ أرجوك لا تكذبي يا ألميرا، فإني لن أصدقك أبداً.

ـ إدغار، ألا تدرك أنني أعرض عليك حياتي، ثروتي!! وأنني...

ـ (بتوتر) ألميرا، هل أنت على استعداد لأن تقسمي على ذلك أمام شيء مقدس؟!

ـ أقسم على ماذا؟

ـ على أن أمي قالت لك إنني فاشل.

ـ وما ذلك الشيء المقدّس؟!

ـ تعالي معي. سأريك هذا الشيء المقدس لتُقسمي لي أمامه على صدق ما تقولين عن أمي السيدة فرانسيس ألن!! أنها قالت إنني إنسان فاشل!!

□ □ □

● وأركب بو، السيدة الميرا في عربته ذات الجواد الواحد،

الشعر، وبات لا يعود إلى بيته إلا في ساعاتٍ متأخرة من الليل، فيجد أمه قلقة عليه:

ـ إنك تقتل نفسك يا بني!! استحلفك بالله أن تفعل ما تريد ولكن بحق السماء لا تُسرف في الخمر!!

ـ **وماذا يبقى لي إذا تركت الخمر؟!!**

ـ تزوج يا ولدي!!

ـ **ومَن تلك التي ترضى بي؟! ألا ترين دمامتي وقبح وجهي؟!!**

ـ لا تقل ذلك يا فيرلين. إنك لست قبيحاً، وستجد مَن تُحبّك.

□ □ □

● وبينما كان فيرلين وأمه في زيارةٍ لأحد أقربائهم الذي كانت له أخت في السادسة عشرة من عمرها وكانت تعشق الشعر بجنون، وجدت أمه أن الفرصة مناسبة للتعارف بين الفتاة وفيرلين، وهذا ما حدث بالفعل حيث صار يكثر من التردد على أقربائه بصحبة أمه، وانفرد يوماً بماتيلدا.

ـ لقد قرأت لك كثيراً يا فيرلين!!

ـ **كثيراً؟! إنني لم أنشر غير ست قصائد!**

ـ قرأتها كلها.

تحملي اسمي وتُدفني معي في هذا القبر!! أجل، سنُدفن معاً هنا. بل الحقيقة أنني متُّ من زمنٍ بعيد. أنا الآن مدفونٌ مع أمي فرانسيس. عديني بأن تأتي إلى هنا وتضعي الزهور على قبري. اكتبي في وصيتك بعد أن نتزوج أنك تريدين أن تُدفني معي. ها هنا. هيه؟!! هل تقبلين الزواج بي يا ألميرا؟!

ـ أرجوك. إني أموت خوفاً. أخرجني من هنا. سأتزوجك. سأتزوجك!! سأفعل كل ما تريد، ولكني لا أريد أن أبقى هنا لحظة واحدة. أرجوك، أتوسل إليك!!

□ □ □

ـ ٧ ـ

● في اليوم التالي غادرت ألميرا المدينة، فلم يرها بعد ذلك قطّ. وفجأةً هجر إدغار رئاسة تحرير المجلة، واعتزل الناس جميعاً، وإن لم يكفّ عن الكتابة. في تلك الفترة العجيبة من تاريخه، كتب ثلاثةً من أروع قصصه: «**سر ماري روجيه**»، و«**قوة الكلمات**»، و«**ليجيا**».

ذات ليلة طرق باب خالته «ماري كليم» في مدينة بلتيمور.

ـ إيدي!! لماذا عُدت إلى بلتيمور يا ولدي؟!

ـ كان يجب لسلامة عقلي يا خالتي أن أغادر ريتشموند.

ـ سمعتُ بما حدث لك مع ألميرا.

ـ أرجوك يا خالتي، دعينا لا نتحدث عن ألميرا.

ـ كما تشاء يا ولدي.

ـ **خالتي، أرجوكِ، إقرئي هذه الورقة جيداً، ولا تقولي لا. أرجوكِ!!**

ـ أرني. ما هذا؟ هذا عقد زواج مؤرخ في ٢٢ سبتمبر عام ١٨٣٥.

ـ **أجل. انظري اسم العريس واسم العروس. إدغار ألن بو، وفرجينيا كليم!!**

ـ إدغار، أتريد أن تتزوج ابنتي فرجينيا؟!!

ـ **لهذا حصلتُ على هذا العقد. أريد أن أتزوجها الليلة!!**

ـ إدغار، فرجينيا طفلة يا إدغار!! طفلة في الثالثة عشرة!!

ـ **بل هي امرأة كاملة الأنوثة يا خالتي. إنني أحبها.**

ـ ولكن يا إدغار، إنك...

ـ **سأقلع عن الشراب تماماً. لماذا لا تنادينها لتعرفي رأيها؟!**

□ □ □

● كانت فرجينيا الصغيرة الرقيقة تسمع كل شيء من فرجة الباب الموارب. دخلت مسرعةً وألقت بنفسها في أحضان إدغار(في حماسة).

ـ سأتزوج ابن خالتي إدغار يا أماه.

ـ ما أجملك يا فرجينيا! أتعرفين، هذه أول مرة أتيقّن فيها من لون عينيك!! لم أظن أبداً أن هناك عيوناً خضراً. يا إلهي! نسيت أن أُريك ما في هذه اللفافة. افتحيها بنفسِك.

ـ (سعيدة جداً) عروسة!! ما اسمها يا ابن خالتي؟

ـ لم يعطها البائع اسماً، ولكني اخترت لها اسماً مناسباً. «أنابل لي». إنه اسمٌ مناسب لعروس، ولامرأة أيضاً. فرجينيا، هل تتزوجينني؟!

ـ (في حماسة) أجل. أجل. أجل.

ـ سنتزوج الليلة يا فرجينيا.

ـ الليلة يا ابن الخالة؟

ـ فرجينيا، من الإنصاف أن أقول لكِ شيئاً هاماً.

قالت الأم:

ـ إيدي، إننا نعرف أنك مشهور، ولكن اذكر يا بني أن الخمر قضت على كثيرٍ من المشاهير. لن أزوّجك فرجينيا إلا إذا تبت تماماً عن الخمر والميسر.

ـ لن أشرب قطرةً واحدةً بعد الليلة، ولكن ليس هذا ما أردت أن أقوله لفرجينيا.

ـ فقل يا ولدي. قُل ما تُريد.

ـ لا، ليس هنا. تعالي وحدنا إلى الغرفة المجاورة يا فرجينيا.

ـ قُل ما تريد يا عزيزي إدغار.

ـ فرجينيا تدبّري ما أقوله، قبل أن توافقي على الزواج مني!! فرجينيا، إن كل ما أمسّه يذبل ويموت قبل الأوان.

ـ سأحبّك إلى الأبد يا إدغار.

ـ فرجينيا، إنكِ لم تسمعي ما قُلت. قُلتُ لك إن كل ما أمسّه يذبل ويموت قبل الأوان. أمي، خالتك إليزابيث بو، ماتت بعد ولادتي!! أمي بالتبنّي ماتت قبل أن أبلغ العشرين!! أختي روزالي جنّت و...

ـ سأُحبّك إلى الأبد يا إدغار.

ـ إنك لا تستمعين إلى ما أقول يا مسكينة.

ـ لنخرج الآن، كي نتزوج.

□ □ □

● وتزوجها، وقضى معها أربعة أشهر، ثم عاد إلى ريتشموند وكتب تسع قصصٍ من أروع ما كتب، ونُشرت في كتابٍ تخاطفَه القرّاء.

● وبقيت فرجينيا مع أمها، وعروستها الصغيرة «أنابل لي». وكان إدغار يكتب إليها كل يوم تقريباً، وأرسلت إليه خالته:

«ولدي إدغار، فرجينيا تقاسي كثيراً لبعدها عنك. إذا لم يكن

في استطاعتك أن تأتي لتقيم معنا في بالتيمور، فعسى أن توافق على إقامتنا مع عمك «نيلسون بو». لقد زارنا مراراً وعرض أن يستضيفنا في داره.

(خالتك.. ماري كليم)».

وكتب إلى زوجته بسرعةٍ محمومة:

«يا حُبي، يا صغيرتي الجميلة، يا زوجتي المحبوبة، فكّري جيداً قبل أن تحطّمي قلب زوجك الذي يحبك. لا تذهبي إلى بيت نيلسون بو. إنه بيت ملعون، وسيرة هذا العم الزنديق على كل لسان».

● وخشي أن تضطر فرجينيا إلى الإقامة مع عمه ذي السمعة المشبوهة، فأسرع إلى بالتيمور. هناك استأجر شقةً صغيرة من غرفتين.

في أول ليلةٍ لهما في ذلك البيت، وكانت ليلةً شديدة الحرارة والرطوبة، ذهب بو نحو النافذة فتحها على المصراعين.

ـ (صاح في رعبٍ): **يا إلهي، غراب!!**

ـ ماذا تقول يا إدغار؟!

ـ **غراب، غراب يا فرجينيا يقف على غصن شجرة في الشارع يا إلهي! إنه قريب جداً مني.**

ـ وما في هذا؟!. إنني لا أتشاءم من الغربان.

ـ **ولكني لا أحبها.**

ـ هل تخاف الغربان يا إيدي؟ يا إلهي، ما بال لونك قد تغيّر؟ صار كالورقة البيضاء. اجلس يا حبيبي. اجلس. ماذا بك؟!

ـ **هذا هو الغراب الذي أراه في أحلامي يا فرجينيا. إنه رمز الموت، رمز اليأس يا حبيبتي.**

ـ إدغار، خذني بين ذراعيك فتنسى كل هذه الأوهام. الحياة أمامنا فسيحة بهيجة فلمَ تتكلم عن الموت؟! أنا في الرابعة عشرة وأنت في الثلاثين. لنسعد بأيامنا يا إدغار.

□ □ □

● كانت رسائله لهنري خلال العام الأول من زواجه طافحةً بالسعادة والشعور بالاستقرار اللازم لكل فنان.

كتب له في إحداها:

«لماذا لا تأتي إلى بالتيمور يا صديقي؟ ألا تريد أن تستمع إلى عزف فرجينيا على البيانو؟! إنني أعيش أسعد أيام حياتي، أسعد من أيام الدراسة في الجامعة».

● كتب هنري عن تلك الحقبة:

«في تلك الأيام عُيّنتُ مدرساً في جامعة بالتيمور، وأدركتُ من زيارتي لأسرة صديقي أن شيئاً غامضاً يعذّبه، شكوكاً في حقيقة نسبه إلى أبيه الحقيقي جون بو. قال لي مرةً:

ـ هنري، ماذا لو كان جون ألن الذي تبنّاني هو أبي الحقيقي؟ ماذا لو كان التبني مجرد ستارٍ يخفي تحته فعلته القبيحة حين أنكر علاقته بأمي لأنها ممثلة بسيطة من فرقة متجولة؟!

● هذا جانب، ومن جانبٍ آخر فقد تعددت زياراته الليلية للمقابر. تأخر ذات ليلة، فأرسلت إليّ فرجينيا على عجل:

ـ تعال بسرعة أرجوك. لقد خرج إدغار من أربع ساعات ولم يعد.

● وجدته في الجبّانة على حافة قبرٍ مفتوح. قال لي ونحن عائدان إلى البيت:

ـ هنري، أريد أن أعترف لك بشيء: إني أخون فرجينيا.

ـ إدغار، هذا بشع. إنها تحبك بجنون. لن تجد من تحبّك كما تحبك زوجتك!! كيف تخونها وأنت تكره الخيانة وتمقت من يرتكبها؟!

ـ لم تفهم يا هنري. إنني لا أخونها مع امرأة. لا، لا. إنني أخونها مع الموت. لقد جلست طويلاً على حافة القبر أحادث الموت. إنني أحبّه وهو يحبّني، وأخافه. والمحزن أنه لا يخافني كما أخافه!!

ـ إدغار، هل عدت إلى الخمر؟!

ـ بل إلى ما هو أسوأ من الخمر يا هنري. الأفيون. كل ما

أكسبه أنفقه على الأفيون. لي ولفرجينيا.

ـ يا إلهي! فرجينيا تتعاطى الأفيون أيضاً؟!

ـ أجل. هو الشيء الوحيد الذي يخفف آلامها. ألم تسمع سعالها.

ـ أجل، ولكنها بخير.

ـ إنها تسعل طوال الليل وتبكي من الألم. لم أعد أحتمل أن أراها تتألم. أعطيتها أول جرعة فنامت في هدوء. في الليلة التالية تناولت معي جرعةً أخرى. من ذلك الوقت يا هنري لم أعد أقوى على مباعدة هذا الشيطان الآثم. هنري، إنني خائف!

□ □ □

ـ ٨ ـ

● كانت لعنة الأفيون قد نشبت أظفارها الدنسة في حياته. كتب في سرعةٍ أكثر من عشرين قصة، ولم ينل من الناشر ما يسدّ به جوع فرجينيا التي وقعت فريسة الدرن. ذات ليلة انفجر شريانٌ في صدرها، واستطاع الطبيب أن يوقف النزف.

ـ لماذا لا تفتح النافذة يا أستاذ بو؟ هذا الجو خانق زوجتك في حاجة إلى هواء منعش!

ـ لا أستطيع أن أفتح النافذة يا دكتور، لا أستطيع.

ـ ولمَ؟!

ـ لأن الغراب اللعين لا يزال على الشجرة. إنه هناك منذ أقمنا في البيت، ولن يغادر مكانه إلا حين يحملونني إلى المقابر!

□ □ □

● كتب أروع قصائده «الغراب» وهو جالس بقرب فرجينيا المريضة. وفي ديسمبر عام ١٨٤٥ ماتت فرجينيا بين ذراعيه وهي تغمغم:

ـ إدغار، عدني بأن تدفن عروستي «أنابل لي» معي.

بعد موت فرجينيا صار إدغار بو شبحاً هائماً على وجهه، لا يستقر في مكانٍ واحد.

حين قررت جامعة بالتيمور تكريمه في حفلٍ ينشد فيه آخر قصائده «**أنابل لي**»، بحثوا عنه في كل مكان فلم يجدوه. بعد أسبوع عثروا عليه فاقداً الوعي على الشاطئ.

عند فجر السابع عشر من مايو عام ١٨٤٦ أفاق من غشيته. سأل الممرضة:

ـ أين أنا أيتها الأخت؟!

ـ في مستشفى بوسطن.

ـ مستشفى؟! إذن فهي النهاية!! أهناك أمل يا أختاه؟!

ـ يقول الطبيب إنك بخير وإنك ستعيش إذا. . .

ـ لا أعني الأمل في الحياة. لا. أهناك أمل لبائسٍ مثلي في السماء؟! في رحمة الله؟!

ـ سيدي، لم يجدوا في جيوبك ما يدل على شخصيتك. من أنت؟! ما اسمك؟!

ـ أنا؟! أنا شيطان لا أدري من أي جحيمٍ خرجت. ليرأف الرب بروحي.

● ومات شاعر أميركا العظيم وكاتبها الفذ **إدغار ألن بو** قبل أن تطلع الشمس.

□ □ □

د. نجم عبد الكريم

أتم دراسته العليا في أميركا في الإعلام، ومنذ ما يزيد على الأربعة عقود كرَّس جلَّ اهتمامه للعمل الإعلامي، إلى جانب تدريسه الجامعي لحرفيات الإعلام.

كتب للإذاعة والتلفزيون، ثم تفرغ للكتابة الصحافية والتأليف.

صدر له عن دار رياض نجيب الريس كتاب: **شخصيات عرفتها وحاورتها**، (في جزءين).

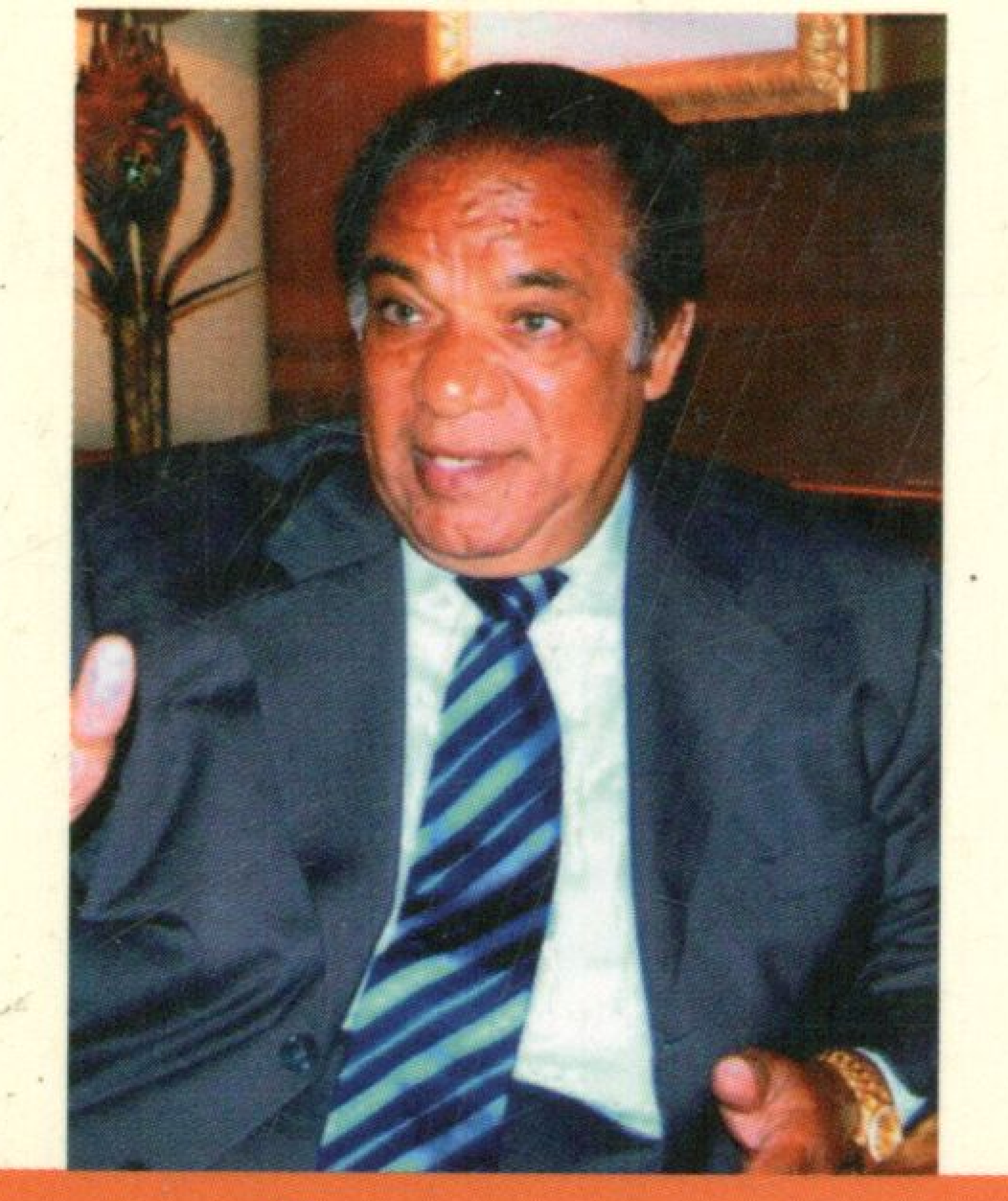
فهرس الأعلام

أ

هـ

و

فهرس الأماكن



نجم عبد الكريم

أدباء من العالم

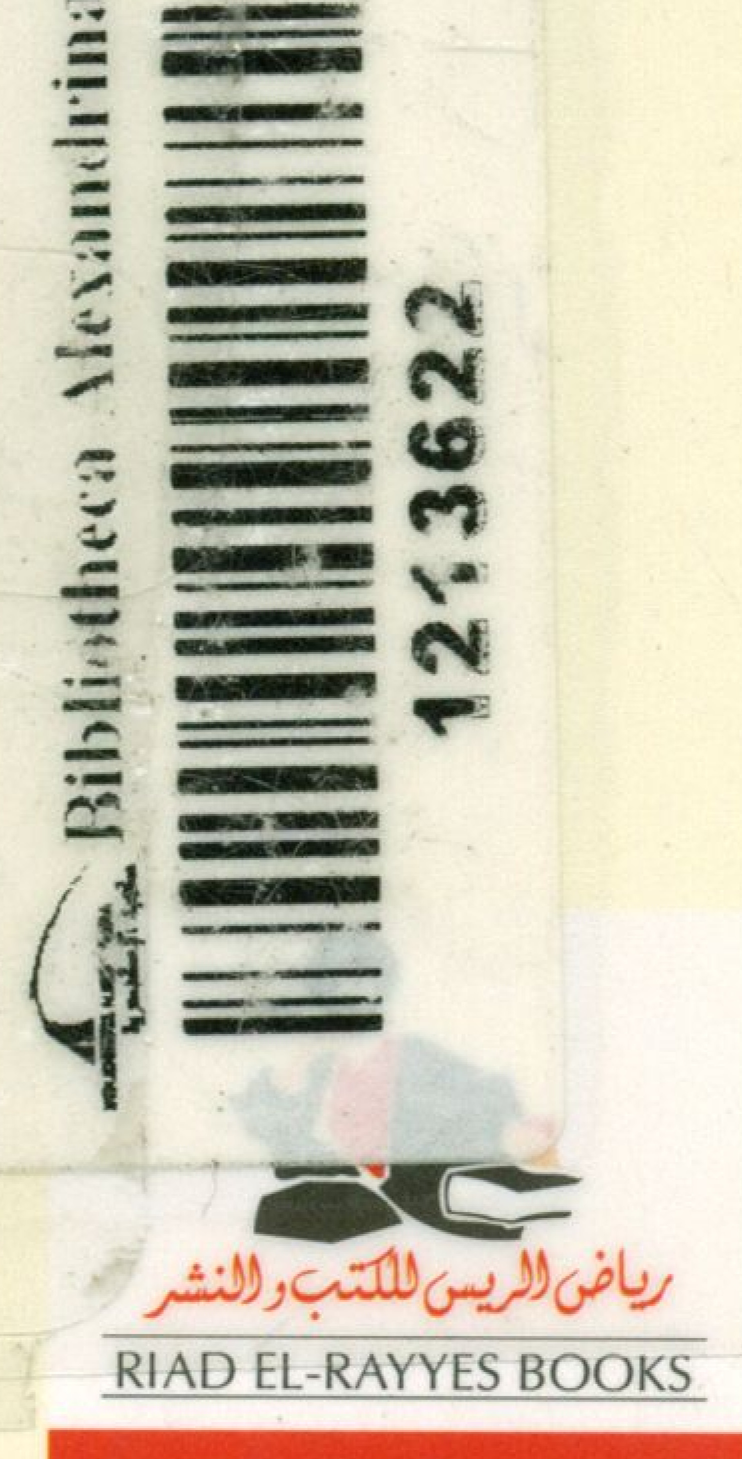
غرائب مأساوية - سيَر وحكايات

يقف هذا الكتاب على أحداث استثنائية من تجارب أُناس استثنائيين، في محاولة لكشف سرّ انطلاقة كل منهم نحو الخلود في التاريخ الإبداعي: تشارلز ديكنز، ليو تولستوي، إدغار ألن بو، فلوبير، لامارتين، غوته، المعتمد بن عباد، آرثر ميللر، المازني، همنغواي، بوشكين، دوستويفسكي، فيكتور هوغو.

إن المحطات الحاسمة في حيوات هؤلاء التي يقف عندها الكتاب ليست مجرّد تأريخ لحياة هؤلاء الأدباء، كما أن عرض بعض ما أنجبوه من آثار وإبداعات ليس مجرد دراسات تحليلية أو نقدية لهذه الأعمال، إنما هذه وتلك، السيَر والآثار، تشيران إلى الظروف الموضوعية التي حددت مكانة كل واحد منهم في عالم الإبداع الإنساني.

وقد يدهش القارئ، بل إنه ليدهش، عندما يقف على ما لا يصدقه عقل في تصرفات هؤلاء العظماء الذين خطّوا آثارهم الخالدة عبر التاريخ الإنساني في العالم، شرقه وغربه، وفي عصور متفاوتة: شذوذ، تمرّد، فقر، انفلات إلى حدّ العبثية بل والمرض والجنون والانتحار، إلخ.

لكن تلك الدهشة تخف عندما يقف على ما تضمنته معطياتهم وظروفهم التي تمسّ كل ما يعتلج في طبيعة النفس البشرية.



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS


ISBN: 978-9953-21-560-0
9 789953 215600